

لحظات

طه حسين

لحظات

لحظات

تأليف
طه حسين



لحظات

طه حسين

رقم إيداع ٢٤٠٢٨ / ٢٠١٣
تدمك: ٠ ٦٤٢ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

المحتويات

مقدمة

هذه لحظاتٌ أدبيَّةٌ، قضيتُها أيام الشباب بين أدباء الغرب وقرَّاء الشرق، وكنتُ أجدُ فيها من رضى العقل ونعمة البال وراحة الضمير شيئًا كثيرًا، فقد كنتُ أحسُّ حين اقرأ هذه الآثار الأدبية، وحين أعرضها على قراء العربية أني أنهض بواجب خطير، هو تحقيق الصلة العقلية بين الشرق والغرب، وكنت أنتظر للنهوض بهذا الواجب الخطير نتائج ليست أقل منه خطرًا.

كنت أنتظر إذا قُرِئَتْ هذه الفصول، وفُهِمَتْ على وجهها أنْ تُقرِّب الآمادَ بين الشرق والغرب، وأنْ يكون ذلك وسيلة من الوسائل إلى تحقيق المودة والتعاون بين طائفتين من الشعوب، أفسدت أمرَهما الخصومات التي كان الشرق فيها مظلومًا، وكان الغرب فيها ظالمًا.

وكنت أقضي هذه اللحظات الأدبية الحلوة في تلك الأيام السياسية المرة، التي بلغ الصراع فيها أشده بيننا وبين الأوروبيين في أعقاب ثورتنا الوطنية الأخيرة، فكنت أستعين بحلاوة الأدب على مرارة السياسة، وكنت أسلك طريق التقريب بين العقول، على حين كانت السياسة تفرق بين العواطف والقلوب.

وكنت أقضي هذه اللحظات الأدبية الممتعة في تلك الأيام السياسية الممضَّة التي بلغتْ فيها الخصومة بين المصريين أنفسهم أقصاها، فتنكَّر بعضهم لبعض، وأضمر بعضهم لبعض كثيرًا من الحقد والبغض والعداء.

وكنت أعتقد — ولم أكن مخطئًا — أنَّ هذه اللحظات الأدبية ستنتج فصولًا، لا تمس السياسة من قريب ولا من بعيد، وسيقرأ المصريون مهما تكن أحزابهم، وسيلتقون في الرضا عنها أو السخط عليها، وسيتحدث بعضهم إلى بعض بتقريظها أو الغض منها، وستكون وسيلة من وسائل المودة بين قوم لا ينبغي أنْ يكون بينهم شيء آخر إلا المودة.

وكنت — ولا أزال — شديد الإيمان بأن الأدب الحيَّ لا يستطيع العزلة، وإنما هو مضطر إلى أنْ يتصل بالآداب الحية الأخرى، وسبيله إلى ذلك النقل والترجمة والتلخيص والتعريف بالأدباء من الأجانب.

وكنت أسلك إلى هذا الطريقَ التي سلكها العرب في عصورهم القديمة، وسلكها المصريون في تاريخهم الحديث، وكنت مطمئنًا إلى أنَّ سلوك هذه الطريق سيزيد أدبنا العربي قوة إلى قوة، ويمنحه حياة إلى حياة، وسيمنح لغتنا العربية حظًّا من المرونة، فيمكِّنها من أنْ تؤدِّيَ معانيَ وأغراضًا لم تتعوَّدْ أنْ تؤدِّيَها من قبلُ.

وكنت — ولا أزال — مؤمنًا بأن الأدب الحيَّ لا ينبغي أنْ يتهالك على الآداب الأجنبية، ينقل منها ويترجم عنها، ذلك أحرى أنْ يُفْنِيَهُ فيها ويُفقده هذه الحياة القوية التي تأتيه من شخصيته الخالدة وأصوله القديمة، فليس له بد من أنْ يوازن بين قوته التي تأتيه من نفسه، وهذه القوة الطارئة التي تأتيه من غيره، وكنت — من أجل ذلك — أنشر هذه الفصول في أيام الآحاد، وأنشر فصولًا عن الأدب العربي القديم في أيام الإربعاء، أوازن بذلك بين إحياء الأدب القديم وإغنائه بما أقدم إليه من مادة الأدب الأوروبي الحديث، ويخيل إليَّ أنَّ شيئًا من التوفيق قد كتب لي في هذه الخطوات، التي خطوتها في تلك الأعوام الحلوة المرة، التي أذكرها الآن في كثير من الحب والحنان، وفي كثير من الرضى والفخر؛ لأنها كانت أعوام النهضة المصرية الصحيحة؛ ولأنها كانت أعوام الحرية المصرية الصادقة التي لم تكن تحفل إلا بالحق والمنفعة العامة.

ويخيل إليَّ أنَّ الجيل الذي كتبت له هذه الفصول منذ أكثر من خمس عشرة سنة، قد انتفع بها واستفاد منها، سواء في ذلك من تلقاها راضيًا، ومن قرأها راغبًا عنها ساخطًا عليها، وهي — على كل حال — قد دفعت ذلك الشباب إلى الأدب الغربي، وإلى فن التمثيل منه خاصة، ولولا أحداث السياسة وخطوبها والنكبات التي ألمت بالعقل المصري حين طغى الطغاة وبغى البغاة، وصُدَّ المصريون عن حقهم في الحرية والدستور، لكان لتلك النهضة وما أنتجت من الآثار الأدبية نتائج أقوم من النتائج التي وصلنا إليها.

ومهما يكن من شيء، فقد أدت هذه الفصول حينئذ ما كان ينتظر منها، فنفعت جيلًا من القرَّاء المصريين والشرقيين بوجه عام، ثم انطوت عليها الصحف التي نُشِرت فيها، فنامت بين هذه الآثار التي تُكتب في كل يوم، وتُطوى عليها الصحف، وتطمئن في دور الكتب مصادر للتاريخ.

وقد مضى الآن دهر على هذه الفصول حتى نسيها الجيل الذي قرأها، ولم يعرفها الجيل الناشئ من الشباب، فلنوقظها من نومها، ونخرجها من دور الكتب، ولنقدمها إلى هذين الجيلين.

فأما أحدهما فيسقرؤها، فيذكر أيامًا حلوة وعهدًا سعيدًا، وأما الآخر فسيقرؤها، ومن يدري لعلها أنْ تُحْدِث في نفسه من الآثار أكثر مما أحدثت في نفس الجيل الماضي، فإذا هو مقبل على الأدب العربي يقويه وينميه، وينتج فيه أكثر مما أنتجنا وخيرًا مما أنتجنا.

وقد أقبل القيظ بما فيه من دعاء إلى الراحة، وترغيب في القراءة التي لا تشق على القارئ، وقد طالت الحرب وتعقدت خطوبها، وتتابعت أهوالها، واحتاج الناس من أجل هذا كله إلى ما يشغلون به أنفسهم عن هذه الآلام التي لا تنقضي، فأقل ما في هذه الفصول: أنها ستلهي القرَّاء عن أنفسهم ساعات من نهار أو ساعات من ليل.

يونيو سنة ١٩٤٢

الأبناء والآباء

ليس هذا عنوان القصة، ولكنه موضوعها، فإني أريد أنْ أحدثك عن قصة تمثيلية صغيرة مُثلت في باريس منذ حين، ووصل إلينا نصها آخر السنة الماضية، وهذه القصة فصل واحد، تسمى «كبار الصِّبْية» أُعجب بها الجمهور في فرنسا، وأُعجب بها النقاد، وعُدَّت أثرًا من أحسن الآثار الأدبية لكاتبها «پول جرالدي».

موضوع هذه القصة — كما قلت — الأبناء والآباء، ويخيل إليَّ أن ليس من الشبان المتعلمين في مصر وغير مصر من لا يجد نفسه فيها إذا قرأها، فهي تصف شيئًا مشتركًا بين الناس جميعًا، وتمثل عاطفة يشعر بها الناس جميعًا، تصف هذا الفرق العظيم الواضح بين الآباء والأبناء، أو بين الشباب والشيب، أو بين الجيل الناشئ الذي يستقبل الحياة، وذلك الجيل الفاني الذي يودع هذه الحياة، لكل من هذين الجيلين شعوره وعواطفه ومناهجه الخاصة في التفكير، ومناهجه الخاصة في العمل أيضًا، ومع ذلك فالجيل الناشئ ابن الجيل الفاني، فهو في حقيقة الأمر استمرار له، ومرآة تعكس صورة من صوره، وإذن فهناك تشابه، وهناك تباين، وإذن فهناك اتفاق وهناك افتراق.

انظر إلى ما بينك وبين أبيك من صلة شعورية أو خلقية أو عقلية، تجد أنه قد أورثك أشياء كثيرة فورثتها عنه، ولكن هذه الأشياء التي ورثتها ونمَّتها فيك التربية الأولى، لم تخضع لسلطان أبيك في كل وقت، بل أفلتت من هذا السلطان، وخضعت لسلطان آخر، أو لأنواع مختلفة من السلطان، خضعت لسلطان المدرسة وما درست فيها، وخضعت لسلطان المعاشرة وما أحدث في نفسك من أثر، من هذا الأثر القويِّ الذي يُحْدِثه في النفس حب الصديق والميل إلى تقليده، وبغض العدو والنفور من محاكاته، وخضعت لسلطان الحياة العاملة، هذه الحياة التي تراها في الشارع وفي مجالسك العامة والخاصة، وحيثما ذهبت وأينما وجَّهت، وخضعت لسلطان ما قرأت وتقرأ في الكتب والصحف، وما سمعت

وتسمع من أحاديث، خضعت لهذا كله فتغيرت، واستحلت قليلًا أو كثيرًا، وأصبحت تشبه أباك وتخالفه، ونشأ عن هذا الشبه حب وعطف، ونشأ عن هذه المخالفة بعد ونفور، فلن تستطيع مهما تحاول أنْ تنكر أنك تبعد من أبيك وتنفر منه، وتحيا حياة خاصة تكتمه إياها الكتمان كله، وتأبى أنْ يظهر منها على شيء قليل أو كثير، تشعر بأشياء لا يشعر أبوك بها، وتحرص على أنْ يجهل أنك تشعر بهذه الأشياء، تميل إلى أشياء لا يميل إليها، وتجتهد أنْ يجهل أبوك أنك تميل إلى هذه الأشياء، وتطمع في أشياء ينصرف هو عنها، وتخفي على أبيك أنك تطمع في هذه الأشياء، فإذا جلس أحدكما إلى صاحبه كان الحديث بينكما عسيرًا ضيقًا، محدود النواحي والأطراف؛ لأن وجوه الشبه بين نفسيكما أقل مما تظنان، فلك طريقك في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء، وله طريقة في الشعور والتفكير والحكم على الأشياء، فإذا تحدثتما فقلما تتفقان، وكثيرًا ما تختلفان، وللخلاف أثر سيء ونتائج خطرة على ما بينكما من مودة، وعلى ما للأسرة كلها من صلة، وإذن فأنتما تجتهدان اجتهادًا خفيًّا لا تُحسَّانه ولا تشعران به، تجتهدان في ألَّا تلتقيا، فإذا التقيتما اجتهدتما في ألَّا تتحدثا، فإذا تحدثتما اجتهدتما في ألَّا تتعمقا في الحديث، وفي ألَّا يمس هذا الحديث هذا الجزء الخاص من الحياة الذي هو أعزُّ أجزاء الحياة على الإنسان، هذا الجزء الذي يمسُّ حياة القلب والعاطفة وحياة العقل والتفكير، لا تتحدثان في ذلك إلا قليلًا، وحين تُكرهان على هذا الحديث، وإنما تتحدثان في الجو والمطر، وفي أخبار الناس، وما يعرض لمن تعرفان من خير أو شر في هذه الأشياء، التي ليس بينها وبين الحياة الخاصة صلة، والتي ليس لها على القلب والعقل من سلطان.

أليس هذا حقًّا! أليس هذا ما يشعر به الشاب أمام أبيه الشيخ! والأب أمام ابنه الشاب! أليس هذا ما يشكو منه الآباء والأبناء جميعًا! أليس هذا معنى تغير الزمان! أليس هذا معنى قول الأب ينكر حياة أبنائه ومناهجهم فيها: «لقد أصبحنا في آخر الزمان!» ومعنى قول الأبناء ينكرون حياة آبائهم ومناهجهم فيها: «لقد مضى بذلك الزمان!» نعم هو هذا! هو الجهاد المتصل بين القديم والجديد، وبين ما تضيئه شمس هذا الجيل، وما أضاءته شمس الجيل الماضي، وما ستضيئه شمس الجيل المقبل! هذا هو! ولكننا لا نلتفت إليه ولا نفكر فيه، ولا نحاول فهمه وتقصِّي أسبابه.

ولو أنا التفتنا إليه ودرسناه، لأذعنَّا له، وقبلناه لا ساخطين ولا منكرين — كما نُذعن لقوانين الطبيعة المادية — وما نستتبعه من لذة وألم، مجتهدين في أنْ نسخِّر هذه القوانين، فنكثر آثارها الحسنة، ونقلل آثارها السيئة ما استطعنا، نعم! لو فكرنا وتفهمنا

لاسترحنا، ولكنا لا نفكر ولا نتفهم، فنحن في ألم يعقبه ألم، وحسرة تتبعها حسرة، ويكفي أنْ تجلس إلى الآباء وتسمعهم يندبون سوء حظهم، وخيبة أملهم في أبنائهم، فهم لا يشكون في أنَّ هؤلاء الأبناء قد درسوا فأحسنوا الدرس، وسعوا فأحسنوا السعي، ووصلوا بعد هذا وذاك إلى المنازل الاجتماعية، التي تليق بهم وتُرضي فخر آبائهم، ولكنهم برغم هذا كله متكبرون، أو مسرفون في الصمت، أو متفرنجون هم على غير ما كان الآباء ينتظرون.

الآباء راضون لأن أبناءهم قد ظفروا، والآباء ساخطون؛ لأن شيئًا ما يَحول بين هؤلاء الآباء وأبنائهم، ويمنع كل فريق منهم أنْ يفهم صاحبه.

وكذلك حديث الأبناء إذا جلست إليهم، فهم يعرفون لآبائهم الرحمة والبر وما كلَّفتهم الرحمة والبر من عناء، وما حمَّلاهم من مشقة، ويعرفون لآبائهم أنهم كدُّوا نهارهم وأرقوا ليلهم؛ ليربُّوهم ويُعِدُّوهم للجهاد واحتمال أثقال الحياة، وأنهم مدينون لآبائهم بما بلغوا من منزلة، وما ارتقوا إليه من مرتبة، ولكن هؤلاء الآباء يفكرون على الطريقة القديمة، ويشعرون على الطريقة القديمة، فهم لا يفهمون ما نفهم، ولا يشعرون بما نشعر به، وكثيرًا ما تضيق نفوسهم بأشياء نراها نحن هينة مقبولة، بل مستحبة محمودة، تسمع ذلك وهذا إذا جلست إلى الآباء والأبناء، بل تشعر بهذا وذاك إذا جلست إلى أبيك، ثم خلوت إلى نفسك، وتمر الحياة وتتوالى الأيام، وبينك وبين أبيك إلى جانب الحب والمودة والعطف والبر شيء من سوء الظن، ومن الاحتياط ليس إلى محوه ولا إلى اتقائه من سبيل.

هذا هو الذي ذهب «پول جرالدي» إلى تصويره في قصته الصغيرة فأحسن وأجاد، ووُفِّق التوفيق كله في اللفظ والمعنى جميعًا.

يرتفع الستار عن شاب هو «جاك» قد جلس في غرفته، التي هي غرفة نومه وغرفة عمله، جلس إلى مائدته يقرأ، فيدخل عليه صديقه «دورى» فيتحدثان في أشياء يتحدث فيها الشبان إذا خلا بعضهم إلى بعض، ويكتمونها آباءهم، يذكر «دورى» أمر صاحبته، وأنه كان معها وأنه سيلقاها، ويذكر «جاك» أمر خطبه أو أمر التي سيخطبها، وأنه قد وصل إليه منها كتاب، فيسأله متى الزواج؟ فيجيب «جاك» بأنه ينتظر أنْ يجد لنفسه عملًا، فيسأله فمتى الخِطبة الرسمية؟ فيجيب بأن ليس إلى ذلك من حاجة، بأنه لا يريد أنْ يعلم أبوه بشيء من هذا، وهنا يظهر هذا الخلاف بين الأب والابن في طريقة التفكير والشعور، ذلك أنَّ «جاك» يعلم بأن أباه في حالة مالية سيئة، وهو يستنبط ذلك استنباطًا؛ لأن أباه لم يذكر له منه شيئًا، يعلم ذلك فلا يريد أنْ يتزوج حتى لا يُثقل على أبيه، ولا يريد أنْ يُنبئ

أباه بحبه حتى لا يتكلف هذا الأب لإسعاد ابنه ما لا يطيق، أو حتى لا يحس هذا الأب الألم لعجزه عن إسعاد ابنه، وإنهما لفي ذلك، وإنَّ «جاك» ليُظهِر صديقه على كتاب خطبه إذ يدخل الأب، فيطلب الصحف إلى ابنه، فيدفعها هذا إليه مُتبرِّمًا ضيِّق الذرع ملحًّا على أبيه في الخروج والمشي؛ لأنه متعب، ولأن الأطباء قد رسموا له الخروج والمشي، يُلِحُّ الابن ويتثاقل الأب فيجلس، ويشعر الفتى بأن أباه قد قرر ألا يخرج فيضيق بذلك ذرعًا، لا يستطيع أنْ يخفي ضيق نفسه فينصرف مُظهرًا شيئًا من السخط، ويترك أباه وصديقه معًا.

يتحدث الأب والصديق، وموضوع حديثهما «جاك» بطبيعة الحال، يسأل الأب ما بال ابنه يسخط ويتبرم؟ ما باله يسرف في الصمت؟ ما باله لا بذكر له حبه؟ فهو يعلم أنَّ ابنه يحب ويريد أنْ يزوجه، وهو يريد أنْ يأتي إليه ابنه فيتحدث إليه بأسرار نفسه وعواطف قلبه، ولكن هذا الابن صامت بخيل بالكلام، فينبئه الصديق بحياء الفتى، وبأن ابنه يألم أيضًا؛ لأن الأب لا ينبئه بأعماله، ولا يتحدث إليه بما يلقى في هذه الأعمال من شدة أحيانًا ومن لين أحيانًا، فينفجر الأب بالشكوى؛ لأنه كثيرًا ما حاول أنْ يتحدث إلى ابنه — كما يتحدث الصديق إلى الصديق — فلم يجد منه إلا نفورًا وإعراضًا، فهو سيئ الحظ، يشكو صمت ابنه وثرثرة ابنتيه، وهو لم يأتِ إلى هذه الغرفة ليطلب الصحف، وإنما اتخذ الصحف وسيلة إلى أن يتحدث إلى ابنه، فينبئه ابنه بما لديه؛ ليتبين منه أسراره ونياته في أمر حبه، ولكنه لم يجد إلا هذا الإعراض الذي تبعه الانصراف.

فهذا المنظر الذي خلا فيه الأب إلى صديق ابنه، هو منظر قد خصص لشرح ما يشكو منه الابن؛ لأن الأب يتحدث عن نفسه، والصديق يتحدث عن صديقه، ثم يعود «جاك» وينصرف أبوه، فيكون الحديث بين الصديقين، يلح «دورى» على «جاك» أنْ يتلطف بأبيه، وأنْ يظهر له شيئًا من العطف والمودة مكان هذا النفور والإعراض، وهذا المنظر مؤثر جدًّا؛ لأن «دورى» قد فقد أباه، وكان يسير معه سيرة «جاك» مع أبيه، فهو الآن يأسف لذلك أشد الأسف، ويندم عليه أشد الندم، وهو يفعل بعد موت أبيه ما لم يفعل في حياته، فيتحدث إلى أبيه ميتًا بكل ما يفعل، وما يريد أنْ يفعل، ويتحدث إلى أبيه ميتًا بما يَسُرُّه ويُحزنه، ويؤثِّر هذا الحديث في نفس «جاك»، وإنْ لم يتكلم إلا قليلًا، فإذا انصرف صاحبه أخذ «جاك» كتاب خطبه وهم بالخروج؛ ليظهر الكتاب لأبيه؛ وليذكر له أمر حبه، فيفتح الباب فإذا أبوه، ويدخل الأب فيتحدث عن «دورى»، ويحاول «جاك» أنْ يسأله عن أعماله الخاصة، فكلما ألح عليه في ذلك ألح الأب في الفرار من هذه الأسئلة، فيغضب «جاك» قائلًا لأبيه: «أتكره أنْ أحدثك عن صديقك؟»

فيشكو الابن من صمت أبيه وإعراضه، ويشكو الأب من صمت ابنه وإعراضه، ويشتد بينهما خصام مصدره سوء الظن، هذا الذي وصفناه، فَيَهِمُّ «جاك» بالانصراف، ويطرده أبوه مغضبًا، ولكنه لا يكاد يخرج حتى تنحلَّ قوى الشيخ، ويتبخر غضبه فيبكي، ويعود ابنه فجأة، فيحاول الشيخ أنْ يُخفي ضعفه ويستأنف غضبه، فلا يُفلح، ويحاول الابن أنْ يستعطف أباه فيُظهر الكتاب، ولكنه لا يجد لفظًا يعبر به عما يريد من أمر حبه؛ لأنه لم يتعود أنْ يتحدث إلى أبيه في مثل هذا الأمر، فيرى أبوه اضطرابه وحياءه ووقوف لسانه، فيفتح ذراعيه، ويلقي «جاك» بنفسه على صدر أبيه.

هذه هي القصة قد بالغنا في تلخيصها، وحذفنا منها أشياء كثيرة هي زينتها، وحذفنا الحوار بين الصديقين، وما في هذا الحوار من مزاح لذيذ، وحذفنا الحوار بين الأب وصديق ابنه، وما فيه من حكمة بالغة وحق بيِّن، وحذفنا أشياء كثيرة لو ترجمت لخلبت نفس القارئ.

ولكننا حرصنا على أنْ نعطي فكرة عن موضوع القصة، فإذا أردت أنْ تنتفع وتستمتع، فاقرأ نصها في مجلة «الألستراسيون»، التي صدرت في ٢ ديسمبر سنة ١٩٢٢.

يناير سنة ١٩٢٣

الحب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «پول جيرالدى»

ليست يسيرة التلخيص، وليست يسيرة التمثيل، وإنما هي شاقة على من يريد أنْ يخلصها، شاقة على من يريد أنْ يمثلها، ولعلها شاقة أيضًا على من يريد أنْ يفهمها، ومع ذلك فهي يسيرة التأليف، مُتَّسِقَة المعاني، صادقة الشعور، حسنة اختيار الألفاظ، ممتازة بكل ما تمتاز به الآثار الفنية الراقية، التي قدر لها الخلود؛ لأنها صادقة.

هي عسيرة ويسيرة، عسيرة؛ لأن تلخيصها وتمثيلها وفهمها، كل ذلك يحتاج إلى جهد غير قليل، يحتاج إلى أنْ نجتنب التكلف، ونعود إلى طبيعتنا الصافية النقية، التي لم تُعقِّدها الحضارة، ولم تكدِّرها مواضعات الناس، ويسيرة؛ لأن الكاتب حين كتبها لم يستوحِ الحياة المعقدة، ولم يبحث عن أشخاصه في هذه الجماعات العادية التي تنافق في الحياة، ولا تحيا إلا متكلفة متصنعة خاضعة لضروب من النظم والأوضاع، التي تسيطر على جمال الطبيعة الإنسانية فتسترها، وتخفي ما تمتاز به من صدق وصفاء، ومن أمانة ووفاء.

هي يسيرة وهي عسيرة، وهي خالدة مع هذا كله، أعترف بأني أُعجب بها إعجابًا لا حد له، وقد أعجبت بقصص تمثيلية كثيرة، وسأعجب بقصص تمثيلية كثيرة، ولكن إعجابي بهذه القصة له جوهر خاص وصفات خاصة، لا أصدر فيه عن العقل، ولا عن المنطق، ولا عن الترتيب الفني الذي ألفه الناس وتواضعوا عليه، وإنما أصدر فيه عن

القلب وعن الشعور، أصدر فيه عما أجد وعما أحس، أجد فيه نفسي، وأجد فيه من أحب، وأعتقد أنَّ كثيرًا من الصادقين المخلصين سيجدون في هذه القصة أنفسهم، وسيجدون فيها ما يحبون.

لا أعرف قصة كهذه القصة، تخلو الخلو كله من التكلف والتصنع، وتدنو الدنوَّ كله من السذاجة والصدق، وحسبك أنك لا ترى فيها عملًا، أو لا تكاد ترى فيها عملًا ولا حركة، مع أنَّ التمثيل إنما يقوم على العمل والحركة، وحسبك أنك لا ترى فيها إلا أشخاصًا ثلاثة، كل عملهم حوار: رجلان يحبَّان امرأة، أو امرأة تحب رجلين، هذا كل موضوع القصة، هو مجمل موجز، ولكن تفصيله والإطناب فيه قد لا ينتهيان إلى حد.

رجلان يحبان امرأة، وامرأة يتنازعها حب رجلين، فيجب أنْ تُدرس نفسُ هذه المرأة، وأنْ تُدرس نفسَا هذين الرجلين، وأحد هذين الرجلين زوج لهذه المرأة، فيجب أنْ يُدرس الزواج وصلاته، وما فيه من حق، وما فيه من واجب، وأحد هذين الرجلين رجل عمل، والآخر ليس بالكسل ولا بالنائم، ولكن له في الحياة مثلًا أعلى، ولكن له في الواجب رأيًا خاصًّا، ولكن له في كرامة الرجل، وفي كرامة المرأة، وفي قدر الزواج، وما يُكوِّن الأسرة من صلات آراء هي الحق، ولكن شعور الناس بها قليل، ثم هناك عواطف تتنازع هذه المرأة، كلها صادقة، ولكن منها المخطئ ومنها المصيب، منها ما يصدر عن الحق والواجب، ومنها ما يصدر عن الشهوة والهوى، هناك نفس إنسانية غريبة تتنازعها آلام وآمال، هناك محنة تمتحن بها الأسرة، فتتعرض لخطر الانحلال، ثم يُقال عِثَارُها، ويكون هذا الخطر نفسه وسيلة إلى تثبيت قواعدها، وإحكام ما يَجْمُعها من صِلات، كل هذا يجب أنْ يُدرس، وأنْ يُدرس في هدوء وَدَعَةٍ، وفي ألفاظ مختارة، وأساليب عذبة صافية.

ولكني لا أريد أنْ أطيل في هذه المقدمة، وإنما أريد أنْ أمضي في تلخيص هذه القصة، ولقد كنت أود أنْ أترجمها لك، فلن يؤدي التلخيص من حقها بعض ما يجب، ولكني أكتب في صحيفة سيارة، فحسبي أنْ أَلْفِتَكَ إلى القصة، وإلى شيء من جمالها، ولك إنْ شئت أنْ تقرأها، أو أنْ تشهد تمثيلها في فرنسا أو في مصر، إنْ حملها إلى مصر الممثلون.

الزوجان في غرفة يتحدَّثان، قد وصل إليهما البريد، فهما يقرآنه، ويتبادلان الرأي فيه، وينتقلان من هذا إلى نفسيهما وإلى حبهما، وإلى رأي كل منهما في صاحبه، ذلك أنَّ الزوج «هنري» رجل سعيد مغتبط كل الاغتباط بحياته الزوجية، مطمئن إليها، واثق بمستقبلها، ولكنه يحس من زوجه «هيلين» شيئًا من الاضطراب، أو أقل شيئًا من السأم، أو قل: إنه

يحس من زوجه شيئًا لا يتبين حقيقته، يحس أنَّ سعادتها ليست من الصفو والنقاء بحيث يحب، وبحيث يجب أنْ تكون، فهو يسألها عن أمرها، فتلح في أنها سعيدة، ويلح هو في أنه يشعر بأن هذه السعادة ليست خالصة، ويحاول أنْ يتعرف الأسباب، التي حالت بين سعادة زوجه وبين الصفاء، يبحث عن ذلك في أخلاقه، ويبحث عن ذلك في مزاجه، ويبحث عن ذلك في سيرته الزوجية، ولا يجد من امرأته إلا إلحاحًا في أنها سعيدة، وسخطًا عليه؛ لأنه يتكلف مثل هذا البحث السخيف، ولكن في الحق شيئًا تشعر به «هيلين»، ولا يلبث أنْ يظهر، فتتبين العقدة التي يجب على القصة أنْ تحلها.

الزوج مطمئن إلى حياته، سعيد لا يستزيد من سعادته، ولكن «هيلين» مطمئنة سعيدة، حتى يظهر لها شيء يُخَيِّل إليها أنَّ في سعادتها نقصًا ما، فهي تشعر شعورًا غامِضًا بالحاجة إلى تكميل هذا النقص، ولكنها لا تعترف بهذا الشعور، ولا تعترف بهذا النقص، حتى يُقبل الشخص الثالث من أشخاص القصة، فيجعل هذا الشعور في نفسها واضحًا، بل يجعله حاجة، بل يجعله ضرورة لا بد من إرضائها، هذا الشخص الثالث هو رجل يسمى «شالانج»، وقد كَلِفَ بالسياحة وطاف أقطار الأرض، وهو من أولئك الذين يؤثرون العمل المنتج على الحياة الهادئة المطمئنة، ذكيٌّ ولكن ذكاءه ليس بالعميق، وهو مع ذلك قوي الحجة إذا تكلم، خلَّاب إذا تحدث إلى النساء، يَخْلِبُهُنَّ بما يَقُصُّ عليهن مما رأى وسمع في سياحاته، ويخلبهن حين يشرح لهن رأيه في الحياة، وأنها يجب أنْ تتجدد، وأنْ تتغير أطوارها وحوادثها، لا أنْ تستقر وتتشابه هذا التشابه الممل، وقد أقبل هذا الرجل منذ شهر، فجاور الزوجين، واتصل بهما، واختلف إليهما، فما كاد يرى «هيلين» حتى كَلِفَ بها، وما كادت تراه «هيلين» حتى مالت إليه، ولكنها أخفت هذا الميل على زوجها، وأحسه زوجها، وراقبه دون أنْ يتحدث فيه.

فإذا كان الفصل الأول من القصة أنبأ «هنري» زوجه بأن «شالانج» قادم لزيارتها بعد حين، فتتبرم بهذه الزيارة وتنكرها، وترى أنَّ هذا الرجل مُثْقِل مُلِحٌّ في زياراته، وأنها تريد أنْ تَنْتَحِلَ الصداع حتى لا تراه، فينكر عليها زوجها هذا كله، ويأخذها بلقاء هذا الرجل، ويسألها عن الأسباب التي تُبَغِّض إليها هذه الزيارة، فتحاول قليلًا، ثم تعترف لزوجها بأن هذا الرجل يتملقها ويتتبعها بحبه، فيجيبها بأنه يعلم هذا، ويدور بينهما هذا الحوار:

هيلين (دَهِشَةً): كيف؟ أعرفتَ أنه يتتبَّعني؟

هنري: طبعًا عرفتُ ذلك!

هيلين: لا! أهذا حق؟ وبأي شيء عرفتَ هذا؟

هنري: وأنتِ بمَ عرفتِهِ؟

هيلين: هذا غريب! ولكن متى ابتدأ هذا؟

هنري: ابتدأ منذ شهر يوم تناول العشاء هنا لأول مرة.

هيلين: لم يُظهر من هذا في ذلك المساء، إلا شيئًا قليلًا جدًّا!

هنري: نعم! شيء قليل جدًّا من التلطف والابتسام.

هيلين: أرأيتَ هذا؟

هنري: كما أراكِ الآن، فلما كان الأسبوع الذي ولي هذا العشاء، بالغ في ذلك بعض المبالغة في بيت «تنسان».

هيلين (شَيِّقَةً لاهيةً): ولكن كيف استطعتَ أنْ ترى هذا؟

هنري: ثم أول من أمس، رأيتُ طائفة من الحركات، وصوتًا خاصًّا حين كان يتحدث إليك، وشيئًا من البلاغة في القول، وبنوع خاص طريقته حين قال لك إلى اللقاء.

هيلين (وقد خفضتْ عينيها): وإذن فماذا ترى في هذا؟

هنري: وأنتِ ماذا ترين؟

هيلين: أنا! لا أستطيع أنْ أمنع هذا.

هنري (في لطف): لو أردتِ منْعه لوفقتِ له.

هيلين: وددتُ لو أعرف كيف هذا!

هنري: أنتِ حسناء، نعم! أنتِ حسناء جدًّا، وتعلمين هذا حق العلم، ومع هذا فقد ظهر الرجال، ولا سيما الذين لهم حظٌّ عظيم من الحياة أمامك مظهر الأدب والاحتشام.

هيلين: لأني لم أكن أُعجبهم.

هنري: كنت تعجبينهم، ولكنك كنت تُظهرين في موقفك منهم شيئًا من النقاء والصراحة، يضطر كلَّ واحد منهم إلى أنْ يفهم مسرعًا أنَّ أية محاولة يحاولها مخالفة للذوق وغير مُجدية عليه.

هيلين: وإذن فلستُ الآن نقية! ولستُ الآن صريحة!

هنري: أنتِ نقية صريحة، ولكنكِ لا تتشددين في ذلك، لقد تجمَّلتِ قليلًا أمام «شالانج».

هيلين: رأيتَ هذا أيضًا؟ هذا حق، لقد تجملتُ أمام «شالانج» سأفسر لك هذا، كنت أريد أنْ أعلم، تقول لي دائمًا إني حسناء، ولكني أرى مدائح الرجال وتحياتهم توجه إلى غيري من النساء.

هنري: إنَّ مدائح الرجال تُخفي دائمًا شيئًا من الميل إلى الهجوم، وأشد الرجال قوة وجرأة، لا يهاجم إلا المرأة التي يظن بها الضعف.

هيلين: لا تُسرف! إنَّ الرجال دائمًا لا يُضمرون هذا السوء.

هنري: بلى يا هيلين!

هيلين: مهما يكن من شيء فإن «شالانج» هو أول رجل تركني أفهم — ولكن في لطف لأنه حسن التربية — أني أثير عنايته، وأنه يجد لذة في التحدث إلي، فظننت أول الأمر أني مخطئة، فقد أنبأتني أنه رجل عظيم الخطر، فسألت نفسي لِمَ يَحْفِلُ بي رجل كهذا؟

هنري: إنك لشديدة التواضع!

هيلين: أعلم أنك لا تُصدِّقني!

هنري: بلى أنا أُصدِّقك.

هيلين: كنت أرى أنه شديد التلطف، ثم كنت ألقى في كل وقت لحاظه، وكان يجتهد دائمًا أنْ يكون إلى جانبي، ولكني لا أَكْذِبُكَ، لم أكن واثقة بشيء من هذا، فأردتُ أنْ أعلم، أفهِمتَ؟

هنري: أبلغْتِ من الطفولة إلى هذا! أؤكد لك أني لا أستطيع أنْ أتصور أنْ أرى امرأة بلغت من القوة والشجاعة والذكاء ما بلغتْ تصل أحيانًا من الطفولة إلى هذا الحدِّ!

هيلين (في حنان): لست مغضبًا؟

هنري: لا! ولكنك ترين أنَّ من الخطر العبث بمثل هذه الأشياء، وأنَّ قليلًا من الخطأ قد يخلق مواقف لا سبيل إلى احتمالها! أنت تشعرين بهذا الجوِّ الثقيل، الذي خلقه إهمالك! ألست تنكرين أني تركت شالانج يجيء؟ ألست تشعرين بأن من الذلة أنَّ رجلًا دنا منك، فحمله ذلك على أنْ يرجو، وأنْ يعتقد أن كان شيء …

هيلين: أوه!

هنري: شعر بذلك، ثم لم يُرَدَّ إلى طوره! هذا مُذِلٌّ لكِ. هذا مُذِلٌّ لي. هذا محزن.

هيلين: ليس من شك في أني أخطأتُ، لم أفكر، ولكني لا أفهمك، كيف أحسستَ هذا كله، ولم تكلمني فيه؟

هنري: كنت أنتظر أنْ تكلميني فيه!

هيلين: وكيف عرفتَ موقف «شالانج» وتركتَه يزورنا، بل طلبتَ إليه أنْ يزورنا؟!

هنري: لأني لا أقبل أنْ يكون «شالانج» خطرًا! ولم يكن لي أنْ أشعره بأني أهابه، أو بأنك تخشين فاتنًا ماهرًا!

هيلين: يخيل لي أني لو كنت مكانك لوجدت طريقًا إلى إفهامه.

هنري: هذا شيء كان خليقًا بك وحدك.

هيلين: أنت زوجي!

هنري: وإذن؟

هيلين: فمن الحق عليك أنْ تذود عني!

هنري: ألست من الرشد بحيث تدفعين عن نفسك؟ (ثم يرفع كتفيه) على أني أعرفك، ولست أشك في أني لو تدخلت في الأمر لجمحت كبرياؤك، ولكانت مُحِقَّة في هذا الجموح، إنَّ امرأة مثلك لا يحميها الرجال (ثم يشتد) أتدخل في هذا الأمر! أتشدق في أمر ينالك بشيء يشبه هذا الحق المثير، حق السجان أو حق المالك! أتقبلين أنْ أدل بلفظ «الزوج» على هذا المعنى العتيق الجافي! كلا! يا هيلين، ليس في الحب حق، ولا معاهدة ولا عقد، ليس في الحب إلا الحب، وإنما سبيلي في حمايتك والذود عنك، أنْ أحملك على أنْ تُؤْثِريني على غيري، ولقد أدهش أنْ أرى لك رأيًا في هذا يخالف رأيي.

هيلين (مضطربة قليلًا): أي إيمان! عم تبحث؟

هنري: تريدين أنْ أذود عنك! ولكن يا بنيتي أترين أني أستطيع الحياة معك يوم أشعر بأنك في حاجة إلى الحماية! يوم أشعر بأني لست عندك كل شيء!

هيلين: أتظن أننا نضطر إلى الطلاق في مثل هذه الحالة؟

هنري: نعم!

هيلين: أجادٌّ أنت؟

هنري: جادٌّ كل الجد، لقد فقدنا ابننا، فليس بيننا صلة الآن إلا الحب، فإذا لم تحبيني ففيم الحياة معًا؟

هيلين: ماذا؟ انظر إليَّ، أتستطيع أنْ تفكر في شيء كهذا؟

هنري: لكل سعادة أجل!

هيلين: أرجو أنْ تسكت! فلو مضيت في الحديث لأقنعتني بأني اقترفت جريمة! لتطمئن! لقد انتهت هذه القصة المضحكة، انتهت حقًّا! فسأضع «شالانج» عند حده هذا المساء! لا أريد أنْ أغاضبك من أجل هذا الرجل! فهو لا يعنيني، وسأرجوه ألا يأتي منذ اليوم.

هنري: كلا! كلا! أنت مسرفة، ليس من الضروري أنْ تغلقي بابك في وجهه، فليس ما يدعو إلى ذلك، فهو لم يخطئ بوجه ما، وإنما مثل دور الرجل، رآك خليقة بعنايته، فأشعرك بهذا أكثر مما كان ينبغي، فأنت المخطئة لا هو، فغيري موقفك بإزائه، يفهم أنه أخطأ الطريق، أظنك تشعرين بالنتائج السيئة إذا أخذته بالعنف، فقد تصبح الصلات بيننا وبينه عسيرة، وهو مستقر في هذا البلد وهو جارنا.

هيلين: وإذن فهو متصل بنا طول الحياة!

هنري: ذلك راجح.

هيلين: لا بأس! وإذن فإذا أردت ألا أراه، فليس إلى ذلك سبيل؟

هنري: ولم لا تريدين؟ إذا غيرت موقفك معه أصبحت الصلات بيننا وبينه حسنة.

هيلين: فإذا لم يغير موقفه هو؟

هنري: ستحملينه على تغيير موقفه، ذلك شيء لا يخيفني.

هيلين: أتظن ذلك يسيرًا؟

هنري: إنَّ المرأة قادرة على أنْ تخجل الرجل، وتجعله هزأة بابتسامة تبسمها.

هيلين: هذا موقوف …

هنري: نعم! على المرأة!

هيلين: وبعد، فلو أنه يحبني!

هنري (مغضبًا قليلًا)**:** أي معنى لهذا الكلام: «لو أنه يحبك»؟ أيعرفك؟ ماذا يعرف منك؟ يعرف أنك حسناء! وأنَّ من اللذة أنْ يدنو من جمالك دنوًّا شديدًا، فأنبئيه بأن للحب عند أمثالك معنى آخر.

ثم يمضي هذا الحوار الطويل اللذيذ القيم، إلى أكثر مما تحتمل جريدة «السياسة»، ولقد كنت أود لو استطعت أنْ أترجمه كله، وأنْ أترجم غيره من ضروب الحوار، ولكن ما ترجمته يعطيك صورة واضحة من هذين الشخصين، وتصورهما للحب وصلات الزوجية، فإذا انقضى هذا الحوار، كان الزوجان قد اتفقا على أن تغير «هيلين» موقفها في لطف، فلا تتحبب إلى «شالانج»، ولا تظهر له الجفاء الشديد.

ثم يُقبل «شالانج» ويخرج «هنري»، فلا تلبث «هيلين» أنْ تخاطبه في غلظة وجفوة، ولكنهما متكلفتان؛ لأنها تميل إليه، وتحاول أن تخفي هذا الميل، وهو يعلم ذلك فَيَهِمُّ بالانصراف، فتمسكه وتتحدث إليه في لطف، تريد أنْ تقنعه بأنها سعيدة، وبأنها تحب زوجها، وبأنها راضية عن حياتها غير طامعة في تغييرها، ويريد أنْ يقنعها بأنها غير سعيدة، ولا مطمئنة، وبأنها لا تحب زوجها؛ لأنها أحبته فتاة غِرَّة، ولا قيمة لحب الفتاة الغرة، وإنما القيمة لحب المرأة التي استكملت عقلها وقوتها، وأنها في حاجة إلى أنْ تحب من جديد، وتحيا من جديد، وتغير أطوار هذا العيش الذي ينوء بها والذي أخذت تمله.

يقنعها، وتفزع من هذا الإقناع، فتستأنف الجفوة، وتكلفه الخروج فيخرج، ولكنه واثق مطمئن، ويأتي زوجها فتتكلف أمامه الأمن والثقة، وتنبئه أنها قد وضعت صاحبها حيث ينبغي أنْ يوضع، ولكن زوجها لا يكاد يطيل إليها الحديث، ويسألها عما كان بينها وبين «شالانج» من حوار، حتى يشعر من حديثها وقصصها وانصرافها عما يقول بأنها لم تفلح، وبأنها لم تزدد إلا تورطًا في هذه الفتنة.

ثم يكون الفصل الثاني، فإذا هذه الفتنة قد بلغت أشدها، وإذا الزوج قد يئس من زوجه، واعتزم العدول عن اللين والرفق إلى العنف والشدة، فيأمرها ألا تلقى «شالانج»، ويكون بينه وبينها في ذلك حوار عنيف، ينتهي بعدوله عن رأيه وقبوله للمعركة، فيبيح لزوجه أنْ تلقى خصمه، وأنْ تختار بين الرجلين، ويعلن إليها أنه نازل عند حكمها، ثم ينصرف ويأتي «شالانج»، وهنا موقف من أجمل المواقف، وأشدها تأثيرًا في النفس، واستهواء لِلُّبِّ، وهزًّا للعواطف، موقف تبذل فيه المرأة كل ما تملك من قوة في البيان والعاطفة، وكل ما تملك من دموع وضعف؛ لتدافع عن أسرتها، وعن حبها لزوجها، ولتخلص من هذا

الحب الطارئ، ولكنها لا تفلح في هذا الدفاع؛ لأن خصمها قوي عنيد؛ ولأن هذا الخصم ليس «شالانج»، وإنما هو نفسها، فهي تحب «شالانج»، وتعترف له بهذا الحب، وتلقي أمامه السلاح، وتترك له أنْ يحكم فيها، وفيما بينها وبين زوجها من صلة، وهما كذلك إذ يأتي الزوج، فيلتقي الرجلان — كما يلتقي الخصمان الشريفان — لا يخفض أحد منهما رأسه، ولا ينكر أحد منهما من موقفه قليلًا أو كثيرًا، فينصرف «شالانج»، ويسأل «هنري» زوجه ماذا اعتزمت؟ فلا تجيبه بل تحاول الفرار منه، فيمسكها — وما يزال بها — حتى تنبئه بأنها تريد السفر، فيفهم أنها آثرت صاحبه، وَأَحْسِنْ بموقفه حين ذاك! موقف ملؤه المروءة والحرية والإذعان للقضاء في شرف وكبرياء، ينبئ زوجه بأنه قد فهم، وأنَّ لها أنْ تسافر متى شاءت، وأنه سيردُّ إليها حريتها في أسرع وقت ممكن.

فإذا كان الفصل الثالث رأينا هيلين في إحدى الغرف تستعد للسفر، ولكنها تنظر حولها، وتقلب صورًا لابنها، وهي كذلك إذ يدخل «شالانج»، فيعرف منها حقيقة الأمر، يسعد ويغتبط، ولكنها ليست سعيدة ولا مغتبطة، وإنما هي مستسلمة محزونة، يلح عليها صاحبها في ألا تنتظر الطلاق، وأنْ تسرع إليه فلا تأبى، ثم يرى حزنها فيسألها عنه، فتنبئه بأنها تنظر إلى ما حولها، فتأسف وتأسى وتتذكر ما كان لهذه الأشياء، ولهذا البيت من أثر في حياتها، بل تتذكر أنَّ حياتها مكونة من هذه الأشياء، وأنَّ فراق هذه الأشياء عليها عسير، يحاول تسليتها فلا يوفق، ثم تتذكر طفلها المفقود، فترى أنَّ صاحبها لا يعلم من أمر هذا الطفل شيئًا، بل لا يعلم من أمرها هي شيئًا، وإنما كل الأمر لديه حب وهوى.

تريد أنْ تخرج معه فلا تستطيع، كأن الأشياء تمسكها، وتأبى عليها الخروج، فتضرب معه موعدًا إلى غد، ثم يمضي، وتبقى حينًا واجمة ذاهلة، وما هي إلا أنْ تصيح داعية زوجها مرة ثم مرتين، فيقبل الزوج في شكل مؤلم مضطرب، فيسألها ماذا تريد؟

تتكلف في الجواب، تريد أنْ تنبئه بأنها ستسافر دون أنْ تحمل شيئًا، وأنها ستترك له صور ابنها؛ لأنه وحده خليق أنْ يحتفظ بهذه الصور، ولكن الزوج يجيبها بأنها تستطيع أن تحمل كل شيء، فهو لا يحفل منذ الآن بشيء، وهو يريد أنْ ينسى كل شيء؛ لأنها قد قطعت بينهما كل شيء، ثم يظهر المُخَبَّأ، تظهر نتيجة الأزمة، يظهر أنَّ هذه المرأة قد عرفت من أمرها ما كانت تجهل، وشعرت بأنها لم تكن عاشقة «لشالانج»، وإنما كانت مفتونة «بشالانج»، وأنَّ حبها وقلبها وحياتها وعواطفها كل ذلك موقوف على زوجها، الذي عرفته وبلت سره وجهره، فهي لا تريد أنْ تسافر، وإنما تريد أنْ تبقى، لا تريد أنْ

تخرج من البيت، وإنما تريد أنْ يمسكها زوجها فيه، لم تكن تحب «شالانج»؛ لأنها لم تكن تعرفه، وهي تحب «هنري»؛ لأنها تعرفه، كانت مفتونة، ولا ينبغي أنْ تسمى الفتنة حبًا، فليس الحب إذن اتقاد العواطف، واهتياج الشهوات، وعبث الهوى بالعقل، وإنما هو شيء آخر، هو شيء هادئ مطمئن، للقلب فيه أثر عظيم، ولكن للعقل فيه أثرًا أيضًا، تلح على زوجها أنْ يعفو عنها، ولكن هذا الزوج قد تألم، فهو لا يجد إلى العفو سبيلًا، غير أنَّ هناك شيئًا فوق العفو وفوق الألم، فوق الإساءة وفوق الإحسان، هناك الحب، والرجل يحب امرأته، فلا يكاد يراها تعسة شقية حتى يأخذه الإشفاق والعطف، فيلين ولكنه عنيف، يطلب إليها أنْ تذهب لتستريح، ثم يراها مضطربة قد أخذها البرد، فهي لا تكاد تثبت، فيسرع إلى شيء من الحطب يلقيه في الموقد، ويشعل فيه النار ويجلسها أمامه.

هو واقف وسط الغرفة على بعد منها، وهي أمام النار تصطلي، ولكن في جوفها زفرة شديدة تريد أن تكتمها، فلا تفلح فتجهش بالبكاء، وإذا هذا الزوج الغاضب الحانق قد أقبل في هدوء وحنان، فمد يده إلى امرأته فأنهضها، فما تكاد تحس ذلك حتى تصيح باسم زوجها، وتلقي نفسها بين ذراعيه، وكذلك تنتهي هذه القصة.

وأحسب أني لست في حاجة إلى شرح ولا إلى نقد، وإنما أنا في حاجة إلى الأسف؛ لأني لم أترجم لك منها الشيء الكثير.

يونيو سنة ١٩٢٣

النضال

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري لفدان»

هي نضال بين عالِم وقسيس، أو هي نضال بين علم العالم ودين القسيس، أو هي نضال بين العالم ونفسه، وبين القسيس ونفسه، أو هي نضال بين هذين الرجلين وبين امرأة، أو هي نضال بين هؤلاء جميعًا، وبين الحياة الاجتماعية، أو قل — وأنت مصيب فيما تقول — إنها نضال بين هؤلاء جميعًا، وبين هذه الأشياء كلها، هي نضال منذ تبتدئ إلى حيث تنتهي، هي نضال في جملتها وفي تفصيلها، ومع ذلك فهي تخلو من العنف، وتخلو من القسوة؛ لأنها نضال بين الآراء والأهواء، والعواطف والشهوات، نضال لا يتجاوز هذه الآراء والعواطف والشهوات إلى الجهاد المادي؛ ولهذا تخلو القصة من العنف والقسوة، أو تخلو من العنف والقسوة الماديين.

أخشى ألا تعجبك هذه القصة، وليس يدهشني ألا تعجبك؛ فهي — كما قلت — تخلو من كل عنف وقسوة، وتخلو من كل نتيجة من شأنها أن تهز النفس، وتقفها أمام الأمر الواقع، الذي ليس إلى إصلاحه أو استدراكه من سبيل، وهي — كما قلت — جهاد بين آراء وأهواء، وعواطف وشهوات، هي جهاد يلذ العقل ويلذ الشعور، ولكنه لا يفجأ بكبريات الأمور وجسام الحوادث، فمن المعقول ألا تستهويك، ولا تؤثر فيك هذا الأثر العظيم الذي تؤثره القصص العنيفة المخيفة، ومع ذلك فأنا أريد أنْ تعجبك هذه القصة، وأريد أنْ تؤثر فيك هذه القصة، وأريد أنْ يكون مصدر هذا الإعجاب، وهذا التأثير نفس خلوها من العنف، وبراءتها من الحوادث الجسام، فليس العنف شرطًا أساسيًّا لجمال القصة التمثيلية، وليست الحوادث الجسام أمورًا لا بد منها، ليستطيع الكاتب أنْ يؤثر وأنْ يهز

النفس، بل — ماذا أقول! — العنف موجود في هذه القصة، بل هذه القصة عنيفة كلها، بل هذه القصة كلها حوادث جسام، ولكن يجب أنْ نتفق على معنى العنف، ويجب أنْ نتفق على معنى الحادث الجسيم، فليس من الحق في شيء أنَّ العنف مقصور على هذه الحركات المادية القوية، التي تستتبع الآثار الضخمة في الحياة الخارجية، وليس من الحق أنَّ الحوادث الجسام مقصورة على ما تراه العين، وتسمعه الأذن، وتلمسه اليد من حقائق الحياة، بل قد يكون ما يحدث في النفوس، وما يجري في القلوب دون أنْ يراه أحد، ودون أنْ يحسه إلا صاحبه أشد عنفًا، وأقرب إلى الفزع والهلع من كل ما نشهد في الحياة الخارجية من الأمور العنيفة.

وقد تكون هذه العواطف النفسية التي تستأثر بنفس الإنسان، فتنسيه كل شيء، وتلهيه عن نومه ويقظته، وعن طعامه وشرابه، بل تلهيه عن حياته كلها، قد تكون هذه العواصف وما تحدث من الآثار، حوادث جسامًا لا تعدلها الحوادث الجسام المعروفة، وعلى هذا النحو، وعلى هذا التفسير للعنف وللحادث الجسيم، نستطيع أنْ نقول: إنَّ هذه القصة ليست إلا عنفًا، وليست إلا حوادث جسامًا، وإنما ينبغي أنْ نتعود هذا النحو من الفهم، ونألف هذا النحو من التفسير، ينبغي أنْ نتعود النظر في أنفسنا، ونقدر العواطف التي تدير حياتنا وحركاتنا، ونشعر شعورًا قويًّا، بل نعلم علمًا لا شك فيه، أنَّ هذه العواطف التي تدير نفوسنا، وتسخر أجسامنا، وتدبر حياتنا المادية والمعنوية، هي مصدر كل شيء في هذه الحياة، هي مصدر ما يبهرنا من عنف، وهي مصدر ما يخلبنا من لين، هي مصدر البؤس والنعيم، وهي مصدر السعادة والشقاء، وهي مصدر التردد بين هذا وذاك، يجب أنْ ننظر في أنفسنا نظرًا صحيحًا، وأنْ نقدر عواطف أنفسنا وأهواءنا — كما ينبغي أنْ نقدرها — إذن يتغير إعجابنا بالقصص التمثيلية، ويكون كلفنا أشد بهذه القصص، التي تخلو من العنف المادي منه، بتلك التي يملؤها العنف المادي، يكون إعجابنا بهذه القصص أشد وأقوى، لأنه إعجاب مصدره العقل والشعور والتفكير، وليس مصدره تأثر الحواس واهتزاز الأعصاب بهذه المؤثرات الخارجية.

قلت: إنَّ هذه القصة نضال بين أشخاص وبين أشياء، فيجب أنْ أبدأ، فأقدِّم إليك أشخاص هذه القصة، وهم أربعة: امرأة، وثلاثة رجال.

فأما المرأة فهي الدوقة «دي شاي» في ريعان شبابها، قد أوتيت من الجمال والفتنة حظًّا عظيمًا، وهي إلى جمالها وشبابها شديدة الذكاء، كثيرة العلم، قوية الإرادة إلى حد غريب، شديدة السلطان على نفسها، تشعر بالشيء العنيف، وتتأثر بالعاطفة الحادة،

ولكنها تخفي هذا كله عن الناس، فلا يحسونه ولا يشعرون به، وقد تستطيع أنْ تخفيه على نفسها، جميلة ذكية فاضلة عالمة، ولكنها مع هذا كله سيئة الحظ، سيئة الحظ منذ ولدت، بل قبل أنْ تولد، فقدت أباها قبل أنْ تُقبل على هذه الحياة بيومين، فلما وُلدت أَفقَدت أمها الحياة، فكان مهدها — كما تقول — يهتز بين نعشين، ثم أخذت كلما شبَّت فقدت بعض أهلها وذوي قرباها، حتى إذا استكملت قوتها وبلغت الشباب، كانت وحيدة، أو كالوحيدة في الحياة، ولكنها بحكم هذا اليتم المتصل، كانت غنية ضخمة الثروة لما ورثت عن هؤلاء الراحلين، فكان من المعقول وقد جمعت بين الجمال والذكاء والثروة، أنْ يكون حظها في الزواج حسنًا، وقد خُيِّلَ إليها أنه حسن، خطبها شاب غني، عظيم الاسم، ماجد الأسرة، أنيق رشيق، هو الدوق «دي شاي» فأحبته، أو خيل إليها أنها أحبته، ولكنها لم تكد تقترن به، حتى تبينت أنَّ حظها في الزواج ليس خيرًا من حظها في غير الزواج، فهذا الزوج الذي فتنها بجماله وثروته ومجد أسرته، كان مريضًا أو قل: إنه كان مجنونًا، أسرف في اللذة وتهالك عليها، وافتنَّ في ضروب الفساد حتى أصابته بلادة الحس، فاصطنع «المورفين»، وما يشبه المورفين، وأتت هذه المخدرات على ما كان قد بقي من عقله وصحته، فهو الآن مجنون، وهو يعالج في مستشفى يديره الدكتور «هنري موري»، وهو الشخص الثاني من أشخاص هذه القصة.

عالِم مشهور بمهارته في طب المجانين، قد نبغ في هذا الفن، ووقف حياته وقوته عليه، حادُّ العاطفة قويُّها، شديد التأثر بأهوائه وشهوات نفسه، ملحد ولكنه يؤمن بالمثل الأعلى، ويطمح إلى الكمال، ويعتقد أنَّ في هذه الحياة أشياء غير المادة، خليقة بعناية الإنسان وإكباره، وأهم هذه الأشياء الحب، وهو ملحد، ولكنه كان شديد الإيمان قبل إلحاده، كان مسرفًا في التعبد وضروب النسك، حتى سخط عليه أبوه الذي كان يحتقر الدين ورجال الدين، ويكره أنْ يتصل أبناؤه بالدين ورجال الدين، كان شديد الإيمان فأصبح شديد الإلحاد، وله أخ، هو الشخص الثالث من أشخاص هذه القصة، كان في شبابه فاجرًا مسرفًا في الفجور، وكان بحكم هذا الإسراف في الفجور قرة لعين أبيه، مقربًا عنده مختصًا بإيثاره، ولكنه أسرف في اللذة حتى عافها، ومال عنها إلى شيء من الزهد، اضطره إلى شيء من الدين، ثم إلى الإسراف في الدين، حتى وقف حياته على الدين وأصبح قسيسًا، فغضب عليه أبوه وطرده، وحظر عليه أنْ يتسمى باسمه.

أما الشخص الرابع من أشخاص هذه القصة فرجل من رجال الدين أيضًا، هو الأسقف «بللين» من أساقفة الصين، رجل شيخ وقور، واسع العقل، راجح الحلم، شديد

الإيمان، قد وَفَّق في نفسه بين الدين الخالص الطاهر وبين العلم، وبين حاجات الحياة وضرورتها، فهي لا تتناقض في نفسه، وهو لا يفهم مصدر تناقضها عند الناس، وهو يستطيع أنْ يتحدث إلى الملحدين، فإذا هم يشعرون بحاجاتهم إلى إكباره وإجلاله، وأنْ يتحدث إلى المؤمنين المسرفين في الإيمان، فإذا هم يشعرون بضعف إيمانهم، وهو يستطيع أنْ يتحدث إلى الأغنياء والمترفين والمفتنِّين في اللذات والشهوات، فيحبب إليهم الخير دون أنْ يؤذيهم، ودون أنْ يمكِّنهم من أنْ يؤذوه، وهو مبتسم أبدًا، يقول الجد ولكن في مزاح، ويمزح فإذا فكاهته جدٌّ مرٌّ، أصابه الأذى والاضطهاد في الصين، فلقي ألونًا من العذاب، عطفت عليه قلوب الناس جميعًا، فأعجب به المعجبون، وأنعمت عليه حكومة الجمهورية بأوسمتها، وهو يسخر مما لقي من الأذى، ويعجب أنْ يكون هذا الشيء اليسير مصدرًا لهذا العطف الكثير، أثر هذا الإيذاء فيه، فيناله من حين إلى حين ضعف عصبي، وهو الآن في مستشفى الدكتور «موري»، يتعهد أعصابه بشيء من الراحة، ومن حول هؤلاء الأشخاص الأربعة أشخاص آخرون ليس لهم شيء من الخطر.

فإذا كان الفصل الأول رأيت الطبيب في مكتبه، وقد دخلت عليه الدوقة، فأخذ يسألها عن زوجها، فتتبين أنَّ حاله لا بأس بها، وإنْ لم يكن قد برئ، وإنْ لم يكن ينتظر له الشفاء، وتتبين أنه سيترك المستشفى هذا اليوم، على أنْ يتعهده الطبيب في قصره، ولكنك تتبين بنوع خاص أنَّ الطبيب يحب هذه المرأة حبًّا ليس يعدله حب، وهو يجاهد في كتمان هذا الحب، دون أنْ يحرص على هذا الكتمان، يريد أنْ تشعر به الدوقة، ولكنه لا يريد أنْ ينبئها به، وتتبين أيضًا أنَّ هذه الدوقة شقية سيئة الحال، لكل ما قدمت لك من أمرها، ولكنك تشعر بأن نفسها تنزع إلى شيء غير بيِّن، وأنها تحارب هذه النفس، وتلزمها أنْ تطمئن إلى ما هي فيه من حال سيئة، فإذا ذكر الحب، أعلنت في شدة وعنف أنها تكرهه وتنفر منه كل النفور؛ لأنه مصدر ألم لا حد له، ثم إذا ذكر الدين أعلن الطبيب إلحاده، وأنبأته هي أيضًا بأنها ملحدة، وهما في هذا الحديث إذ يستأذن الأسقف، فإذا دخل وقدمت إليه الدوقة، وتحدث القوم فيما أصاب الأسقف من العذاب في الصين، وحاولت المرأة أنْ تخرج، فقبلت يد الأسقف قبل خروجها، ظهرت على وجه الطبيب مظاهر تدل على شيء من الألم والامتعاض، ثم يخلو الطبيب إلى الأسقف، فيتحدثان في أمر هذه المرأة، يمدحها الطبيب، فيسأله الأسقف في صوت هادئ طبيعيٍّ: أَلَهَا عاشق؟ فإذا غضب الطبيب لهذا السؤال، وزعم أنَّ هذه المرأة أطهر النساء وأشرفهن، أجابه الأسقف: وإذا كانت — كما

تقول — شريفة عفيفة طاهرة، لا عاشق لها، فما بالك تحاول أنْ تكون أنت عاشقها؟ فَهِمَ الأسقف إذن حب الطبيب، ويحاول الطبيب أنْ ينكر هذا الحب، فلا يلح الأسقف، ثم يسأله الطبيب عن رأيه في هذه المرأة، فيجيبه: هي امرأة مؤمنة خالصة للكنيسة، فيسخر الطبيب؛ لأن هذه المرأة قد أنبأته بأنها ملحدة، ولكن الأسقف ينبئه بأن الطبيب الماهر يستطيع أنْ ينظر إلى الرجل الذي يخيل إلى الناس أنه صحيح الجسم، فلا يكاد ينظر إليه حتى يتبين أنه مريض، وحتى يشخص علته، وكذلك المهرة من رجال الكنيسة ينظرون إلى الإنسان يخيل إليك أنه ملحد، فيتبينون إيمانه وإخلاصه للدين، يقع هذا الحديث موقعًا سيئًا من نفس الطبيب، ولكنه يخفي ذلك، وهما يتحدثان إذ يدخل الخادم ومعه بطاقة يقدمها إلى الأسقف، فيهم الأسقف بالخروج لاستقبال زائره، فيمسكه الطبيب، ويعرض عليه أنْ يستقبله في مكتبه ويخرج، يبقى الأسقف ويدخل الزائر، فإذا هو القسيس أخو الطبيب، وكان هذا القسيس تلميذًا للأسقف، فكلاهما يحب صاحبه حبًّا شديدًا، وكان القسيس قد أقبل إلى هذا المستشفى؛ ليرى أخاه في أمر من الأمور، فلما سمع اسم الأسقف أسرع إلى لقائه، يدهش الأسقف حين يعلم أنَّ الطبيب أخو القسيس، فينبئه القسيس بكل ما قدمت لك، وينبئه بأنه مقاطع أخاه منذ عشر سنين، وأنه سيراه لأول مرة منذ ماتت أمهما.

ثم يخرج الأسقف ويرافقه القسيس، فإذا عاد الطبيب إلى مكتبه ودخل عليه القسيس، كانت بينهما ألفاظ فيها شيء من المودة، ولكن المودة الجافة؛ ذلك أنَّ الطبيب يكره الدين، وإذ كان لا يستطيع أنْ يفرق بين الأشخاص وآرائهم ومذاهبهم، فهو يكره الأشخاص إذا كره آرائهم، ولكنه مع ذلك يتلطف بأخيه، أما أخوه فقد أقبل يسأله المعونة في شيئين، الأول أنَّ طائفة من المؤمنين في حيه قد أنشئوا مستوصفًا لمرضى الفقراء، فهو يعرض على أخيه أنْ يعمل في هذا المستوصف ساعة أو ساعتين في الأسبوع، ولكن الطبيب يرفض؛ لأنه لا يستطيع أنْ يعمل مع رجال الدين، الثاني أنَّ الطبيب يعالج الدوق «دي شاي»، وامرأة هذا الدوق غنية محسنة، فيريد القسيس أنْ يتوسط له أخوه عند هذه المرأة لتعينه بشيء من المال في عمله الخيري، ولكن الطبيب يرفض أيضًا؛ لأنه لا يريد أنْ يثقل على الدوقة في شيء كهذا، وانظر إلى هذا الحوار الذي يبين موقف الأخوين كل من الآخر:

القسيس: هذا حسن، سأعمل وحدي، أترى بأسًا في أنْ أكتب إلى الدوقة أو أزورها؟
الطبيب: لا بأس! ولكن على شرط، ألا تعلم الدوقة أنك أخي.
القسيس: ستجهل ذلك!
الطبيب: هذه منفعتك.
القسيس: ومنفعتك أيضًا.

(يظهر الطبيب إنكار ذلك.)

القسيس: نعم! أنا أضايقك، فأنت خجل من انتسابي إليك.
الطبيب: لا يخجلني انتسابك إليَّ أكثر مما يخجلك انتسابي إليك؛ فليس لأحد منا أنْ يخجل من صاحبه، أو أنْ يفاخر به، لقد وجهت حياتك كما أحببت، وكذلك فعلت أنا، ثم انقطع التزاور بيننا.
القسيس: فهل انقطع بيننا الحب؟
الطبيب: تأمل، لم يحب أحد منا صاحبه قط.
القسيس: قليلًا فيما مضى.
الطبيب: قليلًا جدًّا في غير عمد، ولكن منذ ذلك الوقت! الآن؟ ليس من اليسير عليَّ أنْ أفرق بين الأشخاص وآرائهم! وإذن فماذا يريد؟ أنا أكره آراءك كما تكره أنت آرائي! أما أشخاصنا فأنت أحب إليَّ من الأجنبي!
القسيس: أو دون الأجنبي!
الطبيب: أتظن أني أكرهك؟ كلا! وإنما تبعث في نفسي شعورًا آخر، غضبًا يمازجه الإشفاق، حينما أفكر في هذه الصنعة التي تنفق فيها حياتك، فأنت لا تحيا، وأنت لا تفيد.
القسيس: لست من الجور بحيث أصفك بما تصفني به.
الطبيب: أنت مكره على ذلك بحكم البداهة، فأنا أحارب، وأنا أجاهد العلل والآلام، وربما أسرت هذه العلل والآلام، وجردتها من أسلحتها، فهذا وحده يستأثر بالنفس، وهذا وحده يجعل الحياة خليقة أنْ يحرص عليها صاحبها، هذا الصراع في كل لحظة صراع الألم والموت، ومن هنا أكاد أبكي حين أرى قوة كقوتك، جميلة شابة تضيع في تقبل الاعتراف من الخادمات.

القسيس: تستطيع أنْ تمسح عينيك، فهذا الكلام يدهشني من عالم، ذكرت الاعتراف، ألم تفكر قط في أنَّ قسيسًا متواضعًا يقضي سنة في تقبل الاعتراف، قد يعلم أمر الإنسانية أكثر مما يعلم الفلاسفة جميعًا، إنك تذكر الصراع، ولكن ضروب الصراع التي تنفق فيها حياتك، ليست إلا ألاعيب أطفال مضحكة بالقياس إلى الصراع الذي أحيا أنه فيه، صراعي أنا أشد من صراعك حدة، وأقرب منه إلى العنف، وأنا في كنيستي الصغيرة الخالية أحيا منك ألف مرة في مستشفياتك ومستوصفاتك.

الطبيب: لا أفهم!

القسيس: انظر، (ثم يدنو منه) اسمع، إنَّ بين اللاتي أسمع لهن امرأة أستطيع أنْ أتحدث عنها في غير حرج، فأنا لا أعرفها، لم أرَ قط وجهها، فهو مستور أبدًا، وقد أسمعها تتحدث غدًا، فلا أعرف من صوتها شيئًا، فكل هذه الأصوات الهامسة التي تتحدث في الاعتراف، مجهولة من القسيس، ومهما يكثر عدد المعترفين ويبلغ المئات، فنحن لا نسمع إلا رجلًا واحدًا وامرأة واحدة.

الطبيب: إذن فمعترفتك ...

القسيس: هي متزوجة شقية، وهي تحب رجلًا غير زوجها، ومع أنها مضطرة إلى معاشرة هذا الرجل، لم تشعره قط بهذا الحب، مع أنها تعلم أنه يحبها، ولقد كادت شهوتها المكظومة تنفجر عشر مرات، فخرجت مسرعة إلى هذا الذي تسميه فيما بينها وبين نفسها عاشقها، ولكنها في كل مرة أسرعت إلى المعترف فبكت وتضرعت، ثم عادت منتصرة فرحة.

الطبيب: إلى متى؟

القسيس: عهدي بهذا الجهاد منذ شهرين، فانا أمسك هذه النفس، وأنا أذود عنها، وأحميها من السقوط في هوة الحب، هذا صراعي، هذا ما أفعل.

الطبيب: هذا وحشي!

القسيس: أنا أمنع هذه المرأة من السقوط، فانظر فائدتي في الحياة.

الطبيب: أنت لا تمنع شيئًا لحسن الحظ، وكل ما تفعل أنك تؤخر إلى دقائق هذا اللقاء الذي لا بد منه لهذين الشخصين، ولن تكون بينهما أبدًا حين تهب عاصفة الرغبة، غدًا أو هذا المساء تسرع صاحبتك المنتصرة إلى عاشقها، وتعترف هناك ذارفة دموعًا أخرى، تقول لعاشقها كل ما لم تقل لك، ويتحابان حبًّا عظيمًا قويًّا؛ لأنهما انتظرا طويلًا، ولن يكون عملك في آخر الأمر، إلا ترقية لحظهما من السعادة؟

القسيس: ستعود إليَّ!

الطبيب: تعود إليك بعد أنْ تكون قد سقطت!

القسيس: سأنهضها!

الطبيب: ستسقط مرة أخرى!

القسيس: لقد سقط المسيح مرات ثلاثًا، فستكون لي الكلمة الأخيرة.

الطبيب: نعم حين تبلغ الشيخوخة، وهبك تنتزعها من بين ذراعي الحب، فلن تستطيع أنْ تمنع أنها أحبت، هذا كل ما أردتُ أنْ أُثبت، فالرجال جميعًا غنيمة، ولو مرة واحدة في الحياة لهذه الجذوة الملتهبة الضرورية، جذوة الحب، تُخَيِّلُ إلى نفسك في سذاجة أنَّ قصتك هذه معجزة، انظر، (ثم يدنو) اعف عن اعترافي هذا مقابل اعترافك، إني أحب أنا أيضًا.

القسيس: أنت؟

الطبيب: أنا! فأنا حر، ولم أنذر العفة، أحب امرأة متزوجة أيضًا، امرأة متكبرة قوية الإرادة، تقاوم وتمانع هذا الألم اللذيذ، ومع أننا كتمنا الأمر، ولم يتحدث أحدنا إلى صاحبه بشيء، فإن لحاظنا قد فضحت هذا السر، وقد نهض بعضنا لبعض، وأنذر بعضنا بعضًا، ونحن الآن نتقدم بحكم القضاء، وفي سعادة وغبطة، وبيننا مصاعب وعقاب، أشد من تلك التي تحول بين صاحبتك المؤمنة وبين عاشقها، ومع ذلك فسننتصر مثلهما قبلهما، وسيملك كل واحد منا صاحبه، فليس الأمر إلا إلى ساعات.

القسيس: ليست الساعة بيد أحد.

الطبيب: نعم أعلم.

فقد فهمتَ من هذا كله إلى أي حدٍّ بلغت الخصومة بين هذين الأخوين، وقف أحدهما نفسه على الدين، ووقف الآخر نفسه على العلم، فكلاهما يزدري صاحبه، وقد فهمت أيضًا أنَّ الأمر بينهما قد ازداد تعقيدًا، فليست هذه المرأة التي تلتهمها جذوة الحب، ولكنها تجاهد وتمانع، وتستمد القوة على هذا الجهاد من القسيس والدين، إلا الدوقة التي تحب الطبيب والتي يحبها الطبيب، وهي تنكر حبها ولكنها تصطليه، والطبيب ينتظر أنْ تعترف به، يخرج القسيس وتأتي الدوقة؛ لتنبئ الطبيب بأن زوجها قد عاد إلى القصر في خير، فما أسرع ما يصلان إلى الحب، وما أسرع ما يعلن الطبيب إليها حبه، فإذا هي وجلة، وإذا هي تنفر من هذا الحب وتأباه، وإذا الطبيب يلح عليها فيه، وإذا هو ينبئها بأنها تحبه أيضًا، تنكر وتأبى، ولكن إلحاحها في الإنكار وإصرارها على الإباء، لا يزيدان حبها

إلا وضوحًا، ولا يزيدان ميلها إلى الإذعان إلا ظهورًا، ما أسرع ما تتغلب إرادة الطبيب، وما أسرع ما ينتصر الحب، فإذا المرأة مذعنة، وإذا هي معترفة بالحب، وإذا هي قابلة لكل ما يطلب إليها، وماذا يطلب إليها صاحبها غير الموعد! هو الذي يضرب الموعد، ويحدد مكانه وساعته، وهي قد فقدت كل إرادة وكل قوة على المقاومة، فلا تستطيع أنْ تجاوب إلا بالرضا.

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في بيت القسيس، وهذا القسيس قد جلس إلى مكتبه في غرفة فقيرة، ولكنها لا تخلو من جمال فني؛ لأن هذا القسيس يحب الفن ويكلف بالجمال؛ بل هو لا يعبد الله ولا يحبه إلا لأنه يرى الدين مظهرًا من مظاهر الفن والجمال، هو يتحدث إلى خادمه، وإذا الباب يطرق، فينكر القسيس نفسه، ولكن الطارق يلح، ويعلن أنه سينتظر عودته، فإذا أذن له في الدخول، رأيت الدوقة قد أقبلت إلى القسيس تستغيثه وتستنجده، ذلك أنَّ القسيس كتب إليها وهو لا يعرفها، كتب يطلب معونتها على عمله الخيري، فلما قرأت كتابه، وكانت لا تفكر إلا في الحب ولا تنتظر إلا الموعد، ذكرت الدين، وذكرت القسيس، فأسرعت إلى الكنيسة لا إلى الموعد، ولكنها لم تجد القسيس في الكنيسة، فأسرعت إليه في بيته، وماذا تريد من القسيس في هذا البيت، وهو لا يملك قبول الاعتراف إلا في الكنيسة، وهو لا يستطيع أنْ يذهب معها إلى الكنيسة ليسمع اعترافها، وينزل عليها رحمة الله، لا يستطيع؛ لأنه مدعو لعيادة مريض يشرف على الموت، وهذا المريض أحوج إلى كلمة الله من هذه التي تجاهد الإثم، لا يستطيع أنْ يذهب معها فلتنتظر إلى غد، وهو يتركها الآن، ولها أنْ تجثو أمام هذه الصور — صور القديسين — وأمام هذا الصليب، فتستمد القوة والمعونة، ولكن القسيس لا يكاد يخرج حتى يطرق الباب، فإذا أخوه الطبيب، ذلك أنه انتظر صاحبته، فأبطأت عليه فخرج يترقبها فرآها تنحو نحو الكنيسة فتبعها، ثم رآها تنحو نحو بيت القسيس فتبعها، ثم رآها تدخل فدخل، وقد علم الآن أنَّ أخاه إنما ينازعه حبيبته، وقد علم الآن أنَّ هذه الحبيبة قد خدعته، حين زعمت له أنها ملحدة، وقد علم الآن أنَّ الأسقف كان موفقًا، حين زعم أنها مؤمنة، يريد أن يأخذها فتأبى، ويمانع القسيس، ويأخذه بالخروج، ولكنه يأبى أنْ يخرج حتى يتحدث إلى صاحبته في خلوة، يمانع القسيس، ولكن المرأة تقبل ذلك فيتركهما، فإذا موقف عنيف مؤثر فيه الجهاد بين الحب الذي لا يعرف رحمة ولا لينًا، وبين الحرص على الشرف القديم، والوفاء للفضيلة الموروثة، فليست هذه المرأة مؤمنة، ولكنها تكره الإثم، وقد دافعت نفسها عن هذا الإثم،

وقد دافعت هذا الإثم ما استطاعت، فقدت كل سلاح، ولم يبق لها إلا الدين، فهي تتعلق به، وتتهالك عليه، رجاء أنْ يعصمها من النقيصة، ولم تكن تعلم أنَّ هذا القسيس أخو الطبيب، أما الآن فقد علمته، وتغير كل شيء، ليست أشد ميلًا إلى الحب، بل هي أشد نفورًا مما كانت، ولكن الحب قوي عنيف، وما يزال صاحبها بها حتى يغلب إرادتها مرة أخرى، وحتى يستهويها ويأخذها، وهما يخرجان إذ يدخل القسيس فينقض كل شيء، وتظهر بشاعة الأمر لهذه المرأة واضحة جلية، فتنصرف وتترك الأخوين يتنازعان، عنيف جدًّا هذا النزاع بين الأخوين، كنت أود لو ترجمته لك؛ لأني لن أستطيع أنْ أبلغه بالتلخيص والتحليل.

يتهم الطبيب أخاه؛ بأنه ليس مخلصًا في دينه، وأنه لا يدفع هذه المرأة عن الإثم ابتغاء مرضاة الله، وإنما هو يشتهيها، هو لا يفرق بين دينه وبين نفسه، هو يزعم أنه يستخلص هذه المرأة للدين، والحق أنه يريد أنْ يستخلصها لنفسه، ليس قسيسًا، ولكنه رجل فاجر، وعما قليل سينزع ثوب القسيس، وعما قليل سيعود إلى ما كان فيه من الإثم، يلح الطبيب على أخيه في هذا إلحاحًا شديدًا، ويدافع القسيس فيخيل إلى نفسه أنَّ أخاه يريد أن يؤثر فيه، وأنْ يخيفه من الإثم، ولكنه كلما ازداد إلحاحًا في الدفاع، ازدادت الصورة وضوحًا في نفسه، فهو لا يدافع حقًّا عن الدين منذ عرف هذه المرأة، وإنما هو ألعوبة في يد طائف من الطوائف، هو ألعوبة في يد الحب؛ لأنه يحب هذه المرأة، وإنْ أنكر ذلك، يحبها ويعجب بها، وإلا لما ذكر قصتها لأخيه! هو يحبها، وهو ألعوبة في يد الحب، هو ألعوبة في يد الغيرة أيضًا، منذ عرف أنَّ هذه المرأة تحب أخاه، هو يحب هذه المرأة، ويكره أنْ تكون لأخيه، وهو لا يستطيع أنْ تكون له، فهو يريد أنْ تكون للفضيلة، وأنْ تكون لله، ليس إذن مخلصًا، وقد أحس ذلك وشعر به، فجثا أمام الصليب مستغيثًا متضرعًا بعد أنْ تركه أخوه.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في دار للمرسلين من القسس، ينزلون فيها كلما أقبلوا إلى باريس، والأسقف في هذه الدار يستعد لرحلته إلى الصين، وقد أقبل خادم فأنبأه بأن الدوقة قد خرجت تريد زيارته، ولكن زوجها ألقى بنفسه من النافذة، فهو مُحْتَضَر والطبيب عنده، وقد أقبل الخادم يطلب إليه أنْ يرفق بالدوقة، وأنْ ينبئها بالأمر في لطف، ينصرف الخادم، وتقبل الدوقة فلا تتحدث عن زوجها، وإنما تتحدث عن نفسها وعن صاحبها، فإذا هي ما زالت تحب الطبيب حبًّا شديدًا، ولكنها تكره هذا الحب، وتنفر منه نفورًا عظيمًا؛ لأنها عرفت أمر القسيس.

وأحست أنها موضوع النزاع بين أخوين، فكرهت الحب، وكرهت الحياة، وأقبلت تستشير الأسقف في أنْ تترك الحب وتترك الحياة، وتذهب إلى الدير متى مات زوجها، ولكن الأسقف يضحك منها، وينبئها بأنها لم تخلق للدير، وأنَّ واجبها ليس في الدير، وإنما هو في قصرها، واجبها أنْ تحيا، وأنْ تحب، وأنْ تكون مصدرًا للسعادة، وهما كذلك وإذا القسيس يستأذن، فتختبئ المرأة ويدخل القسيس، فإذا هو مستيقن بإثمه، مؤمن بأنه ليس أهلًا لمركزه الديني، وإذا هو يريد أنْ يخلع ثوب القسيس؛ لأنه يحب؛ ولأنه يغار، ولأن الحب والغيرة لا يتفقان مع الدين، والدين في نفس القسيس، ولكنه لم يأثم بالفعل، ولعله لا يحب بالفعل، وإنما يخيل إليه أنه يحب، ويخيل إليه أنه يغار، ويخيل إليه أنه آثم، هو إذن يستطيع أنْ يجاهد، ذلك حديث الأسقف، يريد أنْ يعصم صاحبه من الانقياد للهوى والتأثر بالعاطفة، وما يزال به حتى يقنعه بأنه يستطيع أنْ يظل قسيسًا.

– إذن فيجب أنْ أترك هذه الحياة التي أخالط فيها الناس، وأنْ أذهب إلى الدير.

– كلا! يجب أنْ تظل قسيسًا.

– لا أستطيع.

– كلا! تستطيع ويجب أنْ تستطيع.

– إذن فخذني معك إلى الصين هناك، حيث أستطيع أنْ أعالج المجذومين الذين تُعنى بهم.

وهنا حديث لذيذ مؤثر بين الأستاذ وتلميذه، تفهم منه أنَّ الإيمان بالله والوفاء للدين، ليسا في حاجة إلى التكلف وإجهاد النفس، والتفنن في احتمال الآلام، وتذوق المكروه المادي، وإنما هما شيئان يسيران، يجب أنْ يصدرا عن القلب في هدوء وسلام — كما يصدر الماء عن الينبوع — فإذا لم يكن بد من العنف، فيجب ألا يكون هذا العنف ماديًّا، يجب أنْ يكون نفسيًّا، يجب أنْ يكون في أخذ النفس بالخير، وصرفها عن الشر.

– سآخذك إلى الصين، ولكني أشترط لذلك شرطًا، هو أنْ تلقى هذه المرأة قبل سفرك، وأنْ تخلو إليها، وأنْ تقف منها موقف القسيس حقًّا، وأنا واثق بأنك قادر على ذلك، وأنا واثق بأنك تظلم نفسك، حين تزعم أنك غير قادر، وستثبت لك التجربة صدق ما أقول، نعم ستلقى هذه المرأة، وسأترككما وأذهب؛ لأرى زوجها الذي يموت، لا تمانع فليس من هذا بد.

ثم يتركه ويعود ومعه الدوقة: سيدتي إنَّ هذا القسيس يريد أنْ يودِّعك، قبل أنْ يسافر سفرًا طويلًا جدًّا، ثم ينصرف، ويخلو القسيس إلى هذه المرأة فإذا هما وجلان، وإذا هما ضيقا الصبر، ولكن المرأة تبتدئ الحديث فتسأله عن السفر ومتى، وهو يجد من

الحديث وسيلة إلى أمرهما، فإذا الأسقف لم يخطئ، وإذا النفس الإنسانية ضعيفة قوية حقًّا، أليس الطبيب قد استطاع أنْ يؤثر في نفس القسيس، حتى أقنعه بأنه فاجر، وبأنه سيخلع ثوب الدين، ألم يكن هذا القسيس معتزمًا منذ لحظة مفارقة الحياة الدينية، انظر إليه الآن، لقد استطاع الأسقف أنْ يعبث به عبثًا جديدًا، وأنْ يؤثر فيه تأثيرًا جديدًا، أقنعه بأنه قسيس، وبأنه برٌّ بدينه وربه، وبأنه يستطيع، ويجب أنْ يقف من هذه المرأة موقف القسيس، انظر إليه، وقد جرد نفسه من كل حياتها المادية حتى أصبحت جوهرًا نقيًّا صافيًا، هو يعظ هذه المرأة، ويأمرها أنْ تحب وأنْ تسعد، فإذا ذكرت الدير أنكره، وحثها على الحياة الدنيا، على أنْ تألم وتلذ، على أنْ تفرح وتحزن، على أنْ تسعد وتشقى.

ثم حدد أغراضه، وأوضح نصيحته فأمرها بأن تحب، وأمرها بأن تحب أخاه، وأنْ تكون له زوجًا، وهما كذلك إذ يقبل الأسقف والطبيب فيستمعان، ثم يظهران، فينبئان بموت الزوج والمرأة واجمة، ولكنها متأثرة بموقف هذا القسيس، متأثرة بمنظر هذا الطبيب الذي يحبها والذي تحبه، وإذا هي تنبئ الطبيب بسفر أخيه، وتطلب إليه أنْ يودعه، فما أسرع ما يفهم الطبيب تضحية أخيه، وما أسرع ما يتعانق الأخوان، وأحدهما ملحد مسرف في الإلحاد، والآخر مؤمن متشدد في الإيمان.

فما مصدر هذا التعانق بين الإلحاد والإيمان؟ وكيف انتهت هذه الضروب المختلفة من الجهاد العنيف إلى هذا الاتفاق، بل إلى هذا التعانق؟ أمران — فيما أعتقد — يفسران هذا كله، أحدهما معقول، والآخر تكلفه الفن، فأما الأول فهو هذا الأسقف الذي بينت لك خلاله في أول هذا الفصل، والذي هو رمز السلام والوفاق بين الناس وأهوائهم وعواطفهم لو استطاعوا أنْ يتدبروا وأنْ يفهم بعضهم بعضًا، وأنْ يجتهد كل منهم في أنْ يفهم نفسه.

وقف هذا الأسقف جهده على أنْ يوفق بين هؤلاء المختلفين، بل بينهم وبين أنفسهم، فأفلح وأعانه التكلف الفني، أعانه موت هذا الدوق الذي حل المشكلة، وجعل تدخله ممكنًا، فقد أصبح يستطيع أنْ ينصح لهذين العاشقين بالزواج، ولم يكن يستطيع أنْ ينصح لهما بالإثم، استطاع أنْ ينصح لهما بالزواج، وأنْ يبين للقسيس أنه من حيث هو قسيس يجب أنْ يؤيد هذا الزواج ويبارك عليه، وأنَّ جهاده في حماية هذه المرأة لم يبق له نفع ولا فائدة، فهو بين اثنتين، إما أنْ يكون قسيسًا حقًّا، وإما أنْ يكون رجلًا قد ازدرى الدين، وازدرى نفسه، وازدرى الفضيلة، وقد آثر القسيس أنْ يكون قسيسًا، ولكن بعد جهاد عنيف، وبعد تضحية هي سفره إلى الصين.

أكتوبر سنة ١٩٢٣

أنت وأنا

للشاعر الفرنسي «پول جرالدي»

ولكنك تخطئ الخطأ كله، إذا ظننت أني جاد في هذا الحديث، وأني أريد أنْ أكتب فصلًا يبقى، وتخطئ الخطأ كله، إذا ظننت أني مازح في هذا الحديث، وأني أريد أنْ أضحك ليس غير، وإنما أريد أنْ أجدَّ، وأريد أنْ أمزح أو — بعبارة أوضح — أريد أنْ أضحك ضحكًا لا يخلو من فائدة، فقد سئمت الجدَّ، وأحسب أنك سئمتَه أيضًا، ومن حقك ومن حقي أنْ نمزح ولو قليلًا، ولو يومًا في الشهر، على ألا يخلو هذا المزح من نفع، وعلى ألا يكون كلامًا يقال، ثم ينسى كأن لم يُقَل.

وقد حدثتك، وسأحدثك عن أبي نواس، فأضحكت في نفع وفائدة، وخالطت بين المزح والجد، فرضي قوم، وغضب آخرون، وأريد اليوم أنْ أحدثك عن شاعر فرنسي، أو عن ديوان لهذا الشاعر، يشبه من بعض الوجوه شعر أبي نواس في الغزل.

ليس في هذا الديوان إلا غزل، وليس في هذا الديوان إلا غزل كغزل أبي نواس، موضوعه العبث والمداعبة، ليس فيه شيء من وصف العواطف القوية، وليس فيه شيء من التحدث إلى الحرائر، اللاتي يأخذنك بالإكبار والإجلال؛ لأنهن كبيرات جليلات، وإنما هو عبث، ووصف لطائفة من العواطف الدقيقة الهادئة الباسمة، وتحدث إلى امرأة، أو طائفة من النساء، كأولئك اللاتي كان يتحدث إليهنَّ أبو نواس، ومع ذلك فهذا الديوان يخلو من الإثم وفاحش القول، كله ألفاظ مألوفة لمعانٍ منها المألوف، ومنها غير المألوف، ولكنها كلها صحيحة صادقة، وهي لا تخلو من فلسفةٍ، أو قل: إنها كلها فلسفة، غير أنها نظمت في سذاجة ويسر، دون تكلف وتعسف، بل لم يتقيد الشاعر فيها باختيار الألفاظ المتينة،

أو التراكيب الرصينة، أو بتكلف ما يتكلفه الشعراء المتفلسفون، وإنما تحدث إلى صاحبته باللغة التي تفهمها صاحبته، وليست صاحبته أديبة بارعة في الأدب، ولا فيلسوفة متعمقة في الفلسفة، وإنما هي امرأة عادية تشعر وتلذ وتألم، وتفهم الحياة على ألا تكون الحياة معقدة، فمن الحق أنْ يتحدث إليها الشاعر بهذه اللغة السهلة، التي يألفها الناس جميعًا، ويفهمها الناس جميعًا، بل هو قد ذهب إلى أبعد من هذا، فلم يتقيد في شعره بما يتقيد به الشعراء من ضروب التضييق في القافية والوزن، وإنما أرسل نفسه إرسالًا، واصطنع ضروبًا من الحريَّة يغضب لها «بوالو» وأمثال «بوالو»، والحق أنَّ لهذا الديوان مكانة عظيمة في نفس الشباب الفرنسي، وفي نفس الفتيات الفرنسيات بنوع خاص، فهو على يسره وسذاجة موضوعه ومعانيه وألفاظه غنيٌّ بالمعاني الظريفة، غنيٌّ بوصف المعاني التي تشعر بها في نفسك في كثير من الظروف والأحيان، وأنا أزعم أنك لا تكاد تقرأ هذا الديوان القصير، حتى ترى نفسك فيه غير مرة، وحتى تمر بالمعنى من معانيه، فتضطر أنْ تقول: هذا حق؛ لأنك شعرت به في ظرف من الظروف؛ ولأنك مستعد للشعور به إذا تجدد هذا الظرف.

ليس الديوان إذن هزلًا من الهزل، وليس ضربًا من ضروب العبث، وإنما هو طائفة من المقطوعات الشعرية الحلوة التي تقرؤها فتسيغها، ثم تعيد قراءتها وتعيدها حتى تستظهرها استظهارًا، وقد كنت أستطيع أنْ أتحدث إليك فيه جادًّا، وأنْ أترجم لك منه ترجمة عربيَّة صحيحة، لا تخلو من متانة، وإنْ كان هذا عسيرًا، ولكني مع ذلك تعمدت أنْ أتحدث إليك فيه مازحًا، وأنْ أتكلف الترجمة الحرفية التي يأباها الذوق العربي، وآباها أنا أيضًا أشد الإباء؛ لأني أردت من هذا الخلط بين الجد والمزح، أن تعرف هذا الشاعر من جهة، وتعرف كيف يفكر القوم، وكيف يتحدثون من جهة أخرى، وتشعر بأن الترجمة الحرفية في الأدب قد تكون نافعة، وقد تكون قيمة، ولكنها مفسدة للجمال الأدبي في كثير من الأحيان، ثم أردت أنْ أبين لك مصدر هذا الأسلوب الغريب، الذي يصطنعه طائفة من الشباب عندنا؛ لأنهم يقرءون الشعراء والكتاب من الفرنسيين والإنجليز، ولم يقرءوا الشعراء والكتاب من العرب، فيحاولون أنْ يكتبوا — كما يقرءون — ويحاولون أنْ يقلدوا أساتذتهم من الفرنسيين والإنجليز، فيأتون بالأعاجيب، ويحولون بينك وبين أنْ تفهم ما أرادوا أنْ يقولوا، ومن يدري؟ لعلهم لم يريدوا أنْ يقولوا شيئًا، وإنما أعجبهم الأسلوب فقلدوه.

أنا أترجم إذن ترجمة حرفية خالصة، وأتكلف الأسلوب الفرنسي في اللغة العربية، وأعرف أنَّ هذا الأسلوب قد يُغضب كثيرًا من الناس، فأسارع بأن أعلن أنه يُغضبني أيضًا،

وأعرف أنه قد يعجب كثيرًا من الناس، فأسارع بأن أعلن أنه يُعجبني أيضًا، فهو يُغضبني حين أريد الجدَّ، وهو يعجبني حين أريد الضحك.

وانظر إلى هذه المقطوعة التي سماها الشاعر «تبسطًا»، والتي أراد أنْ يتحدث فيها إلى صاحبته، بأن الحب أدق وأعظم من أنْ تصفه الألفاظ، ولا سيما إذا ألفها الناس وابتذلها الاستعمال، وأنه مع ذلك عاجز عن أنْ ينبئها بحبه من طريق غير طريق الألفاظ، بل هو عاجز عن أنْ يحيا بغير الألفاظ، وأنه مهما يقل ومهما يفعل، فلن يستطيع أنْ يقول، أو يعرب عن شعور أقوى من هذا الشعور، الذي يجده حين يخاطب صاحبته، وقد أخذ رأسها بين يديه فيقول لها: «أنت»، ويختصر بهذا الضمير جمالها ومكانتها من قلبه، وكل ما يحيط به وبها من حب وعاطفة وإعجاب.

تبسط

آه! أحبك! أحبك! أتسمعين؟ أنا هائم بك، أنا هائم أردد أبدًا كلمات بعينها، ولكني أحبك! أحبك! أحبك، أتفهمين! تضحكين! ترينني سخيفًا؟ ولكن كيف أعمل إذن لتعرفي حقًّا، ولتشعري حقًّا! فالألفاظ لا تدل على شيء! إني لأبحث، إني لأبحث عن وسيلة، ليس من الحق أن القبل تغني، إنَّ شيئًا يختفي هنا كأنه الزفرة، أنا في حاجة إلى أنْ أعرب، أنا في حاجة إلى أنْ أفسر، إلى أنْ لا أترجم، فلن يشعر الإنسان حقًّا إلا بما أحسن الإفصاح عنه، وإنما نحن قليلًا أو كثيرًا في الألفاظ، أنا في حاجة إلى الألفاظ، إلى التحليل، يجب أنْ أقول لك، يجب أنْ تعلمي، ولكن ماذا! أحبي! لو عرفتُ أنْ أصِلَ إلى ما يجد الشعراء، أفتظنين أني أستطيع أنْ أقول لك أكثر من هذه الكلمة التي أرددها وأرددها مائة مرة وألف مرة، وأرددها في هيام، وقد أخذت بين يدي هذا الرأس الصغير: أنت! أنت! أنت! أنت!

وانظر إلى هذه المقطوعة التي سماها الشاعر «حزنًا»، والتي هي في الحق حزن شديد، تشعر به إذا أحببت حقًّا، وفكرت فيمن أحببت، وفي هذا الوقت الذي فاتك ممن تحب، وفي هذه الضروب المختلفة من الشعور الذي وجده من تحب، دون أنْ تشاركه فيه، ألست إذا أحببت قاسمت هواك لذته وألمه ويأسه وأمله؟ ألست إذا أحببت وددت لو أنك استأثرت بحياة من تحب، وبكل ما يقع من هذه الحياة من الأحداث!

حزن

ماضيك! فإن لك ماضيًا أنت أيضًا! ماضيًا عظيمًا، مليئًا بالسعادة ومليئًا بالألم، أليس عجيبًا أنْ يمتلئ هذا الرأس بالأفراح القديمة والهموم القديمة، وبالظلال العظيمة والضئيلة، وبألف صورة لست منها في شيء! أعيدي علي كل هذه الأشياء التي قلتها مائة مرة، ذكرياتك لست أعرفها جيدًا، آه! هذا الليل وهذا اللغز دون عينيك! إذن فمن الحق أنْ قد مضى عليك عصر من العصور كنت فيه تَثِبِينَ تحت الضوء، وقد انتثر شَعرك الطويل — كما أرى على هذه الصورة — قُصِّي علي، أهذا حق؟ أكنتِ كهذه الصورة التي لا أراك فيها جميلة؟ قولي، في ذلك الزمان ماذا كنت تصنعين؟ ماذا كنت تفكرين؟ ماذا كنت تقولين؟ ماذا كان يحدث في حياتك؟ أوجدت هذه الحديقة الواسعة التي تلمح، وأين كان منها مكان الباب؟ أواثقة أنت بأن صورة هذه الصبية القبيحة تمثلك حقًّا؟ وهذه القلنسوة التي بعد بها العهد أكانت قلنسوتك؟ أواثقة أنت؟ وكل هذه الوجوه الفانية أهي وجوه الذين عرفوك من قبلي؟ أنت مدينة لهؤلاء الناس بأول سياحة لك، بأول ليلة في القطار، بأول غابة رأيتها، بأول ساحل لعبت فيه؟ الذين أعطوك يدهم وأعاروك أكتافهم، وقالوا لك: «انظري هنا» وا لهفتاه! ما بال هؤلاء الناس لم يتركوا لي هذا المقام؟ ما كان أحب إلي أنْ أحملك وحدك إلى بعيد، وأنْ أبتدع لك أسفارًا عجيبة! إذن لأظهرْتُكِ على جمال المساء والصيف، إذن لحبَّبت إليك الطرق الطوال الخالية، إذن لعلَّمتك أسماء القرى الجميلة التي نلمحها من بعيد، إذن لقدمت إليك الأرض، وأظن أني كنت أحسن ذلك الإحسان كله، وإذن لأمكن أنْ تفيض هذه الآفاق الرائعة، وهذه المدن والبلاد شيئًا من المجد، ولو قليلًا على الدليل، آه! هؤلاء الناس جميعًا، أيتها العزيزة علي، أيقدرون ما حرموني؟ لقد قُضي الأمر وليس إلى استدراكه من سبيل، ومع هذا فقد أرى هؤلاء الناس جميعًا كأنهم قوم عاديون لا يميزهم شيء، ثقي بأننا إذا أحسسنا شيئًا من الفرق والخلاف فيما بيننا فهم مصدر هذا الفرق والخلاف، نعم، هم مصدره، هم الذين تعللوا بأيام الراحة فأخذوا ينقلونك من مكان إلى مكان، وطبعوا حياتك بطابعهم قبلي، لا تفكر في شيء من هذا، خبئي عني هذه الصور.

وهذه المقطوعة الأخرى التي سماها الشاعر «مصباحًا»، والتي تضحك إذا قرأتها بالعربية، وتعجبك إذا قرأتها بالفرنسية، والتي تمثل الحياة تمثيلًا صحيحًا لا مِرْية في أنه صادق.

انظر إلى الشاعر قد خلا إلى صاحبته وقدم قبل المساء، فشملتهما الظلمة لولا المصباح، أقبل المساء ومعه هذا النوع من الحزن العميق الشامل، الذي ينال العاشقين إذا ولت الشمس وأقبل الليل، والذي يبعث فيهم شيئًا عظيمًا من الحاجة إلى الحنان، والميل إلى الشعور بآثار الحب، فإذا قلوبهم تخفق، وإذا هم يمسكون أعينهم أنْ تفيض بعبراتها، وإذا هم يتمنون ألا يحسوا إلا الحنان، وألا يشعروا إلا بالحنان، وإذا هم يتهالكون على الحب والحنان، وهم في ذلك مستمتعين بلذته إذ حركة من حركات الحياة العادية قد نبهتهم من الحلم، فشعروا أنهم أناس كغيرهم من الناس، انظر إلى الشاعر يحس هذا كله، ويطلب هذا كله، ويبدأ بالاستمتاع بشيء من هذا، وإذا الخادم تحمل القهوة فيحس الشاعر أنه جسم يأكل ويشرب ويلذُّ ويألم، وهل الحياة إلا هذا!

مصباح

تسألين مالي لا أقول شيئًا! ذلك أننا في اللحظة القيمة، في ساعة الحظ والابتسام، في المساء وأنا أحبك هذا المساء حبًّا لا حد له! ضميني إليك أنا في حاجة إلى الملاطفة، لو تعلمين كل ما يصعد في هذا المساء من طمع وكبرياء، من رغبة وحنان وخير! كلا تستطيعين أنْ تعلمي! اخفضي المصباح قليلًا، أتريدين! ذلك خير، ففي الظلام وحده تحسن القلوب الحديث، وإنما تتراءى الأعين حقًّا حين لا ترى الأشياء إلا قليلًا، أنا أحبك هذا المساء أكثر من أنْ أتحدث إليك في الحب، ضميني إلى صدرك، أحب أنْ أكون أنا موضع الملاطفة الآن، اخفضي المصباح قليلًا أيضًا، هذا حسن، لنصمت، لنهدأ، لنسكن، ما ألذ يديك الدافئتين على وجهي! ولكن ماذا! ماذا يراد منا! آه! إنهم يحملون القهوة! إذن ضعي القهوة هنا! أسرعي! وأغلقي الباب! ماذا كنت أقول لك؟ نشرب القهوة الآن؟ تفضلين ذلك! نعم فأنت تحبينها حارة، أتريدين أنْ أصبها لك؟ انتظري، دعيني أفعل، هي قوية اليوم! تريدين سكَّرًا؟ قطعة واحدة؟ أيكفي هذا؟ تريدين أنْ أذوق دونك! هذه قهوتك أيتها الحبيبة، ولكن ما أشد الظلمة فلسنا نكاد نرى شيئًا، ارفعي المصباح قليلًا.

ثم اقرأ هذه المقطوعة وحدثني أليست صادقة؟ أليس هذا الحكم الذي تشتمل عليه مع أنه جميل، ومع أنه قد أورد في لفظ شعري، وفي صورة شعرية موافق كل الموافقة لأصح نتائج الفلسفة، وأصدق نظريات العلم؟ تلقي من تحب، فهل قدرت أنك ستلقاه؟ أليس يخيل إليك أنك لقيته مصادفة، ومع ذلك فليس للمصادفة وجود، وإنما لكل شيء علته،

ولكل علة نتيجتها، وقد تعاونت الأسباب وتظاهرت العلل منذ كان العالم على أنْ تلقى من أحببت فتسعدا معًا، وتشقيا معًا، والأمر ليس مقصورًا على الحب، وإنما يتناول مع الحب كل شيء.

حظ

ومع ذلك فقد كان من الممكن ألا نتعارف! تخيلي أيتها الحبيبة كل ما وجب أنْ يأذن به الحظ لنجتمع هنا، وليحب كل صاحبه، ولنكون إيانا!

تقولين: «خلق كل منا لصاحبه»، ولكن فكري في كل ما كان يجب من حظ، ومن تعاون، ومن أسباب، ومن مصادفات لتحقيق هذا الشيء اليسير، حبنا! فكري في أننا قبل أنْ نجمع بين رأسينا الهائمين قد عشنا منفردين، منفصلين، ضالين، وفي أن الزمن طويل، وأنَّ الأرض واسعة، وأنه كان من الممكن ألا نلتقي، أفكرت قط — أيتها المخاطرة الجميلة — في هذا الخطر الذي تعرضت له سعادتنا، حين كان قلبانا يتجاذبان سرًّا في أعماق الطبيعة التي لا حد لها؟ أتعلمين أن قد كان مشكوكًا فيه ذلك الشوط الذي كان يدفعنا إلى اللقاء، وأنَّ عنادًا أو صداعًا كانا يستطيعان أنْ يفرقا بيننا أبدًا؟ لم أقل لك قط، هذا الشيء العجيب، لمحتك لأول مرة، فلم أرَ بادئ الأمر أنك جميلة، ولم أكد ألتفت إليك، فقد كانت صاحبتك تشغلني عنك بضحكها، وإنما التقت لحاظنا في وقت متأخر، متأخر جدًّا، فكري، فقد كان من الممكن ألا تفهمي، وكان من الممكن ألا أجرؤ.

أين كنا نكون هذه الليلة لو أنَّ أمك عجلت العودة بك في تلك الليلة، ولو أنَّ وجهك لم يمر تحت الضوء حينما أردت أنْ أعينك على لبس المعطف؟

تذكري! فقد كانت كل هذه الأسباب، ولو كان شيء من التأخير، ولو عرض مانع من الموانع لما أحسسنا شيئًا من هذه النشوة العزيزة، ولا من هذا التحول اللذيذ، لقد كان من الممكن ألا يوجد حبنا أبدًا! وكان من الممكن ألا تكوني في حياتي اليوم!

وانظر إلى هذه «المحنة» أليست تترجم ما يقع بين العاشقين! أليس من الحق أنَّ العاشق كثيرًا ما يتكلف إيذاء صاحبه امتحانًا له وفتنة؟

محنة

تنبئينني بأنك في هذا المرقص، ضحكت، ضحكت كمجنونة، وتشكين إذ يظهر لك أنَّ ألفاظك تؤذيني، وددت لو لم أظهر حزينًا، ولكني محزون، هذا حق، تقولين إني أثر، ومع ذلك فقد تعمدت ما فعلت، هذا الحزن الذي أحسه أيتها القاسية لقد كانت عينك تلتمسه في عيني، ولو أني ظهرت مبتهجًا لما كنت أنت راضية.

وهذه «هزيمة»، ألم يكن الرجل في كل وقت منهزمًا أمام المرأة! يظهر القوة والبأس ويتكلف أنواع الغيظ والغضب، ولكن لحظة واحدة ممن يحب، وإذا قوته وبأسه وغضبه وغيظه كأن لم تكن، أيهما القوي حقًّا؛ الرجل أم المرأة الساحرة؟

هزيمة

وبعد فليس هذا عدلًا! أنا شديد التأثر، تسيئين إليَّ، فأحاول أحيانًا أنْ أجزيك بالشر شرًّا، ولكن هذا مستحيل أبدًا، فأنا آلم دائمًا أكثر مما تألمين.

أنت تعلمين كيف تحتملين الإعراض الطويل، واللحاظ القاسية والصمت المتصل، آه! لا تقسي عليَّ أيتها الحبيبة إليَّ! فأنا مسرف في الحزن حين أحزن.

ولكني مجنون! لا تسمعي لي! فأنا أعترف لك في سذاجة بحقائق خطرة، أنت تعرفين الآن ضعفي، ولعلك تستغلينه.

واقرأ هذه المقطوعة وحدثني عن الجملة الأخيرة منها، وهي بيت القصيد، أليس من الحق أنَّ الصلات الجنسية هي وحدها التي تكاد توجد الحب؟

تفكير

مع أنَّ كلًّا منا يحب صاحبه، ومع أننا نتقسم الألم، فنحن في الحق لا نتشابه إلا قليلًا جدًّا، يكفي أنْ يشجر بيننا خلاف ولو كان ضئيلًا؛ ليظهر أنَّ بيننا هُوَّاتٍ عميقة!

يخيل إلينا أننا نهيم أحيانًا، ولكن لا نكاد نفرغ من الملاطفة حتى نشعر بأن بعضنا لا يكاد يفهم بعضًا، لو أنك رجل أكنا نكون صديقين؟

وانظر إلى نهاية ما بين العاشقين كيف سئم كل منهما عشرة صاحبه، فاعتزما أنْ يفترقا وودع بعضهما بعضًا، وهمت أنْ تنصرف، فإذا السماء تمطر، وإذا هو يريد أنْ يمسكها حتى يقلع المطر، وإذا هو ينتهز هذه الفرصة فيذكر حبهما، كيف نشأ، وكيف نمى، وكيف أخذ يضمحل، وكيف انتهى إلى السأم، وإذا هو يذكر ما سيصيران إليه من الجفوة وعدم الاكتراث، وإذا يشعر بأن حياة الإنسان غرور، وأنَّ قلب الإنسان ضعيف، وإذا هو يحس العجز عن احتمال هذه الفرقة، فينظر فإذا المطر لم يقلع، فيتخذ المطر تعلة فيمسك صاحبته ويدعوها إلى البقاء، على أنْ يحتملها، وعلى أنْ تحتمله في غير حب ولا كلف، ولكن خضوعًا للعادة واطمئنانًا إليها.

نهاية!

إذن فالوداع، ألَا تنسين شيئًا؟ حسن، انطلقي، فليس لدينا ما نقول، اتركيني، تريدين أنْ تمضي. ومع ذلك فانتظري قليلًا، انظري، إنَّ السماء تمطر، انتظري حتى ينقطع المطر، استري نفسك جيدًا! إنَّ البرد شديد خارج البيت، لقد كان يجب أنْ تتخذي معطف الشتاء، لقد رددت إليك كل شيء، ولم يبق لك عندي شيء، هل أخذت صورتك ورسائلك؟

إذن فانظري إليَّ ما دمنا سنفترق، ولكن احذري! لا تبك! فذلك سخيف، ما أشد الجهد الذي يجب أنْ نبذله لنذكر عشقنا القديم، لقد منح كل منا صاحبه حياته كلها منحًا دائمًا، وها نحن أولاء نسترد هذه الحياة! وسيذهب كل منا باسمه إلى حيث يستأنف حياته، إلى كل شيء، وإلى حيث ينبه، وإلى حيث يحيا، قد نألم حينًا، ثم ماذا! ثم يأتي النسيان، هو الشيء الوحيد الذي يعفو، ثم توجدين في ناحية أخرى، ونكون بين الناس شخصين، وإذن فستدخلين في حياتي الماضية! وقد نلتقي مصادفة في الطرق فأنظر إليك من بعيد دون أنْ أعبر إليك، تمرين في ثياب لا أعرفها ونظل أشهرًا لا نلتقي، ويتحدث إليك أصحابي بأنبائي، وأسأل عنك وقد كنت حياتي، عنك وقد كنت سعادتي ولذتي فأقول: «كيف هي؟»

إذن فقلبنا العظيم كان هذا الشيء الحقير؟ ومع ذلك أكنا مجنونين في أيامنا الأولى؟ أتذكرين سعادة؟ أتذكرين رقينا إلى السماء؟ أكنا عاشقين! انظري! كذلك كان حبنا! إذن! نحن، نحن أنفسنا حين نقول: «أحبك» لا تدل هذه الكلمة على أكثر مما نرى الآن، يا الله! حقًّا إنَّ هذا مخجل، إذن فالناس جميعًا متشابهون، ونحن كغيرنا من الناس!

ما أشد المطر! لا تستطيعين أنْ تخرجي تحت هذا الجو، أقيمي! نعم أقيمي! سنجتهد في أنْ نعش، من يدري فقلبانا، وإن تغيرا سيستلذان حركاتنا المألوفة.

سنفعل ما نستطيع، سنكون أخيارًا، ثم مهما نَقُلْ فهناك العادة، اجلسي! استأنفي إلى جانبي شقائك، وسأستأنف إلى جانبك عزلتي.

لعلك قرأت فأعجبت بالشاعر، وسخطت على المترجم، وودت لو أني تكلفت الجد فترجمت ترجمة صحيحة مقبولة يسيغها الأسلوب العربي، وقد أفعل.

أكتوبر سنة ١٩٢٣

دينيز

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي ألكسندر دوما الصغير

أريد منذ اليوم أنْ أقف هذا الحديث على الأوبرا الملكية، وما يمثل فيها من آيات التمثيل، ويخيل إليَّ أنَّ الأوبرا الملكية خليقة بهذه العناية، فنحن لا نشهد آيات الفن كل يوم، ومن الحق إذا أتيح لنا أنْ نشهد هذه الآيات في بلادنا، يمثلها قوم مهرة بارعون أنْ نبتهج لذلك، ونشجع هؤلاء الممثلين، ونحمد لهم وللذين دعوهم إلى مصر نعمتهم على المشغوفين به المشوقين إليه، وقد يكون من الحق علينا أنْ نذيع أمر هذا التمثيل، وما فيه من منفعة ولذة؛ ليقصد إلى الأوبرا من استطاع أنْ يفهم اللغة الفرنسية، ويتذوق جمال الفن الفرنسي، فقد آن لنا ألا ننظر إلى التمثيل كأنه فن من فنون اللهو والسمر ليس غير، بل أنْ نسعى إليه — كما يسعى الإنسان إلى مدرسة — يجد فيها ما يشتهي من علم وفلسفة، ومن أدب وفن، ويجد فيها ما لا يوجد في المدارس عادة من لهو لا يصرف عن الجد، وفكاهة لا تلهي عن نفع.

ولقد كانت القصة التي مثلت في الأوبرا الملكية مساء يوم الاثنين جامعة لهذه الخلال كلها، فهي درس في الأخلاق والتاريخ، يمثل نظامًا اجتماعيًّا خاصًّا كان له سلطانه في عصر من العصور، ويمثل نظامًا اجتماعيًّا جديدًا كان الكاتب يود لو انبسط سلطانه على حياة الناس، ولا يخلو مع ذلك مما يلذ ويعجب، ويعين على إساغة الجد والانتفاع به.

«أندريه پاردان» شاب غنيٌّ، فقد أبويه منذ عشر سنين، له ثروة ضخمة، ولكنه لم يحسن تدبيرها، وإنما أخذ يعبث بها ويبددها تبديدًا حتى فسد أمره وأشرف على الفقر، وله أخت

فتاة في الدير اسمها «مارت» لا يستطيع أنْ يضمها إليه؛ لأنه لا يحسن تدبير أمورها، فيتركها في الدير عشر سنين ينتظر أنْ تتاح له فرصة تمكنه من أنْ يخرجها من الدير، ولكن هذه الفرصة لا تتاح له إلا بعد مشقة، وبعد أنْ تركت حياة الدير في أخته آثارًا قوية، فنزعت بها إلى شيء من التصوف، والميل إلى الرهبانية من جهة، وملأت نفسها سخطًا على الناس واتهامًا لهم من جهة أخرى.

صادف أخوها رجلًا من الشعب، عاملًا شديد النشاط، قوي الذكاء، عظيم الأمل في المستقبل، ولكنه فقير، واسمه «توفنان»، فأعانه بقليل من المال، وجدَّ هذا الرجل حتى أصبح من أكبر المشرفين على الصناعة المتصرفين في تدبير الثروة العامة، وبينما كان هذا الرجل يثري وتضخم ثروته، كان المحسن إليه يدنو من العدم قليلًا قليلًا، حتى فكر في أنْ يبيع الأرض الواسعة التي ورثها عن أبويه، فأشار عليه صاحبه أنْ يفرغ لتدبير ثروته واستغلال أرضه، وأنْ يلتمس له معينًا شريفًا، فبحث عن هذا المعين ودلته عليه صديقة اسمها «مدام دي توزيت»، وهي امرأة في السادسة والأربعين من عمرها، بارعة الجمال، فتانة المنطق، قد ابتسمت لها الحياة، وابتسمت هي للحياة؛ فهي لا تعرف إلى الحزن سبيلًا، قوية الجسم، محتفظة بشبابها، مزمعة أنْ تستمتع به ما استطاعت، لا تضيع لحظة منه في غير لذة، متزوجة ولكن جمالها وشبابها وكلفها باللذة حرمتها الوفاء لزوجها، فهي تنتقل من خليل إلى خليل، أو قل: إنها تستبدل خليلًا من خليل.

وكان صاحبنا رفيقًا لابنها في المدرسة، فلما رآها وهو غلامٌ حَدَثٌ لا علم له بالحياة فتن بها، ورأته هي فلم تكره حداثته وجهله فاتخذته خليلًا حينًا، ثم أعرضت عنه إلى غيره، فكان هذا الإعراض مصدر ألم الشاب ويأسه وتهالكه على الملهيات، حتى بلغ من سوء الحال ما قدمت، بحث إذن عن رجل شريف يدبر ثروته، فدلته صاحبته هذه على رجل كان صديقًا لزوجها الذي مات منذ حين واسمه «بريسو»، كان ضابطًا بالجيش، ولكنه أحب فتاة وأراد أنْ يتزوجها، وكانت فقيرة فاضطر إلى أنْ يترك الجيش؛ لأن القانون لا يبيح للضباط أنْ يتزوجوا من الفقيرات، ترك الجيش وعاش مع امرأته عيشة ضيقة مؤلمة، ورزق منها طفلة هي «دينيز» نشأت نشأة الفقيرات، ولكنها تعلمت، وكانت ذكية فانتفعت بعلمها، وأخذت تستعين به على الحياة، وكانت تستعد بنوع خاص للموسيقى والتمثيل، ولكنها صادفت في طريقها غلامًا كان يقاربها في السن، وهو «فرناند» ابن هذه المرأة التي وصفتها لك، فأتلف الصبيان وتحابا، وأزمعت الأسرتان أنْ تصلا بينهما بالزواج، فلما بلغا سن الزواج أثرى أبو الفتى، وظل أبو الفتاة فقيرًا، فانصرف الغلام

عن صاحبته، فأصابها من ذلك يأس كاد يبلغ بها الموت، وانقطعت الصلة بين الأسرتين حتى مات أبو الفتى، ودلت أمه صاحبها على أبي الفتاة فاتخذه مديرًا لأمره، وما هي إلا أشهر حتى أخذ الأمر يستقيم لهذا الشاب، فنقص دَيْنُهُ وزاد دخله، واطمأن إلى هذا المدير، فكلف زوجه أنْ تشرف على القصر، وأخرج أخته من الدير، وكلف دينيز أنْ تقوم على إرشادها.

فإذا كان الفصل الأول رأيت «أندريه پاردان» في قصره قد دعا إليه طائفة من أصحابه يقضون عنده أيامًا، فأقبل صديقه «توفنان»، وأقبلت صاحبته «مدام دي توزيت» وابنها فرناند، وأقبل جار له يزوره مع امرأته، وأقبلت «مدام بريسو» أم «دينيز»، وأزمع هؤلاء جميعًا أنْ يجتمعوا إلى العشاء إلى مائدة القصر، وترى في هذا الفصل اغتباط صاحب القصر بحسن حاله وانتظام ثروته، وإعجابه الذي لا حد له «بدينيز»، ثم ترى أنَّ صاحبته القديمة تدور حول أخته تريد أنْ تتخذها زوجًا لابنها، وأخذ هذا الفتى يمثل للفتاة فصل العاشق الولهان حتى فتنها فمالت إليه، وأخذ يكتب إليها رسائل الغرام فتقرؤها وترد عليها، وقد اعتزمت في هذا اليوم أنْ تخرج معه ومع أمه؛ للتروض على ظهور الخيل، فتقبل «دينيز» إلى أخيها فتنبئه بهذا، وتتحدث إليه بأن الفتاة متعبة مغضبة هذا اليوم، وبأن الخير ألا تخرج وحدها مع هذين الرفيقين؛ لأنها ليست ماهرة في الفروسية، وبأنها ستكلف أباها أنْ يرافقها في هذه النزهة، تنصح لصاحب القصر أنْ يتلطف بأخته ويكسب ثقتها؛ لأنها توشك أنْ تتورط فيما لا يليق بها ولا به، وتخرج «دينيز» وإذا «مدام دي توزيت» قد أقبلت في زيِّ الفارس، تريد أنْ تتحدث إلى صاحبها في أمر ذي بال، فيذكران حبهما القديم في غير ألم ولا لوعة، ثم تخطب المرأة إلى صاحبها أخته لتكون زوجًا لابنها، وكانت تقدر أنَّ ذكرى الماضي وإحياء الأمل في المستقبل يكفلان رضاه، وكانت تقول له فيما تقول: إذا تم هذا الزواج استطعت أنْ أعيش معك في القصر، دون أنْ يرى الناس في ذلك شيئًا، حتى إذا كان ما لا بد منه، فاتخذت لك زوجًا لزمت غرفتي، ووقفت شيخوختي الباسمة على تربية أبنائك وأبناء ابني، فكنت جدة جميلة خفيفة الظل — كما أنا الآن رفيقة حلوة لذيذة المحضر — ولكنه رفض الخطبة؛ لأن ابنها لا يليق بأخته، رفض الخطبة وانتهى الحديث بهما إلى «دينيز»، فظهر أنَّ إعجابه بها مصدره حبه لها، ولم تكد تشعر المرأة بهذا الحب حتى اضطربت في نفسها نار الغيرة فاتهمته بإغوائها، وزعمت له أنه ليس أول من أغواها، وانصرفت وقد تركت في نفسه من الغيرة جرحًا داميًا، لا يشفيه إلا أنْ يستكشف من أمر «دينيز» كل ما خفي عليه.

فإذا كان الفصل الثاني رأيته يسأل «بريسو» عن ماضيه وماضي ابنته، وما كان بينها وبين فرناند من صلة، فينبئه الرجل بما قدمت لك في صراحة وهدوء، فإذا أنبأه بأن قد كان بين الغلامين حب، عظم الشك في نفسه، حتى بلغ اليأس أو كاد، فاعتزم السفر لينسى.

وتراه يتحدث إلى صديقه «توفنان» فينبئه نبأه، ويعرب له عن شكه، أما صديقه فينصح له أنْ يعلن إلى الفتاة حبه، ويطلب إليها أنْ تكون له زوجًا، فإنها إنْ تكن طاهرة السيرة نقية الماضي قبلت في غير تردد وإلا فسترفض؛ لأنه يثق بأنها أشرف وأنبل من أنْ تخدعه عن نفسها، ولكن صاحب القصر لا يزداد إلا شكًّا، ولا يزيده الشك إلا اهتياجًا، فإذا هو مضطرب، وإذا هو نار تتلظى، وإذا هو يصيح بلعن المرأة واستنزال السخط عليها، وإذا هو يعلن في يأس ساخر أنه لا يستطيع أنْ يطمئن إلى شيء، أليس من أشد الأشياء نكرًا أنْ تنظر إلى هذا الرأس الجميل الذي تعبده، وأنت تعلم أنَّ فيه سرًّا مكنونًا، ولكنك مهما تفعل فلن تتبين من هذا السرِّ شيئًا، ولقد يملكك حب الاستطلاع فتحطم هذا الرأس تحطيمًا، تريد أنْ تظفر بما فيه، فلا تظفر إلا بعظم وعصب ودم!

أريد أنْ أعرف الحقيقة، ويجب أنْ أعرفها وسأعرفها، ولكن صاحبه يلح عليه في ألا يسلك إلى هذه الحقيقة إلا هذه الطريق التي وصفها له، طريق إعلان الحب وعرض الزواج، حتى لا تتعرض حياة الفتاة للافتضاح، فيكون مصدر الشقاء لقوم لا يستحقون الشقاء.

ثم تدخل أخته، فلا يكاد يتحدث إليها حتى يشعر بأنها ساخطة عليه وعلى «دينيز»، وبأنها تكره الحياة معهما، وبأنها تحب «فرناند» وتريد أنْ تتزوجه مهما يكن رأي أخيها، فيغضب أخوها وينبئها بأنها عائدة إلى الدير، فمقيمة فيه حتى تبلغ الرشد، ويومئذ تستطيع أنْ تقترن بمن تشاء، يتركها وتدخل «دينيز» فلا تكاد توجه إليها القول حتى تشعر منها بالسخط ثم بالإهانة، وحتى تسمع منها أنها لن تقيم في هذا القصر؛ لأنها تكره أنْ تخضع لهذه المراقبة الدنيئة وهذا التجسس المرذول، ألستِ كلفتِ أباكِ أنْ يراقبنا في النزهة ليكون عليَّ رقيبًا؟ بلى! لأني أرى ذلك محتومًا، ولا آمن عليك هذا الشاب الذي أعرف سوء سيرته مع الفتيات، والذي يعرضك للشقاء، والذي يجب عليَّ أنْ أحميك من شره، وسأحميك رضيت أو كرهت.

ثم تتركها ويقبل «فرناند»، فيسألها عن كتاب كتبه إليها، أقرأته؟ ويتحدثان في أمرهما، فتنبئه برفض أخيها وإصرارها هي، وما كان من عزمها على العودة إلى الدير، ثم

تسأله عن شيء فتحس منه ميلًا إلى الكذب، فتنذره بأنها لا تكره شيئًا كما تكره الكذب، وبأنها إنْ أخذته بكذبة فستقطع بينها وبينه كل صلة حتى لو كانت زوجه.

فإذا كان الفصل الثالث رأيت «مدام بريسو» أم «دينيز» وقد دخلت عليها «مدام توزيت»، فأنبأتها بأنها إنْ تكن سعيدة اليوم فتظفر غدًا بسعادة لا حد لها، فتجزع المرأة لهذا النبأ؛ لأنها سيئة الظن بالأيام وبالناس، وبهذه المرأة بنوع خاص، وتستنبئ صاحبتها فتنبئها بأن صاحب القصر يحب ابنتها، ويريد أنْ يتخذها له زوجًا، فلا تزداد لذلك إلا جزعًا حتى يأخذها شيء من الدوار، وتشعر أنت بأنها تشفق من أمر عظيم، ولكن «مدام دي توزيت» تلاطفها وتزين لها أمر هذا الزواج؛ لأن فيه سعادة كثيرين، فيه سعادة «دينيز» التي ستصبح «كونتس»، وقد كانت بائسة، وفيه سعادة «مارت» أخته التي تحب «فرناند»، وتريد أنْ تقترن به، ولن تظفر بذلك إلا إذا أشارت به «دينيز» على صاحب القصر؛ لأنه لا يرى إلا بعينيها، تتحدث إليها بهذا كله فلا تزداد إلا وجلًا وإشفاقًا، كأنها تعلم شيئًا تخشاه.

ثم يقبل صاحب القصر فتتلقاه «مدام دي توزيت»، وقد تكلفت الحزن والغضب وتستأذنه في الانصراف والعودة إلى باريس، ولكنهما يتحدثان، فيسألها عما تعلم من أمر «دينيز»، فتقسم له أنها لا تعلم من أمرها شيئًا، وأنها إنما اتهمتها غيرة وحسدًا، ويظهر هذا كله معقولًا لصاحب القصر فيطمئن إليه، ويقبل «فرناند» مستأذنًا في السفر، فإذا كل شيء قد تغير، وإذا صاحب القصر يلح عليه في البقاء، ويقبله زوجًا لأخته، ولكنه يستحلفه بالشرف أنْ ينبئه، أكان خليلًا «لدينيز»؟ فيجيبه: كلا! ويقسم على ذلك، فإذا هم جميعًا سعداء، أليس يستطيع أنْ يقترن «بدينيز»! أليس الآخر يستطيع أنْ يقترن «بمارت»! أليس الأمر قد انتهى إلى ما كانوا يحبون جميعًا؟

يخطب صاحب القصر الفتاة إلى أبويها، فيتردد الأب ثم يرضى، أما الأم فسعيدة ولكنها جزعة، وهي تشير بأن يتحدث صاحب القصر إلى بنتها، فإذا خلا صاحب القصر إلى «دينيز» أنبأها بحبه إياها، وأنبأته بحبها إياه، ثم يطلب إليها أنْ تكون زوجه فتجيب: كلا!

– لماذا؟

– لأني من اللاتي يحببن دون أن يكنَّ للزواج أهلًا، ثم تنبئه بأنها مسافرة غدًا بعد أنْ تعود أخته إلى الدير.

– ولكن أختي لن تعود إلى الدير، فقد رضيت أنْ تقترن «بفرناند».

فإذا سمعت ذلك جرعت له جزعًا شديدًا، وأنبأته بأنها كانت خليلة لهذا الشاب، خدعها عن نفسها فرزقت منه طفلًا، ثم أعرض عنها أثناء الحمل وبعد الميلاد، ومات هذا الطفل، وجهل أبوها الأمر كله، فلا ينبغي أنْ يكون هذا الشاب مصدر شقاء لفتاة بريئة «كمارت»، إنه لا يريد أنْ يتزوجها، وإنما يريد أنْ يتزوج ثروتها!

الموقف هنا مؤلم جدًّا، فليس من اليسير أنْ تملك نفسك أمام جزع هذه الفتاة، وهي تفضح أمرها لمن أحبها وأحبته، وأمام صاحب القصر يبكي رحمة لها وحزنًا على حبه! ولكن أبا الفتاة قد سمع الحديث فأقبل، وقد جن جنونه فطرد الفتاة طردًا عنيفًا، وأعلن إلى صاحب القصر أنه مرتحل لساعته؛ ليطهر هذا القصر من هذه الأسرة الدنسة، ثم يرتب أوراقه، وهو في ذلك إذ يقبل «فرناند»، فلا يكاد يراه حتى يهجم عليه يريد أنْ يقتله، ثم يتردد أمام الجريمة فيرسله قائلًا: اذهب إلى أمك، فأنبئها بأني انتظرها هنا؛ لتخطب إليَّ ابنتي على أنْ تكون زوجًا لك، فإذا لم تتم هذه الخطبة في ساعة فأنا قاتلك!

فإذا كان الفصل الرابع رأيت الأبوين محزونين يتحدثان، أما الأم فمكلومة مستسلمة، وكأنها مرتاحة إلى هذه النكبة التي أباحت سرها لزوجها، وأخفتها من الحذر والكتمان، وأما الأب فمحزون، ولكن ثورته لم تهدأ بعد، فهو يلعن ابنته، وينكر إخفاء الأمر عليه، وزوجه تستعطفه وتترضاه دون أنْ تجد إلى العطف في قلبه سبيلًا، وهي تكره أنْ تقترن ابنتها بهذا الفتى، والفتاة تكره ذلك، ولكن الرجل يلح فيه مهما يكن شرًّا، لقد اشتركا في الإثم فيجب أنْ يحتملاه معًا.

تقبل أم الفتى، فتخطب الفتاة إلى أبيها أمام صاحب القصر وصديقه توفنان، ويقبل الأب وتقبل الفتاة، ويستعد هؤلاء للسفر إلى باريس، ويخلو الصديقان، فإذا صاحب القصر محزون ولكنه مطمئن؛ لأنه عرف ما كان يبحث عنه، أما صاحبه فيشبعه لومًا وتأنيبًا؛ لأنه جنى هذه الجناية المنكرة على هذه الفتاة التي يحبها وتحبه، والتي ضحت بشرفها وكرامتها في سبيله وفي سبيل أخته، ثم من الملوم في هذا كله؟ أنت؛ لأنك عشقت أم الفتى فعرفت أختك وحببت إليها ابنها، وهي التي دلتك على هؤلاء الناس جميعًا فاستخدمتهم، ولولا هذا العشق القديم وهذا الحب الجديد، وما نشأ عنهما من الغيرة لما نال هذه الأسرة ما هي فيه الآن من شقاء، وليس لك أنْ تسخط على الفتى؛ لأنك سألته أمرًا فأخفاه عليك، فمثل هذا السر لا يباح، أتستطيع أنت أنْ تنبئه بأنك كنت خليل أمه لو

سألك؟ ولم لا تقترن بالفتاة؟ ألم تعترف لك بخطيئتها! ألم ترَ جزعها لهذه الخطيئة! ألم تبك معها على هذه الخطيئة! ألم تغسل دموعكما آثارها! أنت تحبها ولن تتعزى عنها، وأنت الآن تتركها لما ينتظرها من شقاء، فاحذر عاقبة هذا الجبن، وهذه القسوة فقد تندم حين لا ينفع الندم.

وتقبل أخته، فإذا عرفت كل ما كان أخذها ندم شديد لما قدمت من الإساءة إلى «دينيز»، فدعتها وأخذت تضمها إليها وتسألها عفوها ومغفرتها، لقد خانك هذا الفتى وخانني أيضًا، فكانت خيانته دليلًا على أنا لا نصلح للزواج، أحببنا هذا الفتى الخائن، فلنبرأ من حبه، ولنقدم حبنا إلى من لا يخون، لنذهب معًا إلى الدير، ثم تنطلقان فلا تكادان تبلغان الباب حتى يصيح صاحب القصر: «دينيز» لا أستطيع! وإذا هي بين ذراعيه، وإذا أخته فرحة مبتهجة تفكر في العشاء ومن دعوا إليه، فإذا سئلت عن الدير أجابت بعد أنْ تتزوج «دينيز».

والآن وقد لخصت لك هذه القصة لا أجد بدًّا من أنْ ألاحظ أنها لذيذة ممتعة إذا قرأتها، ولكنك لا تكاد تشهدها في ملعب التمثيل حتى يأخذك شيء من الدهش، ولا أريد أنْ أقول من خيبة الأمل، فقد يكون اللفظ أشد مما ينبغي.

بعُد العهد بهذه القصة؛ فقد مثلت في آخر القرن الماضي، وما أسرع ما تطورت أخلاق الناس وعاداتهم وأوضاعهم الاجتماعية منذ ثلاثين سنة، ولا سيما في فرنسا، ولا سيما بعد الحرب!

ولهذا تشعر في كثير من المواقف بأنك تشهد شيئًا ليس بينك وبينه صلة، وهو إلى التاريخ أقرب منه إلى تمثيل الحياة التي تحياها.

أضف إلى هذا شيئًا آخر ليس أقل منه خطرًا، وهو أنَّ الكاتب يطيل في حواره حتى إنك لتنسى في كثير من المواقف أنك تسمع ممثلًا، ولتشك في أنك تسمع خطيبًا، ولقد يتكلم الممثل ربع ساعة أو نحو ذلك أو أكثر من دون أنْ ينقطع عن الكلام، أو يسمع جوابًا من محاوره.

فإذا اجتمع هذان الأمران في قصة كالتي مثلت مساء الاثنين لم تجد بدًّا من أنْ تعذر الممثلين يمثلون آيات الفن الحديث، وآيات التمثيل في القرن السابع عشر.

بل أنا أعترف بأني كنت أعجب بمسيو ألبير لامبير إعجابًا لا حدَّ له، ولكن يشوبه شيء من الرفق به والإشفاق عليه، فقد كلف نفسه عناء كثيرًا في تمثيل المواقف التي وقفها أندريه ياردان، واستطاع أنْ يخلب الجمهور غير مرة.

وكان المسيو شارل جرفال بارعًا في تمثيل فرناند، وأحسبه أمهر الممثلين بعد مسيو ألبير لامبير في هذه القصة.

وهل أسمح لنفسي بأن ألاحظ أني لم أجد ما كنت أنتظر من الآنسة «دي لوك» التي كانت تمثل «دينيز»، فربما نقصها في هذا الموقف شيء من الشباب.

ولست أدري كيف أثني على السيدة سوزان فرنيل، فهي الوحيدة التي أنستني أنها ممثلة، ووقفت موقف الأم الرفيقة المحزونة، والزوج الشفيقة المؤاسية حقًّا.

وكانت السيدة «مارت مارسان» خلابة في تمثيلها «مدام دي توزيت»، فكنت تراها تنتقل في سهولة ويسر من التمثيل الصحيح المتقن للخليلة الفتانة إلى التمثيل الصحيح المتقن للأم، التي لا تحيا إلا ليكون ابنها سعيدًا.

وقد أظهرت السيدة «بلانش جاكسون» مقدرة غريبة في موقف «مارت پاردان»، ولا سيما في الفصل الثاني حين كانت تعاتب أخاها، وتهين «دينيز»، وتتحدث في الحب إلى «فرناند».

ومهما يكن من شيء فإني إنْ أوجه نقدًا فإنما أوجهه إلى لجنة البرنامج لا إلى الممثلين؛ فقد كان من الميسور أنْ تختار لنا قصصًا غير هذه القصص التي إنْ تكن ممتعة قيمة، فقد لا تعطينا من التمثيل الفرنسي العصري صورة صحيحة، وقد تحول بيننا وبين الاستمتاع ببراعة الممثلين كلهم أو بعضهم على أقل تقدير.

نوفمبر سنة ١٩٢٣

روي بلاس

قصة تمثيلية شعرية «لڤكتور هوجو»

كانت لذيذة قيمة تلك الساعات التي قضيناها مساء الاثنين في الأوبرا الملكية، نسمع أمهر الممثلين الفرنسيين ينشدون، ويمثلون شعر أنبغ الشعراء الفرنسيين، كانت تلك الساعات لذيذة ممتعة، وربما استطعت أنْ أقول: إنها كانت ساحرة، تستهوي اللبَّ، وتخلب العقل، وتنسي النظارة أنهم في ملعب من ملاعب التمثيل، يسمعون قومًا يلقون الشعر، أو يرون قومًا يذهبون ويجيئون ويختصمون ويتفقون، تنسيهم هذا كله، ويخيل إليهم أنهم في عالم آخر ليس من الميسور وصفه أو تحديده، وإنما أستطيع أنْ أقول: إنه عالم كله تأثر، كله ألم ولذة يكادان يتجردان من الحياة المادية، وليس في ذلك شيء من العجب، فقد كان «ألبير لمبير» يفسر «ڤكتور هوجو».

كانت لذيذة قيمة تلك الساعات، والغريب من أمرها أنها لم تكن تلذك لفكرة فلسفية، أو نظرية من نظريات العلم، أو قضية من قضايا الاجتماع، وإنما كانت للفن وحده، كانت تلذك؛ لأن الممثل نابغة في التمثيل، ولأن الشاعر نابغة في الشعر، ولأن الشاعر قد استطاع بقوته التي تشبه قوة المردة أنْ ينتزعك من هذا العالم انتزاعًا، وأنْ يصعد بك في سماء من الجمال الفنِّيِّ، لا تجد فيها إلا بهجة واستبشارًا، وإلا نعمة واغتباطًا مهما تكن البيئة التي يمر بك فيها الشاعر، ومهما يختلف على نفسك من لذة وألم ومن أمل ويأس، واستطاع الممثل أنْ ينفخ في هذا الشعر القوي الحي روحًا آخر قويًّا حيًّا منحه من القوة والحياة حظًّا ليس إلى وصفه من سبيل.

قلت: إنَّ هذه القصة لا تستهويك لفكرة فلسفية أو نظرية من نظريات العلم، وآية ذلك أنك تقرأ القصة من أولها إلى آخرها فيبهرك جمالها الفني، وجمالها الفني وحده، وتشهد هذه القصة في ملعب التمثيل، فيبهرك نبوغ الشاعر ومهارة الممثل، ولا تكاد تفكر في شيء غير هذا، ومع ذلك فإن «ڤكتور هوجو» كان يعتقد — حين وضع هذه القصة — أنها قصة فلسفية تاريخية، وأنه لم يقصد بها إلى الفن وحده، وإنما قصد بها إلى الفن وإلى العلم، قصد بها إلى أنْ يرضي العقل، وإلى أنْ يرضي الشعور، ماذا أقول؟! بل قصد بها أنْ يرضي الحس أيضًا، وأستميحك المعذرة في أنْ أتحدث إليك في هذا الفصل عن «ڤكتور هوجو» أكثر مما أتحدث إليك عن القصة نفسها، فسترى أنَّ الحديث عن القصة ليس بالأمر اليسير، وأني مهما أبذل من جهد وأنفق من قوة، فلن أظهر على شيء من جمالها الفني، وأين السبيل إلى ترجمة الشعر، ولا سيما شعر «ڤيكتور هوجو»! وإلى إعطاء صورة صادقة من التمثيل المتقن، ولا سيما تمثيل «ألبير لمبير».

أريد إذن أنْ أتحدث إليك عن ڤكتور هوجو، فقد وضع ڤيكتور هوجو لهذه القصة مقدمة لا تخلو من لذة، بل لا تخلو من شيء يحمل المؤرخ الحديث على الابتسام.

«ڤكتور هوجو» يرى أنَّ النظارة منقسمون بطبيعتهم إلى طبقات ثلاث، تختلف أغراضها حين تذهب إلى دار التمثيل اختلافًا شديدًا:

الطبقة الأولى: النساء، وهن حين يذهبن إلى دار التمثيل إنما يردن إرضاء العاطفة والشعور، يردن أنْ يجدن من اختلاف الأهواء وتنازعها، ومن جهاد الشهوات واصطدامها ما يؤثر في شعورهن؛ لأنهن إنما يحيين بالشعور.

الطبقة الثانية: طبقة المفكرين، وهؤلاء يريدون حين يذهبون إلى دار التمثيل أنْ يروا في الملعب خلالًا تستحق أنْ تدرس، وأنْ يفكر فيها الباحث، وأنْ يجد من درسها والتفكير فيها علمًا جديدًا يدله على شيء جديد.

الطبقة الثالثة: طبقة الجمهور أو الطبقة العامة، هؤلاء يذهبون إلى دار التمثيل؛ لأنهم يريدون أنْ يروا حركة تمثيلية تستهوي أعينهم، وتخلب حسهم، وتتيح لهم ما هم في حاجة إليه من اللهو.

النساء إذن يريدن أنْ يتأثرن، والمفكرون يريدون أنْ يتعلموا، والجمهور أو العامة يريدون أنْ يلهوا، ولقد يشعر ڤكتور هوجو بأن في هذا التقسيم شيئًا من الغلوِّ، فيعتذر ويعترف بأن تقسيمه غير دقيق، وبأن من الممكن بل من الحق الواقع أنْ تطلب المرأة شيئًا

غير التأثر فتطمع في اللهو وفي لذة العقل، وأنْ يطلب المفكر شيئًا غير التعلم، فيطمح إلى التأثر واهتزاز العاطفة، وأنْ يكون في جمهور النظارة من يجمع بين هذه الخلال جميعًا، فيلهو ويتأثر ويفكر، ويعترف بهذا، ولكنه يلح في أنَّ هذه الخصال الثلاث هي الخصال التي لا بد من أنْ تشتمل عليها قصة تمثيلية متقنة، وهذه القصة التي تشتمل على هذه الخصال كلها، هي عنده المثل الأعلى في التمثيل، هي خير من «التراجيديا»؛ لأن التراجيديا تؤثر في الشعور وحده، ولهذا يحبها النساء، وهي خير من «الكوميديا»؛ لأن الكوميديا تلذ العقل وحده، ولهذا يحبها المفكرون، وهي خير من قصص الهزل والحركة؛ لأن هذه القصص تعجب الحس وحده، ولهذا يكلف بها عامة الناس.

هذه القصة التي يكلف بها ڤكتور هوجو تجمع بين هذين النوعين العظيمين من أنواع التمثيل، أو قل بين هذه الأنواع الثلاثة التي تقدمت الإشارة إليها، ويقول: إن «كورنييل» زعيم التراجيديا و«موليير» زعيم الكوميديا يستطيعان أنْ يعيشا مستقلين، وألا يلتقيا أبدًا لولا أنَّ «شكسبير» يستطيع أنْ يمسك أحدهما بيسراه والآخر بيمناه، وأنْ يجمع بين فنيهما جميعًا، فتكون قصته تراجيديا وكوميديا معًا.

على هذا النحو تصور ڤكتور هوجو القصة التمثيلية، وعلى هذا النحو أنشأها، فسترى في هذه القصة التي نحن بإزائها ما يؤثر في الشعور، وما يلذ العقل، وما يلهي؛ أي إنك سترى فيها ما يرضي الطبقات الثلاث التي تؤلف النظارة في ملعب من ملاعب التمثيل، فإذا سألت ڤيكتور هوجو عن موضوع هذه القصة أو عن الفكرة التي صدرت عنها هذه القصة، أجابك بأن هذا الموضوع يختلف باختلاف الناحية التي تنظر منها إلى القصة، فقد تستطيع أنْ تنظر إليها من الناحية الإنسانية العامة، وقد تستطيع أنْ تنظر إليها من الناحية الأدبية الخالصة، فإذا نظرت إليها من ناحية فلسفة التاريخ فموضوعها عظيم الخطر جدًّا؛ لأنه يمثل لك حال الدولة الملكية العظمى قد أشرفت على الانحلال، ثم يعرض عليك صورة جميلة مؤثرة لهذا الانحلال، لا عيب فيها إلا أنَّ ڤيكتور هوجو قد أسرف في تعميمها واتخذها قاعدة، وربما تكون هذه الصورة صحيحة في إسبانيا، وربما تكون صحيحة في بعض الدول الملكية، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أنها لا تصلح قاعدة من قواعد التاريخ، ولا أصلًا من أصول الفلسفة الاجتماعية، ولكن لا تنس أنَّ ڤكتور هوجو كان يكتب هذه القصة ومقدمتها في أوائل الثلث الثاني للقرن الماضي؛ أي في العصر الذي أخذت تظهر فيه فلسفة التاريخ ظهورًا قويًّا وتبسط سلطانها على كل شيء، وتزعم أنها قادرة على أنْ تفسر الحياة الإنسانية على اختلاف صورها وأشكالها.

أفْلستْ فلسفة التاريخ في أواخر القرن الماضي.

فليس عجيبًا أنْ نبتسم نحن مع شيء من العطف لهذه القواعد العامة، التي كان يضعها ڤكتور هوجو متأثرًا بهؤلاء الفلاسفة المؤرخين، الذين كانوا يعاصرونه ويتسلطون على عقول المفكرين، وليس عجيبًا أنْ ينظر المفكرون، ولا سيما الشبان منهم في عصر ڤكتور هوجو إلى هذه القواعد نظرة المعجب المفتون، الذي كان قويَّ الإيمان بفلسفة «أوجست كومت» و«سان سيمون»، وغيرهما من الذين كانوا يريدون أنْ يفسدوا الحياة الاجتماعية الماضية، ويضعوا أساس الحياة الاجتماعية المقبلة.

يظهر أنَّ الدولة إذا أشرفت على الانحلال، ظهر الفساد ظهورًا قويًّا في أشرافها؛ لأن الدولة إذا مرضت فمرضها في الرأس، والأشراف رأس الدولة، ولهذا الفساد مظهران: أحدهما الأثرة والإسراف في حب المنفعة والتهالك عليها والتضحية بكل شيء في سبيلها، والآخر الازدراء والسخرية والتهالك على اللذة دون تضحية للشرف والكرامة، ويقول ڤيكتور هوجو: إنَّ الأشراف ينقسمون أيام فساد الدولة قسمين: قسم شعر بالضعف واستيقن السقوط، فهو ينتهز الفرصة، ويريد أنْ ينتفع ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وإذن فأموال الدولة ومرافقها نهب لمنافعه يسخرها كما يحب، وقسم شعر بهذا الضعف، واستيقن الانحلال أيضًا، ولكنه شريف نقي، فيعتزل الأعمال ويفرغ للذاته وأهوائه يستمتع منها بما استطاع أنْ يستمتع به قبل أنْ تنزل النازلة.

فأما القسم الأول فهو قسم الدس والكيد والاختلاس والإفساد، وأما القسم الثاني فهو قسم اللهو واللذة والإسراف، لا يزال بما لديه من المال يتلفه ويبدده حتى يعدم، فينحط من منزلته العليا إلى حيث يعايش عامة الناس، كان في القمة فأصبح في الحضيض، لا يحتفظ من ماضيه — كما يقول ڤكتور هوجو — إلا بشرفه، واسمه الذي يخفيه، وسيفه الذي يظهره، وهو يرى القسم الآخر من أقربائه وذوي عمومته مستأثرًا بالعزة والشرف منتفعًا بالمناصب وثروة الدولة، فلا يدفعه ذلك إلا إلى الازدراء والسخرية، وكذلك كانت الحال في إسبانيا آخر القرن السابع عشر وهو العصر الذي تمثله قصة «ري بلاس».

وقد يكون هذا صحيحًا من بعض الوجوه، ولكني لا أشك في أنَّ الشاعر العظيم لا يصور لنا في هذا الفصل إلا صورة خيالية، هي التي ملكت عليه أمره، فحملته على إنشاء هذه القصة، فسترى أنَّ لهذه القصة بطلين من أسرة واحدة، كلاهما شريف، ولكن أحدهما قد فقد شرفه الخلقي، وضحى بكل شيء في سبيل منفعته، فهو يدس ويكيد ويأتمر، والآخر قد فقد مظهر شرفه المادي، فهو فقير مشرَّد يعاشر اللصوص والمجرمين، ولكنه محتفظ بخلقه ومروءته، فهو لا يؤثر نفسه، وإنما يؤثر عليها.

إلى جانب هؤلاء الأشراف — الذين أخذوا يضعفون وينحلون — توجد قوة أخرى عظيمة عنيفة تملؤها الصحة، ذاقت من الذل ألونًا ولكنها ينعشها الأمل، فهي تطمع في المستقبل وتطمح إلى الرقي، وهذه القوة هي الشعب، يقوى ويشتد أَيْدُهُ في حين يضعف سادته وينحلون، فأنت ترى من هذا نفسه أنك في عصر الثورة الفرنسية، وأنَّ الذي يتحدث إليك هو ابن من أبناء هذه الثورة، متأثر بالديمقراطية، قد آمن بها إيمانًا شديدًا، واجتهد في أنْ يوفق بين إيمانه وبين عقله، وفي أنْ يصطنع مذهب الفلاسفة المعاصرين له الذين كانوا يتحدثون دائمًا عن عصر مضى هو عصر الأرستقراطية، وعصر مقبل هو عصر الشعب!

وما أيسر ما خيل إلى الشاعر أنه يمثل في قصته إلى جانب هؤلاء الأشراف المنحلين قوة الشعب ناهضة مصعدة في السماء، في حين يهوي الأشراف إلى الأرض، ذلك أنك سترى في هذه القصة بطلًا باسمه سميت القصة، كان خادمًا، فسما إلى ما لا يسمو إليه الخادم، ومثل بذلك طموح الشعب إلى الرقي والفوز.

ثم هناك غير بعيد من هاتين القوتين المتناهضتين قوة أخرى هادئة باسمة كلها رحمة ورفق، وكلها عطف وإحسان، وكلها حب وجمال، يكيد لها أولئك ويطمح إليها هؤلاء، يأتمر بها الأشراف ويسمو إليها الشعب، هذه القوة التي تمثل الفضيلة، والتي تمثل المثل الأعلى للحياة الإنسانية الصالحة، هي السلطان ممثلًا في شخص الملكة، فسترى في هذه القصة بطلة هي ملكة إسبانيا الوديعة الرءوم البائسة، يأتمر بها الأشراف، ويكلف بها ممثل الشعب.

فأنت ترى أنَّ لهذه القصة موضوعًا فلسفيًّا تاريخيًّا عميقًا، ولكني أعترف لك بأنك لا تحس هذا الموضوع، ولا تتأثر به إلا حين تقرأ مقدمة الشاعر، فإذا قرأت القصة أو شهدتها في دار التمثيل لم تفكر في شيء من هذا إلا في موقف واحد، يضطرك الشاعر إلى أنْ تفكر فيه؛ لأنه يتحدث إليك في عنف وقوة عن انحطاط إسبانيا وإشرافها على الفناء، ولولا هذا لما فكرت إلا في أن شريفًا يأتمر، وشريفًا آخر يلهو، وفتى من أبناء الشعب يحب الملكة.

فإذا نظرت إلى هذه القصة من الناحية الإنسانية الخالصة رأيت لها موضوعًا آخر أرقى من موضوعها الأول؛ لأن أحد أبطالها وهو هذا الشريف المؤتمر، يمثل الأثرة العنيفة التي لا تحفل بشيء، والآخر وهو هذا الشريف الساخر اللاهي، يمثل الإيثار والانصراف عن المنفعة، والثالث يمثل النبوغ الذي أخذت ناره تصعد في الجو دون أنْ تحفل بمقاومة، وهو هذا الفتى الذي يمثل الشعب، أما البطل الرابع فيمثل الفضيلة مهضومة وهي الملكة.

فإذا نظرت إلى القصة من الوجهة الأدبية الخالصة رأيت مظهرًا آخر، واجتمعت لك فيها صور التمثيل الثلاث، فرأيت الشريف المؤتمر يمثل «الدرامة»، وهو هذا النوع من التمثيل الذي لا يخلص للكوميديا ولا للتراجيديا، وإنما يؤلف بينهما، ورأيت الشريف الساخر يمثل الكوميديا، ورأيت ابن الشعب يمثل التراجيديا، وكانت هذه القصة مجتمعًا صادقًا لصور التمثيل.

أترى أنَّ موضوع القصة وقيمتها يختلفان باختلاف الناحية التي تنظر منها إلى هذه القصة، ولهذا يمثل ڤكتور هوجو الفكرة بالجبل الشامخ يختلف منظره باختلاف المكان الذي تطلع عليه منه، ثم يرى أنَّ في هذه القصة أشياءَ كثيرة وأغرضًا متباينة، وأنَّ لكل فرد أو فردين من النظارة أنْ يأخذ من هذه الأشياء والأغراض ما أراد، ثم يعترف بحقيقة لا شك فيها؛ لأنها تخلو من كل فلسفة أو محاولة للفلسفة، وهي أنَّ الذي يعني جمهور النظارة من هذه القصة بنوع خاص، إنما هو هذا الخادم الذي يحب الملكة، ويلقى في حبها ما يلقى من أسى.

هناك شيء في هذه المقدمة لا يخلو — كما قلت — من لذة، ولا مما يبعث على الابتسام، وهو تأثر ڤكتور هوجو بطائفة من المصادفات، أو قل بطائفة من الحوادث خليقة أنْ تؤثر في نفس العامة فتبعث فيها العجب، وخليقة أنْ تؤثر في نفس الشاعر فتخرج منها الشعر، فقد ولد «شارل كان» سنة ١٥٠٠، ومات شارل الثاني آخر سلالته سنة ١٧٠٠، ثم ورث لويس الرابع عشر «شارل كان» سنة ١٧٠٠، وورث نابليون لويس الرابع عشر سنة ١٨٠٠، فوقوع هذه الحوادث في هذه السنين التي تفتتح العصور شيء من شأنه أنْ يبهر العامة، كما أنَّ من شأنه أنْ يبهر الشعراء، ويظهر أنه بهر ڤكتور هوجو، فحمله على أنْ يفكر في أمر هذه المملكة الإسبانية العظيمة، فوصل إلى هذه الصيغة البديعة، وهي أنَّ شمس هذه الأسرة النمساوية التي ملكت إسبانيا قد أشرقت سنة ١٥٠٠، وغربت ١٧٠٠، وكان من نتائج هذا التفكير في إسبانيا وملوكها وأشرافها آيتان من آيات الفن، الأولى هرناني تمثل فجر العظمة الإسبانية، والأخرى «ري بلاس» تمثيل أصيل هذه العظمة.

وأظن أنه قد حان لي أنْ ألخص لك هذه القصة، ولن يكون تلخيصها طويلًا، فقد قلت: إني مهما أفعل فلن أظهرك من جمالها على قليل أو كثير.

إذا كان الفصل الأول رأيت دون سالوست — وهو رجل شريف من عظماء الدولة وذوي المكانة الممتازة في القصر — مغضبًا محنقًا؛ لأن الملكة قد غضبت عليه، فكُلِّف أنْ يغادر

القصر والعاصمة، وأنْ يعود إلى أرضه، وهو يريد أنْ ينتقم لنفسه، ويبحث عن وسيلة لهذا الانتقام، فيدخل عليه ابن عم له هو دون سيزار، كان غنيًّا فأعدم لكثرة ما عكف على اللهو ثم استخفى، فتحدث الناس عنه الأحاديث، فمنهم من زعم أنه ارتحل، ولكنه ما زال في مدريد مستخفيًا يعاشر المشردين واللصوص، فإذا دخل على ابن عمه أخذ هذا يلومه ويذكر سيئاته، فيدفع عن نفسه ضاحكًا معترفًا بآثامه مفاخرًا بها ساخرًا من كل شيء، لا يشكو إلا الفقر وكثرة الدَّيْن، فيعده ابن عمه بالمعونة وأداء دينه، بل يعد بأكثر من هذا بأن يجعله عظيمًا، ولكنه يشترط لذلك شروطًا لا يكاد يعلمها صاحبه حتى يرفضها رفضًا عنيفًا ملؤه النذير؛ لأنه يحس منها الائتمار بامرأة، فتأبى نفسه هذا، ويؤثر حياة الإجرام والفجور على الكيد لامرأة ضعيفة مهما يكن مكانها.

ولكن ابن عمه لم يتحدث إليه في هذا كله إلا ضاحكًا متنكرًا، فما أسرع ما يقنعه بأنه كان يعبث، ثم يتركه ليأتي له بشيء من المال، وبينما هذا الشريف المعدم ينتظر ابن عمه إذ يدخل عليه «ري بلاس»، وهو خادم دون سالوست، فلا يتراءى الرجلان حتى يتعارفا؛ لأنهما كانا رفيقي بؤس، ويقص كل منهما على صاحبه ما كان من أمره، فإذا هذا الخادم شاب قد أحسن تعليمه فكلف بالفلسفة، وأسرف في هذا الكلف حتى صرفه عن الحياة العاملة، فتكلف ضروبًا من البؤس والشقاء، وانتهى إلى خدمة دون سالوست، ولكن حياته الأليمة ليست شيئًا بالقياس إلى هم يفعم قلبه وينغص عليه أيامه، وهو يحاول أنْ يجد له اسمًا فلا يوفق، وهذا الهم هو أنه يحب ويغار، يحب الملكة ويغار من الملك، وهو في كل يوم يقطع فراسخ ليحمل أزهارًا تحبها الملكة، فإذا كان الليل تسلق سور القصر، واندس حتى يضع أزهاره بحيث تستطيع الملكة أنْ تراها.

وقد أسرف في الجنون حتى أضاف اليوم إلى طاقة رسالة غرام لم يمضها، وكان سيده قد سمع لهذا الحديث، فيدخل هادئًا، ويدفع إلى ابن عمه المال وقد أوصى به من يتبعه، حتى إذا خرج من القصر عدا عليه وحمله إلى البحر فباعه من قرصان أفريقيا، ثم يخلو إلى خادمه، فيكلفه أنْ ينزع ثياب الخادم، ويلبس ثياب الرجل الشريف، ويملي عليه رسالة غرامية، فإذا كتبها أخذها منه واحتفظ بها، ثم يملي عليه كتابًا آخر فيه عهد على نفسه بأنه خادم مولاه، وأنه سيخلص له أبدًا، يأمره فيمضي الكتاب ويدفعه إليه، ثم يعلن إليه ما يريد، فهو يريد أنْ يجعله رجلًا شريفًا لما آنس فيه من الكفاية والشرف والوفاء، وما هي إلا أنْ يقبل أشراف القصر، فيقدمه إليهم على أنه ابن عمه «دون سيزار»، ويوصيهم به خيرًا عند الملك.

فإذا كان الفصل الثاني رأيت الملكة قد جلست إلى وصائفها يتحدثن ويطرزن، وهي تنتقل من حديث إلى حديث، ولكن السأم عليها ظاهر؛ لأن الملك يهجرها منصرفًا عنها إلى الصيد، ثم هي لا تجد في الحياة لذة ولا سبيلًا إلى اللهو، تريد أنْ تخرج فتلفتها رئيسة قصرها إلى أنها لن تستطيع أنْ تخرج ما دام الملك غائبًا، تريد أنْ تنظر إلى النافذة فتلفتها إلى أنَّ ذلك لا يباح للملكة، تريد أنْ تأكل مع وصائفها فتلفتها إلى أنَّ الملكة يجب أنْ تأكل وحدها ما دام الملك غائبًا، تريد أنْ تلاعب وصائفها بالورق فتلفتها إلى أنَّ الملكة يجب أنْ لا تلاعب إلا أسرة الملك، ثم لا تسمح حتى بالحديث، فتأمر الوصائف بالانصراف لتخلو الملكة إلى نفسها، وتفكر فيما بينها وبين الله حينًا.

فإذا خلت الملكة إلى نفسها فكرت في المسيح والعذراء، ولكن لتستعينها على الحب، فهي تحب هذا الشخص المجهول الذي يحمل الزهر، وهي لا تعرفه، والذي ترك لها كتابًا منذ أيام، والذي يظهر أنه خرج وهو يتسلق غرفتها، فتمزقت ثيابه، وبقيت منها قطعة معلقة، وترك أثرًا من دمه على الحائط، فهي تضم إلى صدرها كتابه وما بقي من ثوبه، وتنظر إلى هذا الدم، وتحاول أنْ تنصرف عن هذا كله فلا تستطيع، تحب هذا الفتى، ولكن حبها غير آثم، ولولا أنَّ الملك منصرف عنها لما فكرت في غيره.

ثم يدخل عليها الوصائف ورئيسة قصرها وغلامان يحملان كتابًا على وسادة فخمة، فإذا بالكتاب من الملك قد حمله إلى الملكة بعض أتباعه، تبتهج الملكة، وتحاول أنْ تقرأ الكتاب، ولكن رئيسة قصرها تلفتها إلى أنَّ التقاليد تقضي بأن تقرأ هي الكتاب أولًا، تفضُّ الرئيسة الكتاب وتقرأ، فإذا الملك يقول: سيدتي! الريح عاصفة وأنا أصيد، وقد قتلت ستة ذئاب، ثم يمضي، ولا تسل عما أصاب الملكة من يأس، وقد كانت تنتظر كتاب حب، ولكنها لا تكاد تنظر في الكتاب حتى تدهش، إنَّ الملك لم يكتبه وإنما أمضاه! وخط الكتاب يشبه خط كتاب آخر تضمه إلى صدرها، تسأل عن حامل الكتاب، فتقدم إليها الرئيسة ري بلاس، وتنبئها بأن الملك قد ألحق هذا الشاب بخدمتها، فلا تكاد تنظر إليه حتى يظهر عليها الافتتان به.

أما الشاب فاضطرابه لا يخفى على أحد، وفي ناحية من نواحي الغرفة وقف شيخ قوي مفتون بالملكة، ولكنه يقنع من حبه بالابتسام والتحية، فإذا رأى هذا الشاب واضطرابه، وتبين ميل الملكة إليه أراد أنْ يمتحن الشاب، فأقبل ينبئه بأن عمله هو أنْ يقف في هذه الغرفة، حتى إذا أقبل الملك هذه الليلة، وأراد أنْ يدخل على الملكة فتح له الباب ثم أغلقه دونه، فلا يكاد الشاب يسمع هذا الحديث حتى تأخذه الغيرة، فإذا رأسه يدور، وإذا هو يوشك أنْ يفقد الصواب.

وترى الملكة ووصائفها منه هذا، فيقبلن عليه يردن إسعافه، فلا تكاد تدنو الملكة منه حتى تتبين الجرح في ذراعه، فلا تشك في أنه صاحبها.

ثم يكون بين هذا الشاب وبين ممتحنه الشيخ خصام عنيف.

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى على هذا الشهر، وارتقى الشاب حتى أصبح زعيم الدولة ورئيس الوزارة، والوزراء يتحدثون عنه ويحقدون عليه وعلى الملكة، وهم يذكرون منافعهم، فيقتسمون فيما بينهم ثروة الدولة، ولكنهم يجهلون مكان ري بلاس الذي يسمعهم ويراهم دون أنْ يروه، فما هي إلا أنْ يقبل عليهم، فيزجرهم زجرًا عنيفًا، هو آية من آيات الشعر الوطني، ثم إذا خلا إلى نفسه أقبلت الملكة فهنأته بما سمعت من زجره للوزراء، وتحدثا عن الحب وتعاهدا عليه، وهو سعيد مغتبط يكاد يجن فرحًا، ولكن أمد سعادته قصير، فإن سيده القديم يدخل عليه، فيشبعه لومًا وتأنيبًا؛ لأنه أهمله وأغضب عظماء الدولة حرصًا على منفعة إسبانيا وتدبير ثروتها وحياطة كرامتها، ثم لا يزال به يأمره ويهينه حتى يثور الشاب، ولكن سيده يذكره من هو، ويذكره العهد الذي أعطاه على نفسه، وينذره بإظهار الملكة على هذا كله، ثم يأمره أنْ يلزم بيته غدًا، وأنْ ينتظر هناك ما سيصدر إليه من أمر.

يحس الشاب أنَّ هناك ائتمارًا بالملكة، فيتضرع إلى سيده ألا يعرض لحبيبته بسوء، وألا يتخذه وسيلة لهذه الإساءة، ولكن سيده يسخر منه ومن حبيبته ومن حبه.

فإذا كان الفصل الرابع رأيت «ري بلاس» في بيته ولهان جزعًا مشفقًا على الملكة، ثم ينفذ إلى الملكة كتابًا يدعوها فيه ألا تترك القصر أيامًا، ويخرج ليسلِّي عن نفسه، ولا يكاد يخرج حتى يظهر في البيت ذلك الشريف المعدم، الذي رأيناه في الفصل الأول وقد بيع، فما زال يجد حتى خلص وعاد إلى العاصمة، ورأته الشرطة فتبعته، فما زال يعدو حتى التجأ إلى هذا البيت، وهذا الفصل كان مضحك متقن.

فإذا كان الفصل الخامس رأيت «ري بلاس» قد عاد إلى البيت وهو هادئ مطمئن؛ لأن الملكة لن تخرج، أما هو فيريد أنْ يقتل نفسه قبل أنْ تعرف الملكة حقيقة أمره، وهو في لوعة إذ تدخل الملكة؛ لأن كتابه لم يصل إليها، وإنما وصل إليها كتاب آخر هو الذي أملاه دون سالوست على «ري بلاس» في الفصل الأول فأقبلت.

يلح عليها ري بلاس في أنْ تعود أدراجها، ويكاد ينبئها بكل شيء، ولكن دون سالوست يدخل فيعلن إليها أنها ليست ملكة إسبانيا منذ الآن؛ لأن خلوتها إلى هذا الشاب تكفي للطلاق، ويطلب إليها أنْ تمضي اعترافًا بهذه الخلوة سيرفعه إلى الملك، أما هي فتستطيع أنْ ترحل مع حبيبها إلى حيث تشاء.

تكاد الملكة تمضي لولا أنَّ ري بلاس ينبئها بكل شيء، وبأنه خادم لا شريف، ثم تكون بين الملكة وبين دون سالوست خصومة تهان فيها الملكة إهانة شديدة، يغضب لها ري بلاس فيقتل مولاه انتقامًا لمولاته، ثم يسألها: أتعفو عنه فتجيبه ناحبة، ويشرب السم، فإذا رأت الملكة أقبلت عليه جزعة، فأعلنت إليه حبها وعفوها ومات بين يديها.

ديسمبر سنة ١٩٢٣

أنصاف الحرائر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «دوماس الصغير»

دوماس الصغير نَغْلٌ[١] لدوماس الكبير، ولد له في ٢٩ يونية سنة ١٨٢٤ من رابطة لم يحلها القانون، وقد رُبِّيَ في حجر ظئر ظل عندها بعد فطامه زمنًا، وفي الخامسة من عمره انتقل إلى مدرسة يقوم بأمرها أحد أصدقاء أبيه، ومنها انتقل إلى مدرسة أرقى، ثم ترك الدراسة في السادسة عشرة من عمره، وظل إلى الحادية والعشرين لا صناعة له إلا التنقل بين الأوساط التي يتردد إليها أمثاله من الشبان، وأثقل الدين كاهله في تلك الفترة، فلم يجد سبيلًا للخلاص منه إلا أنْ يلجأ للتحرير مستفيدًا من اسم أبيه، وتلك مصادفة من المصادفات السعيدة التي تفيد صاحبها وتفيد الإنسانية كلها؛ لأنها مصادفة أصابت روحًا قويًّا، ونفسًا طموحًا، وقلبًا كبيرًا، وعقلًا ناميًا، وخيالًا خصبًا، وأعصابًا حساسة، وفؤادًا عرف الألم فامتلأ بالأمل، وأحاطت به عظمة أبيه، فلم يتردد لحظة في أنه مصيب من العظمة ما أصاب أبوه.

على أنَّ هذه القوى الكبيرة والملكات الجمة لم تلق النجاح لأول ما عالجت سبيله، ذلك بأن دوماس أراد أنْ يسلك في الكتابة طريق أبيه، ودوماس لم يكن صاحب تلك النفس الضعيفة التي تأتم بإمام لها، بل كان قوة لذاته، فلم يفده ضغط نفسه إلا ضياع مجهوده، ورأى هو ذلك رأي العين، فأطلق نفسه من كل قيد، وأراد أنْ يغامر في الحياة

---

[١] ولد غير شرعي.

بكل ما فيه من قوى الحياة، أراد أنْ يكون سيدًا لا أسيرًا، أراد أنْ ينشر على الحياة المحيطة به لون نفسه، فكتب لأول ما كتب في هذا النوع قصته الكبيرة «غادة الكاميليا»، وحكي في الفصلين الأولين من هذه القصة صورة نفسه والمحيطات التي أحاطت به أيام صباه؛ فكان فيما كتب صادق التصوير قويه، فلم تلبث روايته حين نشرت أنْ لقيت ما قدر لها من نجاح لا يزال إلى اليوم في حدته؛ فما تزال «غادة الكاميليا» غادة على المسرح رغم تعاقب السنين، وما تزال النفوس تشتاق إليها كما تشتاق إلى كل شيء محبوب.

وصف دوماس في «غادة الكاميليا» بعض صور حياته، وحياته — كما رأيت — شاذة، خارجة على متعارف الناس في الحياة، ولد في وسط غير شرعي، وعاش في جماعة الأدباء والكتاب والمفكرين، وهؤلاء لا يعيشون عيشًا عاديًّا أغلب الأمر؛ لذلك كان ما جاء في غادة الكاميليا خارجًا على تعارف الناس في الحياة؛ لأنه جعل بطلة روايته إحدى أولئك الجميلات اللاتي ولدن في أحضان الفقر والفاقة، وفي وسط من الأوساط الوضيعة المقام، ولكن هذه البطلة امتازت بجمال فتان يرفع المرأة إلى ذروة لا يتسامى إليها المال ولا تتسامى إليها الألقاب، وإذن كان الجمال ثروة لذاته، وكان ثروة طبيعية، ثم إذ كان الفقر وكانت ضعة القدر لا تتنافى مع العواطف السامية، فقد جعل دوماس لمرجريت حظًّا من هذه العواطف يعدل حظها من الجمال، وأسمى العواطف الحب، الحب عاطفة قوية تأسر القلب، وتتحكم في الفؤاد، وتدفع صاحبها لكل صور التضحية، انتهت هذه العاطفة بغادة الكاميليا إلى الموت.

هذه القصة الأولى لدوماس لقيت من الناس إعجابًا؛ ولكنها لقيت كذلك اعتراضًا عليها وتبرمًا بها، وكيف لا يعترض الناس على قصة تضع قواعد الخلق المتعارفة موضع الشك! وكيف يقر الناس رجلًا يرى في بغي موضعًا لفضيلة! وهل قام نظام الاجتماع إلا على الفضيلة القاسية الضيقة التي تأخذ الناس بخطاياهم فتجزيهم عنها أشد الجزاء! ولو أبيح لأمثال دوماس أنْ يكتبوا، فيسوغوا ما تنكره الجماعة من بعض صور الحياة لما ظلت الجماعة قائمة قويَّة متينة الأساس.

كذلك اعترض غير جماعة على دوماس، لكن للكتاب ورجال الفن ردهم على هذا الاعتراض، وليس أبلغ من كلمة دوماس نفسه في التعبير عن هذا الرد، قال:

> أول شرائط العبقرية الصدق، وكل ما كان صادقًا كان طاهرًا، والزهرة العذراء عريانة وهي مع ذلك عذراء، والانفعال الذي يحدث عن تصوير عاطفة من العواطف تصويرًا تعبر عنه لغة جميلة وحركة جميلة كذلك، هو — أيًّا كان

نوع تلك العاطفة — خير ألف مرة من تلك التدابير الموضوعة التي تطلبون إلينا كتابتها مقابل رضاكم عنا، على نحو ما توضع تلك المناقصات التي تقرر في أعمال البلديات، وتلك الانفعالات أبعد أثرًا في تقويم أخلاق الإنسان بما تدفعه إليه من النظر في أعماق نفسه، ومن تحريك غرائز الطبع الإنساني تحريكًا يدفع بخبايا الفؤاد إلى الظهور أمام بصيرته.

إذن فهؤلاء الفنانون من الكتاب لا يريدون أن يقف الكاتب عند تكرار ما تعارف الناس عليه من ألفاظ براقة وجمل خلابة، ولكنهم يريدون أنْ يبحث في مختلف صور الحياة مما صادفه، وأنْ يحلل ما وقع تحت حسه من هذه الصور، وأنْ يسبر غورها ويجلو حقيقتها، وأنْ يعرضها على الناس كما يراها، حتى يعرف الناس دخائلها وحتى يحيطوا بكل ما في الحياة، يجب ألا يبقى الكثير من زوايا الجماعة مظلمًا لا يعرفه إلا بعض الناس ممن دفعتهم إليها صروف القدر، بل يجب على الذين احتكوا بها، وعرفوا جوانبها وبحثوها أنْ يطلعوا الناس على كل ما وجدوه فيها، يجب أنْ يطلعوهم على الطريف في جماله، وعلى الطريف في وحشيته، والطريف في نفعه، والطريف في ضره، يجب أنْ تكون غاية صاحب الفن — مصورًا كان أو رسامًا أو شاعرًا أو كاتبًا — أنْ يقصد إلى الحقيقة، يجلوها مهما كانت هذه الحقيقة مرعبة مخيفة، ولكن صاحب الفن إنما يقصد إلى تجميل الحسن وتقبيح القبيح، وإنما يكون ذلك بصدق الوصف صدقًا يجعلك تحس بالصورة، وكأنها الشيء انتقل كل ما فيه من المعاني إلى نفسك، فأحدث فيها كل ما يمكن أنْ يحدثه من الانفعالات.

وحياة دوماس الصغير شاذة كما رأيت، هو قد عرف من حياة الجماعة تلك الزوايا المظلمة التي لا يتاح لكثيرين أنْ يعرفوها، عرف مرارة إحساس الابن الذي يولد من علاقة غير مشروعة، وعرف صور الحياة التي يلجأ هذا النَّغْل إلى أنْ يعيشها، عرف حياة الإماء وأشباه الإماء، وعرف ما يدفع إلى هذه الحياة من النضال بين هبات الطبيعة وتقاليد الجماعة، وعرف معاذير الأشخاص الذين ينزلون إلى هذا النضال، وعرف النتائج السيئة التي تعلق بهم منه، والآثار الخطيرة التي تترتب على ذلك في حياة الاجتماع، فكان من ذلك كله موضع بحث وتفكير عميق عنده.

وقد تطورت استنباطاته في هذه المسائل تطورًا عجيبًا، فقد كان في صباه رءوفًا بالمرأة الساقطة، وكان يجد لها من جمالها ومن إحاطة الناس بها عذرًا عما قد ترتكبه من هفوات، ورأيه هذا أبداه في «غادة الكاميليا»، ثم إنه تحول عن هذا الرأي بعد ذلك،

ورأى في وجود هذا الصنف من الساقطات أذى للجماعة وإضرارًا بها يجب معه تجنبها ومحاذرتها، ورأيه هذا أبداه في أنصاف الحرائر.

ثم انتقل إلى أبعد مدى من هذا، فلم يرَ مجرمًا من يقتل المرأة الخائنة، وهذا هو رأيه في قصته «قضية كلمنسو».

قد مثلت روايته «أنصاف الحرائر» في دار الأوبرا الملكية مساء الاثنين الماضي، وكانت واحدة من الروايات القليلة التي قامت بتمثيلها الممثلة الفرنسية البارعة الآنسة سيسيل سوريل، وكانت من بين الروايات التي نالت نجاحًا باهرًا، فحق علينا وقد شهدناها أنْ نثبت أمرها في «السياسة»، وأنْ نعرضها للقراء.

موضوع هذه القصة بسيط كل البساطة، خلاصته أنَّ جماعة من النساء اللاتي أوتين حظًّا من الجمال، وكن طُمُحًا إلى ما حلَّ وحرم من نعم الحياة، جماعة من النساء اللاتي يجدن في المدن وفي اجتماعاتها من صور الاستمتاع ما يحبب إليهن اتباع هواهن، والخروج على متعارف قواعد الاجتماع إذا اجتمعن، وهذا الطراز من النساء المولعات بنعم الحياة وأنواع الاستمتاع فيها يوجد في كل مدينة من المدائن الكبرى، حيث لا يعرف الناس بعضهم بعضًا، وحيث لا يقف الواحد من شئون جاره على الكثير ولا القليل، وحيث يتاح لكل أنْ يحاذي الجريمة أو يقارفها وهو مرتدٍ برداء المجد والشرف، وهو طراز يمتاز بأن النساء من أهله كلهن متزوجات، ولا يرى واحد لإحداهن زوجًا؛ لأن زوج واحدة منهن منقطع عنها لوفاة أو لغربة، وهن لذلك في انتظار الزوج لا يأبين المتعة، وفي يد كل واحدة عصمتها، وعقد هذه المتعة الحب أو دعوى الحب، وهي تدوم ما دام عقدها.

اجتمع إذن جماعة من هذا الطراز من النساء، إحداهن سوزان التي أسمت نفسها البارونة دانج نسبة إلى زوج لم تعرفه حياتها، ولكن اسمه يجعل لها في الحياة بريقًا محبوبًا، و«الفيكونتس دفرينير» وابنة أختها «مارسل» وابنة الأخت هذه فتاة طيبة القلب، لم تعرف حرامًا في الحياة، ولكنها ولدت، ثم سارع إليها اليتم، فلم يكن بد من أنْ تلجأ إلى خالتها، وأنْ تبقى في جماعتها، وإلى جانب هؤلاء الثلاث «فالنتين دسانتيس»، وهي زوج ممن يدعى «فرنان شاربان» الذي هجرها منذ عشر سنوات؛ أي بعد زواجهما بقليل، إذ ثبت لديه أنها خانته، ولم يك عجيبًا أنْ تخونه، فقد ولدت في بيئة كهذه البيئة التي وصفناها، وعاشت فيها ثم ابتعدت عنها زمنًا حتى تزوجت، فكان طبيعيًّا بعد ذلك أنْ تعود إلى مثل أخلاق البيئة التي خرجت منها.

وكانت «سوزان» رفيقة «المركيز تومران» زمنًا، فحصلت منه على ثروة كانت تدر عليها خمسة عشر ألف فرانك كل سنة، فلما هجرته أحبت شابًّا من ذوي النبل يدعى «أولڤييه دجاثي» زمنًا، ثم بدا لها أنْ تهجر هذه الحياة التي عاشتها إلى الثامنة والعشرين من عمرها، وفكرت في الزواج من شاب مستقيم غني كريم المَحْتِد، ولم يكن ذلك الشاب ميسورًا لها بين من عرفتهم وعرفوها، لذلك انتظرت تتحين الفرص، فلما عاد «ريمون دمانجاك» من أفريقيا، وكان جنديًّا قضى بها عشر سنوات، أقبلت عليه وجعلت الزواج منه غايتها وهمها.

وإذ خشيت إنْ هي بقيت معه في باريس أنْ يقف على حقيقة أمرها فيتداعى ما تدبره، فكرت في أنْ تسافر معه بعيدًا عن فرنسا إذا اقتضى الحال، ورأت أنْ تخبر «أولفييه» بعزمها وبانقطاع ما كان بينهما من صلة، وأنْ تودعه قبل سفرها، وإنها لتدخل إلى بيته فتجد عنده «الفيكونتس دفرنيير»، وكانت قد جاءت تحدثه في شأن ابنة أختها «مارسل» التي تهواه، وتسأله لم لا يتزوجها؟ فيرفض؛ لأنه قد يعتقد بطهارة مارسل، ولكن أمامه مدام دسانتيس مثلًا حيًا على أنَّ المرأة تعود إلى بيئتها وإنْ خرجت منها أول خروجها نقية طاهرة، تدخل سوزان عند أولڤييه وتخرج دفرنيير، وتخبر سوزان صاحبها بانقطاع ما بينهما وبعزمها على السفر، وبإحلال الصداقة المخلصة محل ما كان بينهما من علاقة قديمة، وإنهما ليتحدثان إذ يعلن الخادم مقدم المسيو ريمون دمنجاك، فتضطرب سوزان؛ لأنها لم تكن تريد أنْ يعرف واحدًا ممن يعرفونها، وبعد هنيهة من روية تأمر الخادم أنْ يدخل ريمون، ولا تبقى هي في حضرة الرجلين طويلًا بل تدعهما وتنصرف.

ولم يكن ريمون يعرف أوليڤييه من قبل، وإنما جاء من قبل صديق له، يتحدث في أمر مبارزة تقع بين صديقه وصديق لأولڤييه، وقد أخذ حين رأى البارونة دنج «سوزان» عنده؛ لذلك كان حديثه أول الأمر حادًا قاسيًا، فكان يقف في سبيل كل حل يتقدم به أولڤييه لمنع المبارزة، وقد أبدي له أولڤييه دهشته عند ذلك، فسأله عما يمكن أنْ يكون بينه وبين سوزان من علاقة، فلما علم منه أنها الصداقة ليس غير، ولما اقتنع حين أخبره أولڤييه بأنه كان يستطيع أنْ يخبئها في أي غرفة من غرف الدار لو أنَّ في الأمر شيئًا، اتفق على ما ارتآه أولفييه من منع تلك المبارزة، وأصبح الرجلان صديقين، وأفضى ريمون إلى ألڤييه بعزمه على التزوج من سوزان، وبما بينهما من حب جاوز حدود العقل، هنا ينتهي الفصل الأول.

فإذا كان الفصل الثاني فقد اعتزم أولڤييه أنْ يحول دون زواج سوزان بريمون، وهو يزعم خلال القصة كلها، ويتابعه في زعمه نقاد الرواية أنه أخذ نفسه بذلك كشريف يريد أنْ يحقق لصديق شريف معنى الشرف، وأنْ يحبط أباطيل هذه المرأة الساقطة، وقد يكون ما يزعمه أولڤييه من ذلك صحيحًا، قد يكون الدافع له على العمل للحيلولة دون هذا الزواج، هو هذه الصداقة الجديدة التي تمت بينه وبين ريمون، وحبه لطبقة الأشراف التي هو منها، ولكني أحسب أن ثمت دافعًا آخر، فقد كان أولڤييه يحب سوزان، وهو لم يزل يحبها، وهي التي أرادت أنْ تقطع ما بينه وبينها من حب، وهي التي أرادت أنْ تستبدل به رجلًا آخر، وهي التي أعلنت ذلك إليه حين أخبرته بعزمها على السفر، وحين أفضى إليه صديقه الجديد بأنه سيتزوج من سوزان، فالغيرة التي حركت نفسه، والتي حركت عوامل الحقد على سوزان؛ لأنها ستتركه، وحرصه على أنْ تبقى إلى جانبه، وأنْ لا يستأثر بها رجل سواه، هذه الغيرة وهذا الحرص هما اللذان دفعا إلى نفسه هذا العزم، وهما اللذان حركاه بقية فصول الرواية، وهما اللذان هوَّنا عليه المخاطرة بحياته في آخرها.

اعتزم أولڤييه إذن أنْ يحول دون زواج سوزان بريمون، وقد تهيأت له أول فرصة لذلك حين كان معه في منزل الكونتس دفرنيير، وكانت هناك سوزان وفالنتين وسانتيس ومارسل، فقد جعل يقص على صاحبه من حياة أولئك النسوة، ويصف له طرازهن ونوع حياتهن وصورة مجتمعهن، هذا المجتمع الوبيء الذي تهوي إليه كل زوجة لا تحرص على الوفاء لزوجها، والذي ترتفع إليه كل ساقطة عافت الهوى وسيلة للكسب، وتعلقت به سببًا للاستمتاع بلذات الحياة، صور له هذا المجتمع، وأشهده ما يدور من حوار بين السيدات فيه، وقد تنبهت سوزان إلى الحديث فأسرعت إلى منعه، ولما سألت أولڤييه كيف يعدها الصداقة بالأمس، ثم يطعن عليها اليوم — ولو بالطعن على بيتها — أجابها بأن الصداقة لا تمنع الرجل من المحافظة على شرف الشريف، وكذلك أعلنت الحرب بينهما.

على أنَّ هذا الحديث الذي جرى بين أولڤييه وريمون لم يفتح عين هذا الأخير بعد، إذ غشَّى عليها الحب الذي نصبت سوزان له حبائله، وكانت لا تفتأ تغذوه بدعوى الحب من جانبها، وبما تظهره من عواطف ملتهبة، وكل ما فعله أنْ خاطب سوزان فيما قاله صاحبه: فكفى أنْ تظهر الصد والعدول عن فكرتها؛ ليعود هو إليها خاضعًا ذليلًا.

لم يغير ذلك من نفس أولڤييه ولم يثنه عن عزمه، بل تراه في الفصل الثالث أكثر إمعانًا في تنفيذ ما اعتزمه، وأشد إقدامًا على اقتحام كل العقبات، تراه وقد منعت سوزان عليه

بابها ينتهز فرصة دخول ريمون فيستأذن هو الآخر، ويتساءل عن ربة البيت، فيعلم أنها خرجت، فيهمُّ بالانصراف ويطلب إلى ريمون أنْ يبلغها أنه كان يحمل إليها رسالة، ولكنه يعود فيخاطب ريمون في أمر سوزان من جديد، ويطلب إليه أنْ يسألها عن زوجها الأول، فإذا انتهى من حديثه وهمَّ بالانصراف سأله صاحبه عن الرسالة التي يريد أنْ يحمله إياها لمخطوبته، فيتردد، ثم يسلمه الرسالة بعد أنْ يأخذ عليه عهدًا ألا يفضها، وبعد أنْ يخبره أنها خطابات غرام كانت ترسلها إليه سوزان، هنالك يغلي الدم في عروق ريمون، وينتظر عودة سوزان بصبر ذاهب، فإذا عادت قدمت إليه شهادة ميلادها، وعقد زواجها،وشهادة وفاة زوجها، وأنت لا شك تعلم أنَّ هذه الأوراق الرسمية الثلاث مزورة كلها، ولكن الرجل الساذج الذي قضى عشر سنوات في أفريقيا، الذي يحسب أنَّ كل برَّاق ذهبًا لا يلتفت إلى هذا التزوير، ويضعف أمام هذه الماكرة الماهرة ولكنه يظل مأخوذًا بفكرة الخطابات التي تبودلت بين سوزان وأولڤييه، فيطلب إلى سوزان أنْ تكتب خطابًا بخطها، ثم يحضر الرسائل ويفضها ويقارن الخط، فإذًا كل شبهة ساقطة، إذ ليس بين خطها وخط هذه الرسائل شبه، حينذاك يقتنع، ويستغفر لها عن سوء ظنه بها، ويكرر لها أحر عبارات الحب وأقواها.

وعاد أولڤييه وقابل سوزان، فسخرت منه، وأخبرته بأنها عرفت كيف أسلم رسائلها ريمون، وأنها لم تكن مكتوبة بخطها، وإنما كانت تمليها على مدام دسانتيس كما أخبرته بأنها قدمت شهادة ميلادها، وعقد زواجها، وشهادة وفاة زوجها، وتحدِّثه إنْ استطاع أنْ ينقض ما أبرمت.

فلما كان الفصل الرابع عاد أولڤييه إلى حيث صديقه ورفيقته، وذكر ريمون ما عرفه من أمر الخطابات، ومن تزييف الأوراق التي قدمتها سوزان، فطرده ريمون، ولما لم يخرج انتهيا إلى أنهما سيتبارزان، فلما رأت سوزان عظيم الخطر الذي يتهدد رفيقها القديم وزوجها، جاهدت تريد أنْ تمنع هذه المبارزة، فتوسلت لريمون فلم يُجْدِ توسلها، وأخيرًا قابلت «مارسل» وأخبرته بما سيكون، ومارسل — كما رأيت — مولعة ولهى بأولڤييه، فذهبت إليه أول الفصل الخامس تريد منعه، فأبدى أنه نازل على إرادتها، لكنه تركها وخرج من باب آخر، وجاءتها سوزان فذكرت لها أنَّ أولڤييه الذي يبدي أنه يحبها، يقول لها هي أيضًا أنه يحبها، فترددت مارسل في تصديق الخبر، فطلبت إليها أنْ تخرج وتدع لها المكان، وعاد أولڤييه من المبارزة جريحًا، فلما رأى سوزان ذكر سابق حبه ولاعج

غرامه، وعند ذلك دخل ريمون فوجدهما على هذه الحال، فانفتحت عينه وأيقن أنَّ ما ذكره أولڤييه له عن سوزان صحيح، فألقى إليها بعقد لها، فأخذته فمزقته مغضبة حانقة أنْ أخفق كل ما كانت ترجوه، ودخلت مارسل، فاستقبلها أولڤييه في حفاوة وترحاب، وطلب يدها، ومدحها له ريمون، وتم زواجهما وانتهت الرواية.

هذه القصة — أنصاف الحرائر — هي الدور الثاني من تطورات تفكير دوماس الصغير في أمر أنصاف الحرائر، فقد رأيت أنه كان يعطف عليهن حين كتب «غادة الكاميليا».

فلما كتب أنصاف الحرائر كان قد بدأ يحقد عليهن، وقد تم تطوره حين كتب «قضية كلمنسو»، فإنه جعل موضوعها دائرًا حول امرأة تزوجت، فخانت زوجها، فقتلها زوجها وأبرأه القضاء.

ولعلك ترى ما في قصة أنصاف الحرائر من بعض أوجه النقد، فهذا جالن ينعي مدام دسانتيس سيرها، ويرد سوءه إلى نشأته، ويجعل ذلك سببًا لرفض التزوج من مارسل أول الرواية، ثم هو يعود فيقبل زواجها في آخر الرواية، ولم يحدث ما يدعو إلى تغيير رأيه، وهذا دمانجاك يظل الأيام والأسابيع تتتالى عنده الشبهات، فإذا الحب قد غشي على بصره فلا يرى، وهذا قد لا يكون عيبًا، ولكن هذه سوزان اعتزمت السفر حتى لا يقف أحد من أمرها على شي، وهي أشد ما تكون رغبة في الفرار بعيدًا عن أولڤييه جالن، وهي تطيق هذا الفرار، ولكنها على الرغم من ذلك تبقى، والحرب بينها وبينه حرب ضروس لن تنتهي إلى حين.

ولكن مواضع النقد هذه ليست ذات خطر إلى جانب قيمة الرواية وقوتها، وقد وضعنا دوماس أمام مشاهد بلغت من الإبداع في الفن غايته، مشاهد ليست مما يراه الكثيرون في الحياة، وقد يرى بعض الخلقيين عرضها في غير مصلحة الأخلاق، ولكنها مشاهد تمثل حياة طائفة كبيرة من أهل المدن، وقد يكون من الخير أنْ تعرض حتى يعرف الناس موضع المرض فيتقوا جرثومته.

وقد مثلت جوقة الكوميدي بالأوبرا الملكية هذه القصة خير تمثيل، ولسنا بحاجة للثناء على مدموازل سيسيل سوريل في تمثيلها دور «سوزان»، فقد كانت هذه الحرب بينها وبين أولڤييه، وحرصها على أنْ تصل إلى الفوز، وإلى تحقيق ما اعتزمته من التزوج من ريمون

دمانجاك تحتاج إلى قوة في بعض المواقف، ورِقَّة في البعض الآخر، وضعف في مواقف أخرى، فلم يكن صوت سوريل وحده هو الذي يعبر عن القوة وعن الرقة وعن الضعف، بل كانت مقدرتها في العبارة راجعة إلى كل كيانها، وإنك لتستعبر في بعض المواقف حين تراها، وقد رأت نفس ريمون يداخلها الريب، قد صارت كلها حبًّا واستعطافًا ورقة وضعفًا، ثم إذا بك تراها أمام أوليڤييه، وقد ملكت كل وسائل القوة في حالة من الهدوء النفساني، تتجلى معها القوة القاسية في سكينتها وسخرها.

وقد نفثت مدموازل سوريل على الرواية من روحها قوة، وكان الممثلون إلى جانبها يزيدون هذه القوة وضوحًا وجلاء، لولا بعض مواضع كانت تبدو في الأدوار الثانوية.

وقد مثلت جوقة الكوميديا بالأوبرا الملكية هذا العام تمثيلًا حاز أكبر الإعجاب.

ديسمبر سنة ١٩٢٣

خياطة لونيفيل

للكاتب الفرنسي «ألفريد سڤوار»

لا تقل إنها امرأة ذكية حادة الذكاء، ولكن قل: إنها جذوة من الذكاء، ولا تقل: إنها ماهرة في الفن، ولكن قل: إنها الفن يحيا ويتحرك، فأنت إذا شهدتها لم تستطع أنْ تفرق بين الذكاء والذكي، ولا بين الفن والفنان، وإنما اختلط عليك الأمر اختلاطًا، ثم اقتنعت بأنك تشهد الذكاء والفن يضطربان ويترددان في ملعب التمثيل فيستأثران بهواك، ويخلبان لبك، وينسيانك نفسك وما يحيط بك، ويقصران حياتك على ما تسمع وعلى ما ترى.

فأنت معلق بألفاظ الممثلة، وأنت معلق بحركاتها، وغريب جدًّا ما تشعر به حين يلقى الستار، وتعود إلى نفسك فتشعر بها وتفكر فيما يحيط بك، وأنا زعيم بأن هذه العودة لن تكون يسيرة عليك ولا محببة إليك، فستظل بعد أنْ تفارق ملعب التمثيل أسير الملعب، وستسمع صوت الممثلة، وسترى حركاتها، وستحب هذا الأسر وترغب فيه، وتكره أنْ تصرفك عنه صارفات الحياة، ستتصل نفسك بما سمعت؛ لأنه جميل، وستتصل نفسك بما رأيت؛ لأنه جميل، وستستعذب هذا الاتصال وتستثقل الحديث الذي يصرفك عنه، وتتبرم بغير الحديث من شئون الحياة التي تضطرك إلى أنْ تفكر في غير ما رأيت أو سمعت، وستتمنى حين تخرج من ملعب التمثيل أنْ تخلو إلى نفسك، أو أنْ تخلو إلى ما سمعت وإلى ما رأيت، أو أنْ تخلو ليتاح لك أنْ تستعذب الفن وتسيغه، وأنْ تستعذبه وتسيغه إلى غير حد، وبم يمتاز الجمال الفني؟ وبم يمتاز أثر الجمال الفني في نفسك؟

أليس يمتاز بأنك لا تنال منه حظًّا إلا استعذبته وتمنيت منه المزيد، ومهما أتيح لك منه فلن يثقل عليك، ولن تنصرف عنه نفسك، ولن تزداد إلا اتصالًا به وفناء فيه!

أنا زعيم لك بهذا كله إذا شهدت هذه الممثلة فسمعتها تقول، ورأيتها تلعب، وقد أطيل القول فلا أقول شيئًا، وقد أتكلف تخير الألفاظ فلا أجد ما أؤدي به شيئًا مما أجد في نفسي، من ذا الذي يستطيع أنْ يصور بالألفاظ ما يحس في نفسه من جمال الفن! ومن ذا الذي يستطيع أنْ يترجم الموسيقى ترجمة صادقة إلى الكلام! أستطيع أنْ أقرأ كتابًا من كتب العلم أو الأدب أو الفلسفة فأعجب به، ثم أنقل إليك خلاصة ما قرأت، وأصف لك لذتي بما قرأت، وأشركك في هذه اللذة، ولكني أعترف، وأظن أنَّ غيري من الكتَّاب يعترفون بالعجز كل العجز عن أنْ نشهد آية من آيات الفن، ثم ننقل إليك منها صورة صادقة أو قريبة من الصدق، ثم نصف لك لذتنا بهذه الآية واغتباطنا بها، ونشركك في هذه اللذة وفي هذا الاغتباط نحن عاجزون عن هذا العجزَ كله؛ لأن استعدادنا للشعور أعظم من قدرتنا على الوصف، ولأن الألفاظ التي أتيحت لنا حين نحاول الوصف أقل عددًا وأضيق نطاقًا من هذه العواطف والأهواء التي لا تحصى، والتي تثيرها في أنفسنا آيات الفن على اختلافه، وإذا ضاقت اللغة بالعلم والفلسفة فهي بالفن أشد ضيقًا، وأحسب أنَّ اللغة لم تخلق لتعبر عن الفن، وإنْ تكن قد خلقت لتعبر عن الفن فأنا أعتقد أنَّ بينها وبين تحقيق هذه الغاية التي خلقت لها أمدًا لا يزال بعيدًا.

لقد رأيت السيدة سيمون في مواقف مختلفة الاختلاف كله، متباينة أشد التباين، وحاولت أنْ أفاضل بينها في هذه المواقف المختلفة المتباينة، وأفضلها على نفسها في موقف دون موقف، فما وجدت إلى ذلك سبيلًا، ومع ذلك فإن اختلاف هذه المواقف عظيم، عظيم بحيث لا تكاد تتصور أنْ يوفق فرد إلى إتقانها جميعًا، انظر إلى هذه الممثلة في موقف كله لعب وفتنة، وكله لذة ولهو، انظر إليها فإذا هي تأخذ بحظها من ذلك موفورًا، كأنها لم تعرف في حياتها إلا اللعب والفتنة، وإلا اللذة واللهو، وكأنها خلقت لهذا الموقف، وخلق لها هذا الموقف! ولكن احذر أنْ تحكم عليها مثل هذا الحكم، فما أسرع ما تراها قد انتقلت من هذا الموقف إلى أشد المواقف بعدًا عنه ومناقضة له، إلى الحزن والكآبة، إلى البؤس العميق الذي امتزج باللحم والدم، وصور النفس على صورته، فإذا هي بؤس وكآبة، تنتقل إلى هذا الموقف في سرعة مدهشة، فانظر إليها فيه، فتشعر بأنها ليست أقل اطمئنانًا إليه وقدرة عليه وبراعة في تمثيله مما كانت في الموقف الأول، ثم دع هذين الموقفين وانظر إليها في موقف آخر، في موقف يزدري اللذة واللهو كما يزدري الحزن والبؤس، في موقف

يشرف منه الإنسان على الحياة ولذاتها وآلامها إشراف الفيلسوف يزدريها، ويبتسم لها ابتسامة لا تستطيع أنْ تتبين أهي ابتسامة سخط أم رضا، انظر إليها في هذا الموقف فستضطر إلى الحكم بأنها قد خلقت له وخلق لها، وليس العجب أنها تستطيع أنْ تتقن هذه المواقف وتبرع في تمثيلها فحسب، وإنما العجب كل العجب أنها تستطيع أنْ تنتقل بين هذه المواقف في غير هدنة ولا مهلة، وفي غير تكلف ولا تصنع.

ماذا أقول! هي إلى التأثير فيك أسرع منك إلى التأثُّر بها، فبينا أنت مغرق في الضحك؛ لأنها بعثتك على الضحك، وبينا أنت في حاجة إلى شيء من المهلة؛ لتقضي العجب وتأخذ بحظك من هذا الضحك، إذا هي مغرقة في حزن لا أول له ولا آخر، وإذا هي اختطفتك في عنف وخفة من الابتهاج والسرور إلى الابتئاس والعبوس، وإذا أنت لعبة في يدها، تضحك؛ لأنها أرادت أنْ تضحكك، وتبكي؛ لأنها أرادت أنْ تبكيك، وقد نسيت نفسك فما تدري لم تضحك ولم تبكي! وكيف تنتقل من ذلك الضحك إلى هذا البكاء!

شهدتها تمثل قصتين، إحداهما التي أحدثك عنها اليوم، وأعترف بأن هاتين القصتين في نفسهما لم تعجباني، ولم تتركا في نفسي من الأثر القوي ما كنت أنتظر أنْ تتركا، ولكني مع ذلك لم أعجب قط بقصة تمثيلية قرأتها أو شهدتها إعجابي بهاتين القصتين حين شهدتهما في الأوبرا الملكة، لا أستثني من ذلك إلا قصة «بيرنيس» لراسين حين كانت تمثلها «بارتيه»، وإلا قصة «الحب» لبول جيرلدي حين تمثلها «بييرا»، لا أستثني غير هاتين القصتين، على أني شهدت قصصًا تمثيلية كثيرة وحظها من الإبداع الفني عظيم، وشهدت ممثلات كثيرات فيهن «سيسيل سوريل» ونظائرها.

وقد أستطيع أنْ أحدثك فلا أفرغ من الحديث، دون أنْ آتي بشيء مما أشعر به من الحق للسيدة «سيمون» فلأُرِحْكَ، ولأُرِحْ نفسي من هذا العناء غير المفيد، ولألخص لك القصتين تلخيصًا موجزًا.

«خياطة لونيڤيل» قصة غريبة في نفسها، كلها أشياء غير منتظرة، ويكفي لإثبات ذلك أنْ تعلم أنَّ التلخيص الذي وضع لها ليقرأه الجمهور قبل التمثيل، لا يشتمل إلا على خلاصة الفصل الأول، فأما الفصول الثلاثة الباقية فقد أشير إليها بأصفار، وهذا يبين مقدار اعتماد الكاتب على الممثلة وأمله فيها، فقد أنشأ القصة لها وحدها.

يرفع الستار فإذا مطعم من مطاعم باريس الفرحة المبتهجة يختلف إليه آخر الليل أولئك الذين استمتعوا بما أتيح لهم من اللذة في ملاعب التمثيل والموسيقى، فلما قضوا

حظهم من ذلك أقبلوا يأكلون ويشربون ويتمون الليل في لهو ولعب، وهذه الليلة من ليالي الرقص في الأوبرا، فالمزدحمون على هذه المطاعم كثيرون، تضيق بهم غرفاتها الخاصة والعامة، وقد أقبل فيمن أقبل على هذا المطعم فتى فرح مبتهج، ومعه امرأة جميلة فتنته، أو قل إنه فتنها، أو قل إنها تعبث به، هذا الفتى هو «بيير رولون»، وهذه المرأة هي «إيرين سلفاجو»، كانت في أحد ألواج الأوبرا، فلحظت هذا الشاب فأشارت إليه، فسعى إليها، فأقبلا يتمان ليلتهما في اللهو بهذا المطعم، فلا تكاد تسمع حديثهما حتى تتبين أنَّ هذه المرأة أجنبية، وحتى تتبين من صوتها أو حديثها أنها غامضة شديدة الغموض، مبهمة إبهامًا لا حدَّ له، شديدة الانتقال من طور إلى طور في عبث وتحكم، مالكة أمر نفسها، لا تأكل ولا تشرب ولا تلهو إلا بمقدار ما تريد، أما الفتى فعلى عكس هذا كله، سمح، طلق، سهل القياد، لم يكد يخلو إلى صاحبته وتدفعه إلى الحديث حتى أخذ يتحدث ويتحدث، ويقول عن نفسه ما يقال وما لا يقال، وهو نشوان، ثم لا يلبث أنْ يسكر ويندفع في القول، وقد زعم لصاحبته أنه يحبها ويهيم بها حبًّا وهيامًا لا عهد له بمثلهما، وأنه حر لا يقيده حب آخر، ولكن نظرة في صحيفة من الصحف تظهر صاحبته على أنه سيتزوج غدًا، أو قل سيتزوج ظهر اليوم، فنحن في الساعة الثالثة صباحًا، هذه المرأة روسية معروفة، تلعب في السينما توغراف، فإذا علمت أمر صاحبها وإنه سيتزوج بعد ساعات، وعلمت من قصته في ماضيه أنه كان ضابطًا في الجيش، وأنه رابط في مدينة لونيڤيل غاظها خداعه وكذبه وإخفاؤه أمر الزواج، فأضمرت في نفسها شيئًا، فأقبلت عليه تلاطفه وتلهيه وتتكلف الشرب وتغريه به، فيشرب حتى يفقد صوابه، وحينئذ تدعو سائق سيارتها وتكلفه أنْ يحمل هذا السكران إلى لونيڤيل، وأنْ يعزله في قهوة هناك بالقرب من القلعة ثم يعود، وهي إنما تريد بذلك أنْ تفوت عليه ميعاد الزواج.

فإذا كان الفصل الثاني رأيت صاحبنا في باريس، وقد مضى على قصته هذه ستة أشهر، وكان ماليًّا يعمل في المصارف والبورصة، فما زالت به صاحبته الروسية هذه حتى بدَّد ثروته وانصرف إليها عن كل شيء، وما هي إلا أنْ أسرع إليه الإفلاس، ففقد ما كان عنده وأضاع ثقة الناس به، واعتزم أنْ يترك باريس، وأنْ يذهب إلى حيث تقيم أمه في الأقاليم، وهو مع ذلك كلف بهذه المرأة التي حملته كل هذه الأعباء دون أنْ يظفر منها بشيء، كلف بها حتى إنه ليرجو من خادمه أنْ يبعث إليها بأزهار، وأنْ يدفع ثمن هذه الأزهار من دين له على سيده، يخرج الخادم، ولكنه يعود مسرعًا؛ لأنه يرى هذه المرأة مقبلة،

فلا يكاد ينبئ سيده بمقدمها حتى يهيم هذا فرحًا، فيأذن لخادمه في أنْ ينصرف، ويلهو طول يومه، يريد أنْ يخلو إلى صاحبته، فإذا دخلت عليه أنبها ولامها لومًا عنيفًا، فتظهر له أنها قد أقبلت لتنيله ما يريد، وأنها إنما امتحنته طول هذه المدة فاطمأنت إليه، وأقبلت تريد أنْ تعيش معه، ولكنها جائعة فهي تريد أنْ تأكل، وعطشى فهي تريد أنْ تشرب، وقد انصرف الخادم، فصاحبنا مضطر إلى أنْ يذهب ليحمل طعامًا وشرابًا، ولكنه لا يكاد يخرج حتى تتغير هذه المرأة تغيرًا غريبًا، فإذا شكلها ولباسها أبعد الأشياء عن شكلها ولباسها حين دخلت، ويعود صاحبها، فلا يكاد يراها حتى يدهش ويبحث عن صاحبته ويناديها، فتجيبه هذه المرأة في حركة جنونية وصوت ملائم لهذه الحركة، حتى يخيل إلى الرجل أنه أمام مجنونة، وهو حانق على هذه المرأة؛ لأنه لا يجد صاحبته، وما هي إلا دقائق حتى يتبين أمر هذه المرأة التي أمامه، فإذا هي امرأة من لونيڤيل كانت بنت رجل يبيع التبغ، وعرفها صاحبنا حين كان مرابطًا في هذه المدينة فأغواها ثم هجرها، وعرف أبوها الأمر فطردها، وكانت حاملًا فولد لها طفل لم يلبث أنْ مات، وقد مضت على هذه القصة أعوام طوال حتى نسيها صاحبنا نسيانًا تامًا، أما هي فلم تنسها، ولم تفكر إلا في هذا الفتى الذي أغواها وهجرها، والذي تحبه هي حبًّا شديدًا وتريد أنْ تلقاه، عاشت وحدها، فاتخذت حرفة الخياطة، ثم انتقلت إلى باريس فوصلت إلى ملاعب السينما توغراف، ولكنها لا تقص على صاحبنا تفاصل أمرها، وإنما تنبئه منه بما يكفي، فإذا علم أنها كانت حاملًا وأنها فقدت طفلها، ذكر ماضيه وماضيها ورق لابنها وعطف على الفتاة، وسألها ماذا تريد، فتنبئه بأنها اقتصدت، وأنَّ لديها ١٠٠٠٠٠ فرنك تريد أنْ تُثَمِّرها، وهي تأتمنه على هذا المقدار؛ لأنه يعمل في المصارف، صاحبنا سعيد بهذا؛ لأن هذا المال سيصلح من أمره، وسيرد إليه ثقة الناس به، فهو مغتبط، وصاحبته هذه كلفة به، فهي تعرض عليه حبها وتعزيتها، وما أسرع ما يطمئن إليها الفتى فيقضيان الليل معًا.

فإذا كان الفصل الثالث أصبح الفتى فلم يجد صاحبته، فيفترض أنها خرجت، وهو سعيد؛ لأنه سيصلح من أمره المالي، سيبقى في باريس وسيستأنف عمله، ولكن الروسية تقبل مغضبة، فتزعم له أنها بينما كانت منتظرة حين ذهب ليأتي بالطعام دخلت امرأة اسمها «أناتريبييه»، وعرفت هي أنَّ هذه المرأة صاحبته فانصرفت مغضبة، يجتهد صاحبنا في إقناعها بأن هذه المرأة ليست صاحبته الآن، وإنما عرفها قديمًا حين كان في الجيش، وهجرها منذ أعوام طوال، وقد أقبلت إليه لحاجة.

ولكنك قضيت الليل معها! وما تزال به حتى يعترف، ولكنه إنما قضى الليل معها فرقت له وواسته، ثم عرضت نفسها عليه، ثم لا تزال به صاحبته حتى تكرهه على أنْ يصف لها ليلته وصفًا مفصلًا فيفعل، ولكنه يكذب كثيرًا، فيصف نفسه بالبراءة، ويصف صاحبته بالمكر والخديعة، وقد لا يكتفي بذلك فيذم جسم صاحبته ذمًّا يغضب هذه المرأة؛ لأنها هي بعينها، حتى إذا أتم لها وصف الليلة أظهرت عفوها عنه وسماحها له، ولكنها تطلب إليه ١٠٠٠٠٠ فرنك؛ لأنها محتاجة إلى هذا المقدار احتياجًا شديدًا؛ ولأنها إذا لم تظفر به فستضطر إلى أنْ تبيع خاتمًا في يدها، وهي حريصة على هذا الخاتم، يعتذر فتلحُّ، فيعترف بفقره وإفلاسه، فلا تصدقه، ثم تعمد إلى خزانته فتفتحها وتبحث فيها، فإذا المال الذي أودعته «أنَّا»، تحصيه وتريده فيأبى، وينبئها أنه لا يملك هذا المال، ولا يستطيع أنْ يعرضه، ولكنها تلح وتنذر، وتعلن أنها ستسلم نفسها إلى شريكه القديم، وما تزال به حتى يفقد صوابه، فيدفع إليها المال فتنصرف فرحة.

أما هو فتعس محزون؛ لأنه أضاع ما لا يملك، وأضاعه في شهوة دنيئة، ليرضي امرأة، يشتهيها ولا يحبها، بل هو يمقتها؛ لأنها تعبث به وتسخر منه، وهو في حزنه إذ تقبل «أنَّا» فرحة مبتهجة، وقد حملت إليه متاعًا، ونظرت في شئونه، فهي تريد أنْ تصلح الفاسد منها، هي فرحة مبتهجة، وهو تعس حزين، وقد أحضرت صحيفة مالية، فيسألها ما هذه الصحيفة؟ أحضرتها لنبحث معًا عن أحسن مورد نستغل فيه مائة ألف الفرنك، ما رأيك في مناجم الذهب؟ يعترف لها بجريمته فتبكي ويبكى، ثم يريد أنْ يصلح ما أفسد، فيعرض عليها أنْ يتخذها زوجًا؛ لأنه عرفها فقيرة ثم هجرها، ثم عرفها غنية فأضاع ثروتها، وهو فقير، فيستطيعان أنْ يقترنا وسيحبها وسيفي لها، أما هي فتظهر الشك، ثم تمتحنه فتسأله أعندك رسائل لهذه المرأة؟ نعم! إذن فهاتها واحرقها، يتردد، ثم يستطيع أنْ يحضر هذه الرسائل فإذا عاد أنبأته بأن هذه المرأة تحدثت في التلفون، فقالت: إنها تنتظره نصف الليل، فلا يكاد يسمع هذا الحديث حتى يجن جنونه فينسى كل شيء إلا هذه المرأة وميعادها، وتحذره هي وتنهاه أنْ يذهب.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في بيت هذه المرأة الروسية، بل في غرفة نومها، وهي تتحدث إلى نفسها وبين يديها رسالة تنظر فيها، كتبت هذه الرسالة منذ أعوام إلى «أنَّا» في لونيڤيل، وكاتبها هذا الفتى «بييررولون» يعلن فيها القطيعة إلى صاحبته.

تتحدث إلى نفسها بأن هذا الفتى إنْ لم يردها فقد تاب وصلح أمره، فهو إذن يحبها، وهي إذن تستطيع أنْ تظهر له حقيقة أمرها، وأنْ تقترن به، وأنْ تسعد بالحياة معه؛ لأنها

تحبه إلى غير حد، وهي تتكلف ما يتكلف، ويؤلمها ما يؤلمه؛ لأنها تحبه وتريد أنْ يحبها، وهي الآن أمام مسألة دقيقة أي المرأتين يحب؟ أيحب هذه المرأة القاسية اللعوب، أم يحب تلك المرأة الهادئة الصريحة؟ أيحب الرحمة أم يحب العنف؟ أيحب الشرف أم يحب الإثم؟ إنْ لم يأتِ فسأسعد بالحياة معه، فإن أتى فهي تضمر في نفسها أمورًا عظامًا تفهمها من حديثها إلى الخادم، فهي تذكر لها صوت المسدس، وأنها قد تسمعه، وأنها قد تدعو الطبيب، وهي إذ يدق الجرس، إذن فقد أقبل، إذن فهو لا يحب الرحمة ولا الشرف، وإنما يضحى بهما في سبيل القسوة والإثم، يدخل فإذا هي في سريرها فيهجم عليها فتتلقاه عابثة مقطبة، ولكنها مقصية، ثم يكون بينهما حديث فتشترط عليه ليظفر بما يريد أنْ يقطع ما بينه وبين «أنَّا» فيقبل! إذن فاكتب الآن إليها رسالة القطيعة، يريد أنْ يؤجل فتأبى، يمانع فتلح، وتأمره أنْ يجلس ويكتب ما تملي عليه نص الرسالة التي كانت تنظر فيها أول هذا الفصل، والتي كتبها منذ أعوام طوال إلى «أنَّا» حين هجرها في «لونيڤيل».

يكتب كارهًا، ولكنه لا يكاد يتوسط الرسالة حتى يكف عن الكتابة، تأمره فيأبى، ثم يشتد بينهما الخصام، فإذا هو قد أطلق عليها المسدس، ولكنه قد أخطأها!

– إذن فقد كنت تريد أنْ تقتلني!

– نعم!

– في سبيل «أنَّا»؟!

– نعم!

ثم يعترف لها بأنه لا يحبها، وإنما يشتهيها عنادًا، ويريد أنْ ينتقم لنفسه من هذا العبث الطويل، أما حبه فمقصور على «أنَّا»، ثم يريد أنْ ينصرف ولكنها تدعوه، إذن فتعال! يلتفت فإذا «أنَّا» أمامه! من أنت أكنت اثنتين؟ من أنت؟ أأنت «أنَّا» أأنت إيرين؟ من أنت؟ فتجيبه: أنا «أنَّا» التي تحبك، وأنا «إيرين» التي تفتنك! يجيبها: إني لأحبك «أنَّا»، وإني لأحبك «إيرين»!

ديسمبر سنة ١٩٢٤

الحارسة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «بيير فروندي»

أريد اليوم أنْ أحدثك عن قصة اختلفت فيها آراء النقاد اختلافًا عظيمًا، فمنهم من أكبرها حتى كاد يقرنها إلى آيات الفن في القرن السابع عشر، ومنهم من أصغرها حتى أشفق منها على صاحبها، بل إنَّ الاختلاف في أمر هذه القصة لم يقتصر على النقاد وحدهم، بل تجاوزهم إلى الجمهور، ويمكن أنْ يقال: إنَّ هذه القصة أخفقت أمام الجمهور، فلم تمثل إلا مرات قليلة آخر السنة الماضية.

بل نستطيع أنْ نقول: إنَّ الخلاف تجاوز النقاد والجمهور إلى الممثلين أنفسهم، فقد وقع الخلاف في أمور تفصيلية من هذه القصة بين السيدة سيمون التي كانت تلعب دور البطلة، وبين الكاتب نفسه، فألغت الممثلة أثناء التمثيل مناظر وحذفت جملًا طوالًا، وحرص الكاتب على هذه المناظر، وهذه الجمل عندما نشر قصته، وفي الحق أنَّ كل هذا الخلاف يفهم إذا قرأت القصة بإمعان وتدبر، فقد أراد الكاتب أنْ يجمع في قصته بين مذهبين مختلفين من مذاهب التمثيل، أو قل بين مذاهب مختلفة في التمثيل، أراد أنْ يتأثر بما رسم أرسطاليس من مناهج «التراجيديا»، وأنْ يتأثر أيضًا بما رسم القرن السابع عشر من هذه المناهج، ثم أراد مع ذلك أنْ يكون ملائمًا للعصر الذي يعيش فيه والذوق الذي يحيط به، وأنْ يكون متأثرًا بالحوادث التي خضعت لها الإنسانية في هذه الأعوام الأخيرة، ثم أراد مع هذا وذاك ألا تكون قصته خالصة لأحد المذهبين أو خالصة لهما معًا، وإنما حرص على أنْ تكون قصته فلسفية، فيها فكرة أساسية تقوم عليها وتنتهي إلى ما تنتهي إليه من النتائج، وإذن فهو أراد أنْ تكون قصته ساذجة سهلة على نحو قصص

القدماء، مركبة معقدة على نحو قصص المحدثين، وفلسفية غنية بالآراء على نحو ما كتب «فرانسوا دي كوريل»، ومن الواضح أنَّ التوفيق بين هذه المذاهب المختلفة، والجمع بين هذه الأنحاء المتباينة ليس بالأمر الهين ولا اليسير.

لست أدري بم كان يشعر النظارة الذين شهدوا تمثيل هذه القصة في باريس! ولكني أعلم أنك إذا قرأت هذه القصة شعرت بأشياء مختلفة، وشعرت بهذه الأشياء المختلفة بانتقالك من فصل إلى فصل، فإذا قرأت الفصل الأول أعجبتك اللغة، وراقك الأسلوب الكتابيِّ وما فيه من دقة ومهارة، ولكنك تحس شيئًا من البطء والفتور، وتتمنى لو انتهى هذا الفصل لتعلم ماذا يريد الكاتب أنْ يقول، وماذا يريد أنْ يفعل، ثم إذا انتهى هذا الفصل لم تتبين شيئًا، أو تبينت شيئًا ولكنه غير ما أراد الكاتب، أو لمحت ما أراد الكاتب لمحًا دون أنْ تتبينه أو تستيقنه، فأنت مشوق كل الشوق إلى الفصل الثاني، وأنت في الوقت نفسه مشفق كل الإشفاق أنْ تكون قراءة الفصل الثاني كقراءة الفصل الأول، لا تخلو من شعور بالبطء ومن إحساس بالملل، ولكنك لا تكاد تقرأ هذا الفصل الثاني حتى يأخذك دهش ليس بعده دهش؛ لأنك تشهد تغيرًا عظيمًا في موقف الأشخاص وسيرتهم، تغيرًا كنت تتوهمه في الفصل الأول، ولكنك كنت تستبعده الاستبعاد كله، فإذا وقع لم تستطع أنْ تقول: إنه سيء، وإنما اضطررت إلى أنْ تقف موقف الدهش الحائر، فإذا قرأت الفصل الثالث فلا حد لما تشعر به من خوف وإشفاق، ثم لا حد لما تشعر به من ألم ويأس، فإذا انتهيت من قراءة هذا الفصل لم تشك في أنَّ القصة تستطيع أنْ تنتهي بانتهائه، وأنها إنْ وقفت عند هذا الحد فقد حققت ما كان يريد أرستطاليس والممثلون القدماء من اليونان، وممثلو القرن السابع عشر من الفرنسيين حين يذكرون «التراجيديا»، أو يعمدون إليها، ولكن القصة لا تنتهي، وإنما هناك فصل رابع هو أقوى وأشد عنفًا من الفصل الثالث، وهو أدق وأبعد أثرًا في التحليل، وهو في الوقت نفسه يجمع بين مذهب القدماء ومذهب المحدثين من فلاسفة الكتاب التمثيليين، حتى إذا أتممت قراءة هذه القصة استيقنت أنها قوية عنيفة، ولكنك تحس مع هذا اليقين أنَّ شيئًا ينقص هذه القصة لا تدري ما هو، وأنَّ هذه القصة على جمالها وقوتها وقدرتها على أنْ تؤثر في نفسك أعظم تأثير، وتثير فيها الجهاد بين طائفة من العواطف العنيفة لم تلائم هواك، ولم ترضك كل الرضا، ولكني قد قطعت بك كل الطرق التي قطعتها القصة دون أنْ أنبئك من أمرها بشيء، فلأبدأ في تحليلها، فسيكون هذا التحليل دليلًا صادقًا على ما قدمت.

«أودلف دي كوبورج» أمير شاب، فيه ما في الشباب والأمراء من ضعف وطمع، ومن استراحة إلى الأمل وإشفاق من الجهد، من حب للَّهو وحرص على الاستمتاع بالحياة، وكلف باسترداد الحق الضائع على أنْ يرده إليه غيره، وعلى ألا يكلفه ذلك عناء، وهو ضحية من ضحايا الحرب، فقد مملكته في ثورة من هذه الثورات التي بدلت أمور أوربا الشرقية، فهو منفيٌّ، يقيم في سويسرا مع أخته «ماريابيا»، وهي أميرة شابة، ولكنها تخالف أخاها الخلاف كله، فهي تظهر قوية أبية شديدة الإيمان بحقها، شديدة الحرص على أنْ تسترد هذا الحق، وقد انصرفت إلى العمل لاسترداد الملك الضائع، فهي تدبر وتأتمر، وقد شغلها التدبير والائتمار عن جمالها وقلبها وأهوائها، وعن الحياة وما فيها من لذة، فانصرفت إلى ذلك، وانصرفت معه إلى الدين والتقوى، وشاع ذلك عنها حتى فُتن بها أهل مملكتها فأجلُّوها إجلالًا عظيمًا، ولقبوها بالقديسة، ويعيش معها ومع أخيها مُرَبٍّ لها من رجال الدين هو أسقف «فرتنبرج»، وهو مثال هؤلاء الأساقفة الذين يجمعون بين الدين والسياسة، فهم يمثلون الله في الأرض، ولكنهم يمثلون حقوق الملك أيضًا، وهو لا يتصورون الفرق بين حقوق الله وحقوق الملك، بل هم يؤمنون بهذه الحقوق جميعها إيمانًا واحدًا، وهم مهرة في فهم هذه الحقوق، يؤلفون بين متناقضاتها، ويوفقون بين متبايناتها، ويجدون الحل لكل شكل منها، فهم يجدون للملوك وسيلة يجمعون بها بين رضا الله ورضا لذاتهم وشهواتهم، وهم قادرون على الائتمار وما يتصل به من الكيد والدس.

فإذا كان الفصل الأول رأيت الأمير الشاب جاثيًا بين يدي الأسقف يعترف، ويستغفر الله خطاياه، ثم يغفر له الأسقف باسم الله ويحثه على رغم هذه التوبة على أنْ يظهر هذا المساء في مرقص سيكون لهوًا كله، ويجري بينهما حديث قصير، تشعر منه بأن الأسقف يعمل في رد الملك إلى الأمير، وأنَّ الأمير يريد ذلك ويرجوه، ولكن أمله ضعيف، ثم يدخل عليهما رجل قد اتخذ صورة الكناديين وأسماءهم، وما هو في الحقيقة إلا ضابط من ضباط الأمير، قد أقبل إلى سويسرا ليتم المؤامرة بعد أنْ أحسن لها التمهيد في أرض المملكة، واسم هذا الضابط «ميشيل زوريس»، وهو شاب جميل الطلعة، حسن الخلق، قويٍّ الإرادة، لا يعنى بالتفكير، وإنما يعنى بالعمل والمضي فيه، وهو شجاع قد امتحنته الحرب فأحسنت امتحانه، وقد خلص أميره مرة من مخالب الموت، وهو معجب بالأميرة، أو قل إنه مفتون بها؛ لأنه رآها في صباه فأحبها، ولكنه كتم هذا الحب؛ لأنه يائس من

الفوز، فتدخل الأميرة فيقدم إليها هذا الشاب، فتحس أنَّ الأميرة تعجب به، ثم تدخل طائفة من الصحفيين يريدون أنْ يتحدثوا إلى الأمير والأميرة، وقد استعدا لهذا الحديث، فأما الأمير فقد تكلف اللهو والعبث حتى لا يحس أحد أنه يريد استرجاع ملكه، وقد أتقن هذا التكلف، أما الأميرة فلم تتكلف شيئًا، وإنما ظهرت بطبيعتها ميالة كل الميل إلى أنْ تسترد الملك وتنتقم لأبيها، وتجلس أخاها على العرش، فإذا انصرف الصحفيون وخلا الشاب الضابط إلى الأميرة لحظة أحست أنه يتحبب إليها، وأنها لا تكره منه ذلك، ثم ينصرف كل هؤلاء الناس، وتخلو الأميرة إلى نفسها تريد أنْ تعمل استعدادًا لحادث قريب سيرد الملك إلى أهله، ولكنها لا تجد من نفسها ميلًا إلى العمل، وإنما هي متأثرة تأثرًا غريبًا، وتذهب إلى كتاب تريد أنْ تقرأ فيه فلا تستطيع أنْ تقرأ، تذهب إلى الموسيقى فلا تستطيع أنْ توقع، هي ثائرة مضطربة؛ لأن شيئًا غريبًا قد ملك عليها أمرها.

فإذا كان الفصل الثاني فأنت في البيت الذي يقيم فيه الضابط منذ أشهر، وقد أعدت في هذا البيت أسباب اللهو وأدواته من شراب وطعام وزهر، ثم يدخل الضابط ويتبعه الأسقف، فتشعر من الحديث بينهما أنَّ الضابط قد اعتزم السفر فجأة، وأنَّ الأسقف يريد أنْ يثنيه عن هذا السفر، فإذا استمر الحديث عرفت أنَّ هذا الضابط إنما يريد السفر؛ لأنه يحب الأميرة، وهو يعلم أنَّ هذا الحب عقيم، ويشعر أنه يهين الأميرة بهذا الحب، وقد حاول أنْ يكتم هذا الحب، وأن يقتله فلم يوفق، وإذن فهو يريد أنْ يفارق الأميرة أبدًا، يحاول الأسقف صرفه عن السفر، ثم عن الحب فلا يوفق، فيحاول أنْ يقنعه بأن الواجب عليه إنما هو أنْ يعمل لمن يحب، وأنْ يكتم هذا الحب ويضحي به في سبيل الواجب، ولكن الضابط — كما قدمنا — لا يحب التفكير ولا الفلسفة، وإنما هو رجل عمل، وليس له في الحياة غاية إلا أنْ يحارب ويحب، وهو لا يعرف الحب العذري ولا يطمئن إليه، وإنما للحب عنده نتائج لا بد أنْ ينتهي إليها، وإذ كان يائسًا من هذه النتائج فهو يريد أنْ يسلي عن نفسه بالسفر، ينصرف الأسقف ويبقى الضابط لحظة مضطربًا، ثم يقبل عليه قوم دعاهم للهو، وفيه نساء ورجال، ومن بينهم امرأة مغنية اسمها «مارت سوريكي» قد أحبها الضابط حبًّا يسليه عن حبه الآخر؛ لأنه ينسيه باللهو واللذة ما يجد من ألم ووحشة، يتحدثون ويمزحون وينصرفون إلى المائدة، ولكن جرس التليفون يدق، فلا يكاد الضابط يتحدث في التليفون قليلًا حتى يضطرب، ويدعو خادمه فيعلن إليه أنه سيصرف من عنده من الناس، وأنَّ زائرًا سيأتي، فعليه أنْ يدخله دون أنْ يسأل عن اسمه، ودون

أنْ يُدخل بعده أحدًا، ثم يذهب فيصرف أصحابه معتذرًا إليهم وينتظر، فإذا الأميرة قد أقبلت، وإذا هي مضطربة اضطرابًا شديدًا لا تستطيع معه أنْ تقف دون أنْ تعتمد على شيء، فإذا جلست وقف الضابط بين يديها كما يقف الرعية بين يدي مولاه، وتكلف أنْ يسألها عن مصدر هذه الزيارة الغريبة، فلا يجد منها إلا اضطرابًا وترددًا، ثم تنبئه بأنها كانت تريد أنْ تقول له شيئًا كثيرًا، ولكنها نسيت كل ما كانت تريد، وأنها عرفت أنه اعتزم السفر فأقبلت لتراه قبل أنْ يسافر، ثم ينتهي بهما هذا الحديث المضطرب إلى ما لم يكن بد من أنْ ينتهي إليه؛ لأن الأميرة تحب هذا الضابط كما يحبها، وقد كتمت هذا الحب ما استطاعت، فلما علمت أنه مسافر لم تستطع صبرًا، فأقبلت إليه ونسيت منزلتها وآمالها ومطامعها وسمعتها، ولم تفكر إلا في الحب، فإذا صرحت له بذلك، كانت كأنها قد خلعت كل عذار، وقد تجردت من شخصيتها الأولى، فلم تصبح أميرة ولا قديسة، وإنما أصبحت امرأة تملكها العاطفة وتستأثر بها الحاجة إلى اللذة، وهي بين ذراعي حبيبها فانية، تناجيه مناجاة حلوة هادئة حينًا، ثم مرة عنيفة حينًا آخر، وقد سحر الحبيبان فنسيا من حولهما كل شيء، ثم يستيقظان فإذا هي تريد أنْ تعود، وإذا هو يأبى عليها هذه العودة، ولم تكن الأميرة قد فكرت في نتائج زيارتها هذه، ولم تكن قد أرادت إلا أنْ ترى صاحبها، ولكنها الآن تشعر بأنها لن تستطيع أنْ تعود، فما أسرع ما يحملها صاحبها بين ذراعيه.

ذلك أنَّ هذه المرأة التي كانت منصرفة إلى الملك والدين، قد جاهدت جهادًا عنيفًا في إنكار نفسها وعواطفها، وفي الانصراف إلى الزهد والتقوى، وكان الناس من حولها قد أحسوا منها ذلك فقدسوها، فلم توجه إليها كلمة حب ولا نظرة غرام، ولكنها لم تكد ترى هذا الضابط حتى تنبهت فيها تلك العواطف المكظومة كظمًا عنيفًا، فانفجرت انفجارًا عنيفًا.

فإذا كان الفصل الثالث فقد انتهى الحب إلى نتائجه بين هذين العاشقين، ولكنه ظل أمرًا مكتومًا لا يكاد يعلم به أحد إلا اثنان، أحدهما تلك المرأة المغنية التي تركت سويسرا، ثم عادت إليها لا مغنية فحسب بل مغنية وجاسوسة أيضًا، وهي تحب هذا الضابط، فما زالت به حتى خدعته واضطرته إليها مرات واسترقت سره كله، فعرفت مكانه من الأميرة ومن الأمير، والثاني رجل عدو للأمير وملكه، وقد أوفد إلى سويسرا ليتتبع الأمير ويخلِّص منه الدولة، وقد اتفق هذان الشخصان، فتراهما في أول الفصل يعملان معًا في

بيت الضابط يفتشان أدراجه، ويفحصان أوراقه ويسخران من الأميرة القديسة ويتحدثان بقتل الأمير، ثم ينظر الرجل من النافذة، فإذا الضابط مقبلًا فيرتاع ويطلب إلى المرأة أنْ تخفيه، فتضطره المرأة إلى مخبأ يلجأ إليه، ويدخل الضابط فينكر مكان هذه المرأة، ولكنها تلاطفه وتعرض نفسها عليه، فينصرف ويأبى؛ لأنه مشغول الليلة؛ ولأنه ينتظر الأمير، فتلح المرأة في أنْ ترى الأمير، وتنتظر حتى يأتي الأمير ثم تنصرف، ويتحدث الأمير إلى ضابطه، فإذا ائتمارهما قد نجح، وإذا هما يريدان أنْ يسافرا الليلة في طيارة إلى حيث ينتظرهما أنصارهما، وقد أعلنت الثورة في المملكة، وتم الأمر على ما كانا يريدان، وتأتي الأميرة فيتحدثون في هذا وهم سعداء مغتبطون، ثم ينصرف الأمير حينًا ليغير ثيابه ويتنكر، فينتهز العاشقان هذه الفرصة ليتحدثا في الحب، فتتبين أنهما قد اعتزما الزواج بعد أنْ يتم ردُّ المُلك إلى الأمير، ولكنهما يريدان أنْ يخلوَا لحظة قبل هذا السفر الذي سيكون بعد ساعتين، فيدبران بهذه الخلوة أمرهما، ويتفقان على أنْ ينتظرا الأمير، حتى إذا أقبل انصرف الضابط لحاجة، ثم تنصرف الأميرة بعده بقليل، ثم تعترف الأميرة لأخيها بكل ما كان بينها وبين صاحبها، فلا يسع الأمير إلا أنْ يغتبط بذلك، ويعد بأنه سيعرف لهذا الضابط حقه، ولكن الأميرة تطلب إليه أنْ يأذن لهما بالزواج وبالمعيشة الهادئة بعيدًا عن الملك ومناصبه، ثم تستأذن أخاها في الغيبة حينًا، فيفهم ويأذن لها كارهًا؛ لأنه مشفق من الوحدة، فإذا خلا الأمير إلى نفسه اضطرب خوفًا، وتردد في الغرفة قليلًا، ثم يشتد اضطرابه، فيحاول أنْ يخرج ليمشي في الشارع حينًا، ولا يكاد يخرج حتى يظهر الرجل من مخبئه، ويقبل إلى النافذة، ويطلق مسدسه على الأمير فإذا هو قتيل.

إلى هنا يمكن أنْ تنتهي القصة، فقد استوفيت كل الشرائط اللازمة لتكوين قصة قويَّة لذيذة، وانتهت هذه الشرائط إلى نتيجتها العملية والفلسفية، فقتل الأمير وقتل حين كان يستعد لاسترجاع عرشه، قتل في الساعة التي تحقق فيها أمله، وذهبت مساعيه ومساعي أخته ومساعي الأسقف هباء، ثم قتل الأمير، وكان مصدر قتله هذا الحب الذي وصل بين أخته وبين الضابط، فلولا أنَّ هذين العاشقين حَرَصَا على أنْ يخلوا لحظة قبل السفر لما وجد الأمير منفردًا، ولما استطاع هذا القاتل أنْ يظهر من مخبئه، وإذن فهذه الأميرة التي أنفقت من القوة والجهد شيئًا كثيرًا لتجعل أخاها ملكًا، هي التي قتلت أخاها لا لشيء إلا لأنها سمحت لنفسها بأن تعيش كما يعيش الناس، وبأن تحب كما يحب الناس، فأنت ترى أنَّ هذا التصور أشبه لأشياء بما كان يتصور للقدماء اليونان في قصصهم التمثيلية

المحزنة، ولكن القصة لم تنتهِ بعد، وهي لم تنتهِ لأن الكاتب لا يكتفي بما وصل إليه من الحوادث، وإنما يريد أنْ يصل إلى أكثر من هذا، يريد أنْ يصل إلى نتائج هذه الحوادث، على أننا نحن الذين يعلمون إلى الآن بمقتل الأمير ومصدره، أما أخته والضابط فيسمعان حين يعودان أنَّ الأمير قد قُتل، ولكنهما سيجهلان مصدر هذا القتل، ولا بد من أنْ يعلماه، وهذا هو موضوع الفصل الرابع.

فإذا ابتدأ هذا الفصل فنحن في إيطاليا لا في سويسرا، ونحن في مدينة «فينز»، وقد جلست الأميرة إلى أسقفها وهما يتحدثان، وفي صوت الأميرة نبرات الحزن والأسى، ولكن هذا الحديث غريب، فنحن نفهم منه أنَّ الأميرة قد يئست من كل شيء، فهي لا تطالب بملك ولا تطمع فيه، وهي لا تفكر في أنْ تثأر لأخيها، وإنما انصرفت عن كل شيء إلا عن شيء واحد وهو حبها؛ ذلك أنَّ صاحبها الضابط الذي كان يظهر لها قبل المحنة حبًّا لا يعدله حب، ولكنه حب شهوة وحرص على اللذة، قد استطاع بعد المحنة أنْ يظهر لها حبًّا لا يعدله حب، ولكنه حب رحمة وعطف وإشفاق، فهو لا يطمع إلا في شيء واحد هو أنْ يعزِّيها ويهون عليها احتمال الحياة، وقد أثر هذا في نفس الأميرة، فعرفت أنها تستطيع أنْ تعتمد أيام المحنة على صديق لذتها أيام السعادة، فاعتزمت أنْ تترك كل شيء وكل إنسان لتعيش مع صاحبها هذا بعيدين عن أوربا وما فيها مما يذكرهما الآلام والآمال، وهما يريدان أنْ يهاجرا إلى أمريكا.

أما الأسقف فبذل ما يستطيع من قوة ليقنع الأميرة بالعدول عن هذا الجنون، ولكنها لا تسمع له، فإذا طال الحديث بينهما رأيت أنَّ هذه الأميرة القديسة لم تكتف باليأس من كل شيء، بل تجاوزت ذلك فجحدت الدين فهي لا تؤمن بالله، وكيف تؤمن به وقد اضطرها إلى هذه المظلمة الفادحة، ففتح لها باب الأمل واللذة لحظة قصيرة ريثما تذوقهما وتحرص عليهما، ثم أسرع فأغلق أمامها هذا الباب! هي لا تؤمن بالله؛ لأنه لو وُجِد لكان أعدل من هذا، وإذا ذكر لها الأسقف ضابطها أجابت بأن وجود هذا الضابط ورحمته لها وَبِرَّهُ بها آكد، وأثبت من وجود الله ورحمته وَبِرِّهِ! يئس منها الأسقف، وأراد أنْ يودعها، فينبئها بأنه سيقيم في روما أشهرًا، وأنه مستعد لإجابتها متى دعته، ثم يلقي إليها في خفة أنها لو بحثت قليلًا لتعرفت السبب في مقتل أخيها؛ لأنه بحث فعرف أنَّ هناك جاسوسة مغنية ترددت إلى المدينة التي كانوا يقيمون فيها في سويسرا، وأنَّ هذه الجاسوسة كانت تعرف الضابط، ينصرف، ويدخل الضابط فيتحدثان في سفرهما وما ينتظر كل منهما

من صاحبه من مودة وعطف وحنان، ويتعزيان عن فقرهما وآلامهما، ولكنهما يذكران القتل، فتقص على صاحبها ما سمعت من الأسقف، فلا يكاد هذا الضابط يسمع ذكر المرأة المغنية التي ترددت على سويسرا حتى يذكرها، ثم لا يكاد يفكر حتى يبدو له الأمر واضحًا جليًّا، ولكنه فظيع منكر، أما الأميرة فكانت تفترض أنَّ هذه الجاسوسة كانت صديقة أخيها، فإذا الضابط ينبئها بأنها لم تكن صديقة الأمير، وإنما كانت صديقته هو، نعم! كانت صديقتي، فأنا الذي قتلت الأمير! إذن فقد ارتكب إثمين: قتل ملكه وخان عشيقته، وهو يعترف بهذا كله في صوت المروَّع الذي فقد رشده أو كاد، وهو يعترف على نفسه بهاتين الجريمتين وبجرائم أخرى؛ فقد كان مقتل الأمير مصدرًا لنكبات ألمت بأنصاره الذين أعلنوا الثورة، ففقد الحياة خلق كثير، وفقد الحرية خلق أكثر، وهو مصدر هذا كله؛ لأنه لَهَا بجاسوسة، وَلَهَا بها خائنًا عهد الحب.

أما الأميرة فلا تسل عن روعها وغضبها حين تعلم هذا، فهي ساخطة على هذا الضابط تطرده، ثم تعمد إلى مسدس تريد أنْ تقتله، فيكف يدها قائلًا: لا تفعلي، فسأفعل ذلك أنا، ولكن كفي عن البكاء، واجتهدي في أنْ تعيشي، وأنْ تكوني أقل شقاء منك الآن، ثم يحاول أنْ يتركها، فإذا هي لا تزال متصلة به، لا تزال حريصة على حبه، ولكن ليس من سبيل إلى الحياة معه، فقد قتل أخاها، قتل الملك، وقد خانها ولم يخنها إلا حبًّا للاستطلاع، وإلا لأنه يحب المرأة من حيث هي امرأة، وإذن فليست هي بالقياس إليه إلا امرأة كغيرها من النساء! نعم! ما زالت تحبه، وتوشك أنْ تعلن إليه ذلك، ولكن قتل الملك والخيانة أمامها يعقدان لسانها، فتمسك صاحبها قبل أنْ ينصرف، ولا تطلب إليه إلا شيئًا واحدًا هو أنْ يصلي، وأنْ يذكر الله، ويؤمن بالدين، إذن فقد عادت هي إلى إيمانها، أما الضابط فقد أرسل يطلب الأسقف ثم انصرف، ولا يكاد ينصرف حتى يدخل الأسقف، فإذا الأميرة قد نال منها الذهول، فما تكاد تعي شيئًا، والأسقف يبالغ في تعزيتها، فلا يصل إلى شيء، هلم! تعالي! إنَّ أنصار الملك قريبون، وهم يريدون أنْ يروك، فاستجمعي قواك، واظهري لهم كما تعودت أنْ تظهري، وهو يقول لها ذلك إذ يسمع طلق مسدس فتقول: هذا ميشيل يقتل نفسه، يجيبها الضابط: سأفعل ما يجب أنْ أفعل، ولكن تعالي واذكري أنك تمثلين الملك، فتتبعه، وكأنها آلة تتحرك بلا إرادة.

فأنت ترى أنَّ هذه القصة تجمع بين السذاجة والتعقيد، وتجمع بين العمل والفلسفة، وتجمع بين أساليب القدماء وأساليب المحدثين في التمثيل، وما أحسب أني في حاجة إلى أنْ أطيل القول، أو إلى أنْ أقول شيئًا في تعليل ما شجر حولها من الخلاف بين النقاد.

يناير ١٩٢٤

الأمير جان

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «شارل ميري»

أما أنا فأعترف بأن هذه القصة لم تعجبني، ولو خيرت لتحدثت إليك هذا الأسبوع في قصة أخرى، ولكن أمرين اضطراني إلى أنْ أتحدث إليك فيها دون غيرها: الأول أني أجتهد في أنْ يلم قرَّاء هذه الصحيفة لا بفن التمثيل من حيث هو فحسب، بل بالحركة التمثيلية المعاصرة أيضًا؛ أي إني أريد أنْ يعلم قرَّاء هذه الصحيفة شيئًا — ولو قليلًا — من أمر القصص التمثيلية المستحدثة في فرنسا في هذا الفصل، الذي تستحدث فيه القصص عادة، الثاني أني قرأت من هذه القصص في هذا الأسبوع الماضي طائفة لم تعجبني، وكانت هذه القصة التي ألخصها اليوم آخر ما قرأت.

وهي لم تعجبني أيضًا فكنت بين اثنتين: إما أنْ أعدل عن الكتابة هذا الأسبوع، وإما أنْ أحدثك عن خير ما قرأت، فآثرت الثانية، ولم أوثرها عبثًا ولا رغبة في الكتابة، وإنما آثرتها؛ لأن النقاد كادوا يجمعون على استحسانها والرضا عنها، ولأن جمهور الفرنسيين فتن بها إلى غير حد، حتى أنَّ بعض النقاد تنبأ بأنها ستمثل مائتي مرة، ومع ذلك لم تعجبني، لم تعجبني؛ لأني حين أقرأ قصة تمثيلية إنما أبحث فيها عن فكرة أو رأي أو مسألة فلسفية أو خلقية أو اجتماعية، فأنا لا أقرأ قصص التمثيل من حيث هي قصص، وإنما أقرؤها من حيث هي غنية بما يغذو العقل أو يغذو الشعور أو يغذوهما معًا، ولا أكاد أتصور الفن الأدبيَّ منفصلًا عن اللذة العقلية الفلسفية، فأنا أَكْلَف بنوع خاص بقصص التمثيل، وليست هذه القصة التي ألخصها اليوم من هذه القصص، فهي لا تقصد إلى إثبات فكرة بعينها، ولا إلى تحقيق نظرية من نظريات الاجتماع والفلسفة والأخلاق،

وإنما هي تقصد إلى شيء آخر، تقصد إلى إلهاء الجمهور والتأثير فيه دون أنْ يكون هذا اللهو مناقضًا لما ألف الناس من أخلاق وعادات ومن نظم وأساليب للحياة، هي قصة يراد بها القصص لا أكثر ولا أقل، ويظهر أنَّ هذا مصدر فوزها وكلف الجمهور بها، فإن الجمهور يريد أنْ يلهو، وأنْ ينفق في ملعب التمثيل جزءًا من وقته، يخضع فيه لطائفة من المؤثرات القوية، فيحسن فيه اللذة القوية مرة والألم القوي مرة أخرى، يستشعر فيه الخوف حينًا والرجاء حينًا آخر، وهو لا يكره في بعض الأحيان أنْ يُخَلَّى بينه وبين اللذة والألم والخوف والرجاء، دون أنْ يُضطر إلى التفكير العقلي للحكم على قضية من القضايا، أو تمحيص نظرية من النظريات، يريد الجمهور في بعض الأحيان أنْ يكون طفلًا يلهو بالقصص والأحاديث؛ لأنها قصص وأحاديث لا لأنها تفسر مذهبًا من مذاهب الفلسفة، أو تشرح رأيًا من آراء العلماء في الاجتماع، وفي هذا النحو من القصص يعتمد الكاتب على الخيال وحده، ويطلق لنفسه من الحرية ما لا يملك لو أنه تقيد برأي أو نظرية، وهو بهذه الحرية نفسها أقدر على أنْ يلهي الجمهور ويلذه، وهذا ما يقصد إليه كاتبنا الذي نتحدث عنه اليوم في طائفة غير قليلة من قصصه، فهو أشبه بالذين يضعون قصص التمثيل أو يلعبونها للسينما توغراف، فلا ينبغي أنْ نقارب بينه وبين «فرانسوا دي كوريل» أو «هنري بتايل» أو «هنري فدان» أو «برنستين»، وإنما ينبغي أنْ نقارن بينه وبين كاتب آخر فتن به الجمهور الفرنسي حينًا هو «ساردو»، ومن غريب أمر هذا الكاتب أنه يجتهد في أنْ يوفق بين خياله وبين حياته، أو بعبارة أصح يجتهد في أنْ يحقق خياله، فهو يتخيل موضوعه، ويخلق أشخاصه، وينظم قصته، ولكنه لا يبدأ في الكتابة حتى يمثل بنفسه تمثيلًا علميًّا أهم أشخاصه وأجلُّهم خطرًا، ويجتهد في أنْ ينشئ لنفسه الحوادث التي يريد أنْ يضيفها إلى شخص قصته أو إلى أشخاصها، فسترى في قصة اليوم أنَّ البطل شاب تكلف الأسفار، واقتحم طائفة من الخطوب، ونزل في بيئات مختلفة متباينة، ويحدثنا بعض النقاد أنَّ الكاتب بعد أنْ ابتكر هذا البطل تكلف أسفارًا، واقتحم خطوبًا، ونزل في بيئات مختلفة متباينة، ثم بدأ في كتابة قصته، ثم دفعها إلى الممثلين، فنالت ما نالت من الفوز.

في مدينة بروكسل عاصمة بلجيكا أسرة غنية ممتازة؛ لأنها من أسرة الأمراء، هي أسرة «داكسيل»، تأتلف هذه الأسرة من زعيمها الشيخ وولده الثلاثة، جان، وليوبولد، وإيزابيل، فأما أكبرهم وأحقهم بوراثة اللقب وزعامة الأسرة فهو جان، وهو شاب قويٌّ، حسن

الطلعة، ولكنه مشغوف بالحركة والإسراف فيها، فهو لا يستقر على حال، وهو كلف باللهو وفنونه، وبالعمل وضروبه، فهو يندفع باللهو إلى غير حد، ويتكلف طائفة من الأعمال يبدؤها في نشاط وقوة، ثم لا يلبث أنْ ينصرف عنها، وقد أصابه الإخفاق أو ما هو شرٌّ من الإخفاق، وقد جرَّت عليه هذه الخصال طائفة من المحن، فهو مقامر مسرف في القمار، يخسر كثيرًا ولا يربح شيئًا، وهو مع ذلك ملح في اللعب، وقد بدأ طائفة من الأعمال فأخفق فيها، وأضاع مقادير ضخمة من المال كان قد اقترضها أو اؤتمن عليها، وأراد أنْ يكسب ما أضاع من الميسر فلم ينله التوفيق، فبلغ به اليأس ذات ليلة أنْ حاول الغش، وأخذ وهو يحاوله، فافتضح أمره وضاع شرفه، وأكره على أنْ يستقيل من النادي الذي كان يختلف إليه، ولم يجد وسيلة للنجاة من السجن والفضيحة إلا أنْ يهرب، فترك المدينة من ليلته، وكان يحب فيها امرأة جميلة تحبه هي أيضًا، وهي «كلير دارلون»، فلما نزلت به هذه النازلة استحيا أنْ يراها، فهاجر دون أنْ يودعها، وانقطعت أخباره عن أهله وحبيبته ومواطنيه، حتى شاع في الناس أنه قد مات، ودبرت أسرته أمرها على أنه قد مات، فاجتهدت في إرضاء الدائنين، ولما مات أبوه ورث أخوه الأصغر لقب الإمارة وزعامة الأسرة، وأخذ يتصرف في الأمر كما لو كان حرًّا لا يشاركه فيه شريك، ولكن «جان» هذا لم يمت، وأسرته تعلم أنه لم يمت؛ لأنها ترقبه وتتبعه بالعيون والجواسيس، وهي حريصة كل الحرص على أنْ يعتقد الناس أنه قد مات، أو أنه قد غاب غيبة منقطعة، وحقيقة أمره أنه هاجر إلى فرنسا، فتطوع في فرقة الأجانب من الجيش، ثم أعلنت الحرب الكبرى فاقتتل وجرح ونال وسامًا، ثم أرسل في فرقته إلى سلانيك، ثم أرسل في فرقته أيضًا إلى أفريقيا الشمالية، فاقتتل في مراكش وأصاب عناء كثيرًا، وقد انتهت الحرب وأبلى في قمع ثورة من الثورات في مراكش بلاء حسنًا، ثم ردت إليه حريته فغادر الجيش، وقد اتخذ لنفسه اسمًا غير اسمه الحقيقي فتسمى «لوسيان جيرو».

فإذا كان الفصل الأول من القصة، فنحن في مرسيليا في فندق من فنادقها مشرف على البحر، وفي قاعة هذا الفندق رجال ونساء يلهون ويلعبون، ينتظرون السفن التي ستقلهم إلى وجوه من السفر مختلفة، وهم كذلك إذ يدخل شاب غريب الأطوار، تردد قبل الدخول، ثم صحت عزيمته فدخل، فتلقاه صاحب الفندق مبتسمًا يسأله عما يريد، فإذا الشاب كان قد نزل في هذا الفندق منذ خمس سنين، ثم سافر وترك في الفندق متاعًا له، وهو الآن يريد هذا المتاع، أما صاحب الفندق فيتردد؛ لأنه لم يكن يملك الفندق حين نزل فيه

هذا الشاب، وإنما اشتراه منذ عهد قريب، فلا يكاد ينبئ الشاب بذلك حتى يثور هذا الشاب، فينذر ويهدد مرة بالعصا وأخرى بالمسدس، فيضطرب صاحب الفندق ويجزع، ويذهب للبحث عن هذه الأمتعة، أما الشاب فقد جلس إلى مائدة ودعا بأجود الشراب فقدم إليه فهو يشرب، وما أسرع ما يتعرف إلى سيدات فيشاربهن ويداعبهن، ويأتي صاحب الفندق فينبئه بأنه قد وجد المتاع، ولكن إحدى هذه الحقائب مفتوحة وقد فتحت بأمره، ثم يقدم إليه كتابًا أرسله هو إلى صاحبه أنْ يخلي بين الذين يحملون هذا الكتاب وبين متاعه يأخذون منه ما يشاءون، فلا يكاد يظهر على الكتاب حتى يثور ثائره، ويعلن أنَّ الكتاب مزور، ويهدد بالقتل ويهدد بالشكوى إلى الشرطة، ويهدد بشيء كثير، وهو كلما بلغ منه الغضب أقصاه استطاع بشيء من الجهد أنْ يملك نفسه ويعود إلى صوابه.

أما من حوله من الناس فمضطربون يبلغ الخوف بهم أقصاه أحيانًا، ثم ينتهون إلى الضحك والإغراق فيه أحيانًا أخرى، ثم يتركهم هذا الشاب، ويصعد إلى غرفة طلب أنْ تهيأ له، وإنهم ليتحدثون في أمره بعد أنْ فارقهم إذ يدخل رجلان يظهر عليهما أنهما أقبلا من سفر بعيد، فيسألان عن «لوسيان جيرو»، فإذا أجيبا أنه في الفندق اطمأنا وجلسا ينتظرانه، يشك صاحب الفندق ومن معه في أنَّ الشاب لص، وفي أنَّ هذين الرجلين أقبلا يلتمسانه وهما من الشرطة، ثم يأتي الفتى، فإذا لمح الرجلين اضطرب وجلس ناحية، وأخفى وجهه في صحيفة يتكلف قراءتها، ولكنه لا يكاد يستقر حتى ينهض إليه أحد الرجلين فيدنو منه، وصاحب الفندق ينظر هذا في لذة وانتظار للحدث العظيم، فإذا بلغ الرجل الشاب حياه وانصرف عنه الشاب ورده ردًّا عنيفًا، فيلح الرجل في التحية والملاطفة، ويلح الشاب في الكف والانصراف، ولكن الرجل يستطيع أنْ يكرهه على الكلام فيتحدثان، فإذا هذا الرجل ليس شرطيًّا، وإنما هو رجل من أهل بروكسل كلف مراقبة الشاب والاجتهاد في منعه من العودة إلى المدينة، وقد أقبل يعرض عليه بلسان أخيه أنْ يختار من بلاد الله ما شاء أنْ يقيم فيها ناعمًا موفورًا تدر عليه الأرزاق في سعة وسخاء على ألا يعود إلى بروكسل؛ لأن الناس في بروكسل لا يشكون في موته؛ ولأن عودته إلى المدينة ستُذكِّر الناس بما كان من آثامه ومخازيه، فيضيع شرف الأسرة في غير نفع ولا فائدة، أما هو فلا ينتظره في المدينة إلا السجن والعار.

يسمع الفتى هذا كله مغضبًا مرة، مازحًا مرة أخرى، معلنًا عزمه على العودة، ولا سيما حين يعلم أنَّ أباه قد مات، وأنه يستطيع أنْ يرث اللقب وحظًّا ضخمًا من الثروة، وإذن فليس ما يمنعه من أنْ يعود فيصبح أميرًا، ويؤدي دينه ويسترد مكانته وشرفه،

ولكن أخاه قد ورث اللقب، واقتسم الثروة مع أخته، وهو لا يريد أنْ يعود هذا الغائب فيفسد عليه ما يستمتع به من نعيم.

وبلغ اليأس والاشمئزاز من نفس الشاب أنْ كره الحياة، وازدرى الأحياء وأسرته بنوع خاص، فاقتنع بألا يعود، ورفض ما يعرض عليه من رزق، ولكنه سأل صاحبه قبل انصرافه عن حبيبته ما خطبها؟ فينبئه صاحبه بأنها سعيدة ناعمة البال، يفارقها زوجها أكثر الأحيان لأعماله، وقد اتخذت لها عشيقًا جديدًا، فهي تلقاه وتستقبله لا تخشى في ذلك رقيبًا ولا حسيبًا، وهو «البارون درانيم»، ينصرف الرجل وقد ألقى في قلب الفتى هذا النبأ، فوقع منه موقع الجذوة من الهشيم، فإذا نار الغيرة قد تأججت، وإذا الاضطراب قد ملك على الفتى أمره، فنسي كل شيء، ولم يذكر إلا شيئًا واحدًا وهو السفر إلى بروكسل؛ ليرى حبيبته الخائنة؛ ولينتقم من عشيقها الجديد.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في مدينة بروكسل في منزل هذه الحسناء «كلير دارلون»، وقد أقبل المساء وهي تستقبل هذه الليلة، فإذا امرأة صديقة لها قد أقبلت قبل ميعاد الزيارة تريد أنْ تلقاها وتلح في ذلك، ويذهب الخادم لينبئها، ويدخل أثناء ذلك «درانيم» العشيق الجديد، فيكون بينه وبين هذه المرأة حديث تفهم منه أنهما متباغضان، ثم تقبل صاحبة البيت، وينصرف الفتى فتتحدث إلى صديقتها، فتنبئها هذه بعودة صاحبها القديم، وبأنه يريد أنْ يراها، أما «كلير» فلا تكاد تسمع ذلك حتى تضطرب ويملكها الغضب، وتذكر ما لقيت في ذلك الحب القديم من ألم، وتعلن أنها لا تريد أنْ ترى هذا الذي هجرها هجرًا غير جميل، فلم يسمع لها، ولم يودعها، ولم يكتب لها أثناء غيبته، وهي لا تريد أنْ تستأنف الألم الذي لقيته، أما صاحبتها فتتعطفها وتترضاها ولكن في غير نفع، فإذا يئست منها عمدت إلى التليفون تريد أنْ تأمر الفتى بألا يجيء، فتمسكها صاحبتها، وإذن فهي تألم، ولكنها ما زالت تحب، ونفسها تواقة إلى أنْ ترى هذا الشاب، وهما في هذا التردد إذ يقبل الزائرون جماعات، وفيهم أخو الشاب وأخته، وهما يطلبان إليها سرًّا ألا تستقبل هذا الفتى في بيتها؛ لأنها إنْ استقبلته حببت إليه المقام، وإنْ أبت استقباله يئس من كل شيء وعاد أدراجه، فيتم عزمها على ألا تستقبله مخافة الفضيحة، وتهم بأن تكلف صاحبتها إبلاغه ذلك، ولكن صاحبتها تتلكأ وتتشاغل بالزائرين، تتحدث إلى هذا وإلى ذاك، وفي أثناء ذلك يخلو إلى الفتاة عاشقها الجديد، فيتحدث إليها في حبه، ويطلب إليها الوفاء ويلح في ذلك، فنفهم أنَّ حبهما على قوته لم ينته إلى نتيجة، ولم يتجاوز الأماني

والآمال، يلح الفتى وتجيبه المرأة في ازدراء وإباء، ولكن الفتى مشفق بعد أنْ علم بعودة العاشق القديم، فهو ينذرها ويخوفها نتيجة الإصرار على الإباء، وبينما هي مترددة في أمر صاحبها القديم أتلقاه أم ترده إذ يقبل هذا الصاحب، فلا تكاد تراه حتى تضطرب، ولا تكاد تتحدث إليه وتستمع له حتى يزول ترددها، فإذا هي عشيقته كما كانت، وإذا هو عشيقها كما كان، وإذا هو قد اكتسب من هذا الفوز قوة يلقى بها ما سينزل به من المحن وما يدبر له أخوه وأصحابه من كيد، وهي تنصح له أنْ يكتفي الليلة بهذا اللقاء وأنْ ينصرف، ولكنه يأبى ويتردد، وإذا القوم قد أقبلوا وفيهم أخوه وأخته فرأياه، ولم يبق بد من أنْ يبقى ويثبت لأعدائه وخصومه، وفي هؤلاء الناس خال له يحبه حبًّا جمًّا، ويعطف عليه عطفًا شديدًا، فتكون بين الشاب، وهؤلاء الناس على اختلافهم ضروب من الحوار المؤلم المر لا حاجة بنا إلى تفصيله، وإنما نذكر منها حوارًا بينه وبين أخيه، يدعوه أخوه إلى أنْ يستخفي فيأبى، ويشتد الخصام بينهما فيقول له أخوه كلامًا فيه تعريض بصحة نسبه لأبيه، فلا يكاد الفتى يسمع هذا التعريض حتى يشتد اللجاج بينه وبين أخيه، ويكاد الأمر ينتهي بينهما إلى الشر لولا أنْ يدخل بينهما خالهما فيصرفهما عما كادا يتورطان فيه، وتنتهي الليلة انتهاء سيئًا، تنتهي بخصومة عنيفة بين هذا الشاب وخصمه العاشق الجديد.

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت على هذه الليلة أيام، وما زال الفتى مقيمًا في بروكسل، وقد استأنف حبه القديم، وأخذت أسرته وخصومه ودائنوه يكيدون له، يريدون أنْ يقفوه بين يدي القضاء، ونحن في بيت هذه الصديقة التي توسطت بين الفتى وبين صاحبته، ذلك أنَّ هذين العاشقين قد اتخذا بيت صديقتهما هذه مأوى لحبهما فهما يلتقيان فيه، فترى «كلير» قد أقبلت لموعدها، فانصرفت صاحبة البيت، وأخذت هذه تنتظر عاشقها، وإذا بالباب يطرق ثم يفتح ويدخل عاشقها الجديد: معذرة! لقد زرتك غير مرة، فأبيت استقبالي، ولا بد من أنْ أراك وأتحدث إليك، وقد ترقبتك حتى إذا خرجت من البيت تبعتك إلى هذا المكان، فلا بد أنْ تستمعي لي.

فإذا استمعت له أعاد عليها إلحاحه القديم، فرفضت مزدرية، ولكنه ينذرها فهو يملك في يده سلاحًا قويًّا، فإذا تبينت أمر هذا السلاح أظهر لها كتبًا كتبتها إلي عاشقها الأول، وفيها ما يثبت أنه سارق، وأنه مبدد لما لا يملك، ثم ينبئها بأن هذه الكتب ستدفع إلى القاضي ثم تنشر، وهي تكفي لسجن الفتى ولتلويث اسمها واضطرار زوجها إلى الطلاق،

وهو يطلب إليها شيئين، الأول لا بد منه إذا كانت تضن بصاحبها على السجن وبنفسها على العار، وهو أنْ تقطع الصلة بينها وبين هذا العاشق، وأنْ تقنعه بمفارقة بروكسل، والثاني اختياري، تستطيع أنْ تطمئن إليه وأنْ ترفضه؛ ذلك أنه سيحتفظ بهذه الرسائل، فإذا كانت تريد أنْ تستردها لتأمن شرها فلا بد لها من أنْ ترضى له بما يريد، فإذا سمعت هذا تضرعت إليه، واستعطفته ليرد إليها هذه الرسائل، ولكنه يأبى إلا أنْ ترضى له، فتغضب وتطرده طردًا عنيفًا، أما هو فينصرف منذرًا وقد أجلها إلى غد.

ثم يقبل الفتى عاشقها الأول، فإذا هو مضطرب قد أخذ منه السكر، فهو يهذي ويتكلف الفرح والابتهاج، تشك في أمره وتسأله، فلا تتبين منه شيئًا، ولكنه يشهد اضطرابها، فإذا قصت عليه ما كان من أمر الرسائل أفاق من سكره، وظهر عليه حزن شديد؛ لأنه يشعر بأنه لن يهوي وحده، وإنما ستهوي معه هذه المرأة البريئة إذا ظلت هذه الكتب في يد هذا الخصم، وهو يفكر في ذلك إذ يدق جرس التليفون، فإذا سألت الخادم عرفت أنَّ أخا الفتى يسأل عنه يريد أنْ يراه، فيأمرها أنْ تنبئه بأنه ينتظره، وتخرج صاحبته «كلير» مضطربة، أما هو فيأمر الخادم أنْ تدعو خصمه «درانيم» باسم صاحبته؛ ليزورها الآن في هذا البيت فتفعل.

ويقبل أخوه فينصح له بالفرار؛ لأن النائب العمومي أمضى أمر القبض عليه، فيأبى، ويكون بينهما جدال عنيف، ينتهي بأن يظهر الفتى من أخيه على أنه ينكر نسبه إلى أبيه، وهو لا يقول هذا عفوًا، وإنما يقوله لأنه سمعه من أبيه، ولولا ثقته بأن نسبه غير صحيح، وأنه ليس أخاه حقًّا لما نازعه ولما كاد له، ولكنه يعلم أنه مدسوس في الأسرة، وأنه قد أساء إلى هذه الأسرة، فهو يريد أنْ يخلص شرف هذه الأسرة من فتى ليس منها في شيء، ثم ينصرف، ويظل الفتى محزونًا، وقد شك في أمره، وأصبح يتساءل أهو أمير حقًّا؟ أهو وارث لأبيه شرعًا؟ وأخذ ينظر في المرآة، فيتبين ملامح تخالف ملامح الأسرة، ثم تدخل صاحبته فينبئها بأنه دعا عاشقها الثاني وأنه مقبل الآن، فعليها أنْ تتلقاه، وسيستخفي هو لحظة حتى إذا جلس خصمه ظهر هو، فعليها إذن أنْ تتركهما حينًا، ويأتي «درانيم» فيستخفي الشاب، فإذا دخل «درانيم» تلقته المرأة مضطربة خافتة الصوت، فيجلس إليها ويستأنف إلحاحه وإنذاره، ولكن الفتى يظهر من مخبئه، وتتركهما المرأة وجهًا لوجه، وقد عمد الفتى إلى الأبواب فأحكم إغلاقها، فإذا خلا الخصمان طلب الفتى إلى خصمه الرسائل، فيتأبى، فيخرج مسدسه ويقسم ليردن الرسائل أو ليقتلن! يشك الخصم في هذا النذير، ولكن الفتى ينبئه بأنه سيقتل نفسه بعد قليل، فهو لا يخشى القضاء ولا العقاب

ولا ما سيقول الناس، ويمهله دقيقة لرد الرسائل إليه، فلا يكاد خصمه يمانع؛ لأنه يرى المسدس قد صُوِّب إليه، فيدفع إليه الرسائل وينصرف، أما هو فقد أخذ الرسائل ووضعها على المائدة ودعا صاحبته، فتجيبه من وراء الباب المغلق وتدعوه إلى أنْ يفتح لها وتلح، ولكنه لا يفتح ولا يجيب إلا بكلمة الوداع، ثم ينصرف مسرعًا! وتأتي صاحبته فإذا لم تجده خرجت جزعة.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في الريف في مكان موحش، وقد قام فيه قصر فخم تحيط به غابة موحشة، وفي هذا القصر يقيم خال الفتى، وهو شيخ فيلسوف قد كره الناس وحضارتهم وأخلاقهم، واحتقر الحياة الاجتماعية كلها؛ لأنها تفسد على الفرد حريته وتجعله كالكلب المستأنس، لا يمتاز من غيره إلا بقلادة في عنقه، هو إذن يحتقر الحياة والأحياء من الناس، ويؤثر عشرة الحيوان، وهو كَلِفٌ بالصيد ومعاشرة الحيوان، يربي بعضه ويقتل بعضه كما يقول، وله لذة هي المزاوجة بين الكلاب والذئاب، وقد أقبل إلى هذا القصر ذلك الرجل الذي رأيناه في الفصل الأول يتحدث إلى الشاب في مرسيليا، يطلب إليه ألا يعود؛ أقبل لأن صاحب القصر دعاه وقد علم ما كان من أمر ابن أخته،ومن أنه مقبوض عليه إذا لم يؤدِّ دينه، فهو يريد أنْ يؤدي عنه هذا الدين، وأنْ يصلح من أمره، وقد دعا إليه أيضًا أخا الفتى وأخته، وهو يريد أنْ يصلح بين هؤلاء جميعًا، وقد أبرق إلى النائب العمومي يعلن إليه أنه مؤدٍّ دَين ابن أخته، وهو في هذا الحديث إذ يقبل الفتى مضطربًا ذاهلًا، فيخلو إلى خاله يسأله أمره، وماذا يعرف من نسبه، فيحاول الشيخ أنْ ينكر أو يفر، ولكن الفتى يلح فيجيبه الشيخ بأنه لا يعرف من هذا الأمر شيئًا، إلا أنَّ أخته تزوجت كارهة من زوجها فلم تحبه يومًا، وعاشت معه سنين، ثم فارقها زوجها أعوامًا لمهمة سياسية في الخارج، وكانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وكانت جميلة خلابة، وكان المفتونون بها كثيرين، ولكن لم يذع أحد عنها قالة سوء، وهو يعلم أنَّ أباه لم يكن يحبه ولا يميل إليه، وأنه كان يشك في نسبه.

ثم ما يزال الفتى بخاله حتى يذكر له طائفة من الذين فتنوا بأمه، فإذا ذكر منهم ضابطًا فرنسيًّا ألح في ذكره، وأشار إلى تشابه بينه وبين الفتى، فقد كان هذا الضابط جسورًا مخاطرًا مسرفًا في حب الحركة كارهًا للنظام، حتى إنه استقال من الجيش وذهب إلى أفريقيا الشمالية يستكشف الصحراء، فقتله هناك أهل البادية، لا يشك الفتى في أنه ابن هذا الضابط، وإذن فقد تغير كل شيء في نفسه، فهو ليس خصمًا لأخيه؛ لأنه ليس

أخاه؛ ولأنه لا يستحق لقب أبيه لا يستحق ميراثه، وهو يريد أنْ يقتل نفسه ليتخلص من هذا الشقاء، وإنه ليتحدث إلى خاله إذ تدخل «كلير»؛ لأنها عندما افتقدته فلم تجده جزعت كما رأينا، وانصرفت تبحث عنه، فأقبلت تلتمسه عند خاله فوجدته، فيتركهما الشيخ، وينصرف إلى مكتبه ليدبر أمر هذا الدين وما بين الأخوين من الخلاف، ويخلو العاشقان فيكون بينهما حوار مؤثر حقًّا، يعلن إليها أنه مجرم، فتجيبه بأنها تحبه، ويعلن إليها أنه ليس لأبيه، فتجيبه بأنها تحبه، ويعلن إليها أنه فقد كل شيء، فقد الثروة، وفقد الشرف، وفقد اللقب، وفقد حتى النسب الصحيح، فتجيبه: ولكنك لم تفقدني فلم تفقد الحب!

ثم تعلن إليه أنها قد نظمت حياتها، فقطعت صلتها الزوجية، واعتزمت أنْ تعيش معه، وأنْ ترافقه إلى حيث يريد، وهما في هذا إذ يقبل خاله ومعه أخوه وأخته وزوجها والرجل الآخر الذي رأيناه أول هذا الفصل، فتنصرف المرأة، ويعلن خال الفتى إليه أنه قد تم كل شيء، فأما دَينه فقد أُدِّيَ عنه، وأما لقبه فقد رُدَّ إليه واعترف بذلك أخوه، أما هو فلا يكاد يسمع هذا حتى يأباه، ويجيب مبتسمًا: «هذا ما دبرتم، انتظروا فسأكتب لكم وصيتي» وينصرف، فإذا طالت غيبته على القوم افتقدوه فلم يجدوه، فيأخذ الشيخ جزع شديد، ويدعو ابن أخته بصوت عال تسمعه «كلير»، فتقبل جزعة، وقد اشتد اضطراب القوم، فهم يدعون الخدم يسألونهم ويأمرونهم بالبحث، ويقبل غلام معه كتابان، يدفع أحدهما إلى الشيخ والآخر إلى أخي الفتى، فيفض هذا كتابه ويقرؤه، فإذا الفتى يعلن إلى أخيه أنه قاتل نفسه وقاذف بها في هوة عميقة بعيدة عن القصر يسميها، فلا يكاد القوم يسمعون هذا حتى يأخذهم الهلع.

أما المرأة فقد أغمي عليها، وأما الشيخ فما زال هادئًا، ولكن تبدو عليه مظاهر اليأس، حتى إذا انصرف القوم جميعًا، يريدون أدراج الفتى، دفع الشيخ إلى المرأة — وقد أفاقت — كتابه مبتسمًا، وخرج فلحق بالقوم، أما المرأة فتنظر في الكتاب، ولكنها لا تكاد تمضي في القراءة حتى يدخل عليها الفتى، فتلقي بنفسها بين ذراعيه، وتدعوه باسمه «جان»، فيجيب: لا تذكري هذا الاسم، فإن «جان» قد مات، وقد ألقى بنفسه في تلك الهوة، أما الاسم الذي أمامك فاسمه «لوسيان جيرو»، وقد تركت على هذه الورقة عنواني في باريس، فإذا كنت تريدين أنْ تشاطريني ما بقي لي من هذه الحياة السيئة فالحقي بي، وإلا فكوني سعيدة، ولكن لا تقولي شيئًا، تجيبه سألحق بك غدًا.

فأنت ترى إلى هذه القصة وإلى خلوها من كل فكرة قيمة، أو رأي ذي خطر، وإلى امتلائها بالحركة والأحداث والمواقف العنيفة التي تخلع القلوب فَرَقًا وتُرقِّصها أملًا، وأنت ترى

إلى هذه القصة كيف استطاع الكاتب أنْ يصور الجزع حتى ملك على هؤلاء القوم وعلى الجمهور نفوسهم وأهواءهم، فلم يشكوا في أنَّ الفتى قد قتل نفسه، وهم في هذا الجزع العنيف، وإذا الفتى يظهر مبتسمًا هادئًا قانعًا من الحياة بما قسم له، وإذا شيء من الأمل الهادئ المتواضع يقوم مقام ذلك الأمل الضخم الذي لا حد له، ومقام ذلك اليأس الذي كاد يأبى على كل شيء.

أعترف بأن هذه القصة مما يلهي الجمهور ويرضيه، ولكني أعترف أيضًا بأنها لم تلهني ولم ترضني.

يناير ١٩٢٤

الرجل المغلول

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «إدوار بورديه»

أما اليوم فسأحدثك عن قصة تمثيلية بالمعنى الصحيح، بالمعنى الذي أعجب به وأرتاح إليه؛ لأن فيها ما يرضي الخاصة والعامة معًا، فيها ما يسر الفيلسوف الباحث، وفيها ما يبتهج له النظارة الذين يختلفون إلى ملاعب التمثيل؛ ليقضوا فيها جزءًا من الوقت، وليجدوا فيها شيئًا من هذه اللذة المقدسة التي يخلقها الفن فينال بها العقول والقلوب.

ليست هذه القصة درسًا في الفلسفة، أو فصلًا من فصول العلم لا يفهمه إلا الأخصائيون، وليست هذه القصة بناء شامخًا كثير الحنايا والتعاريج، من هذه الأبنية التي يشيدها الخيال دون أنْ يسيطر عليه العقل أو تشرف عليه الفلسفة، وإنما هي قصة، للفلسفة فيها حظ وللخيال منها قسط، فهي — كما قلت — ترضي العقل لما فيها من فكرة وصدق وتحليل، وترضي القلب لما فيها من جهاد بين العواطف المختلفة المتناقضة، وهي من هاتين الناحيتين مرضية للعامة والخاصة، ولقد تبحث عن الفكرة التي قامت عليها هذه القصة، فلا تكاد تجدها، أو لا تكاد تشعر بأنها فكرة جديدة أو غريبة، ومع ذلك فالقصة لذيذة ممتعة للعقل، لا لأنها تشتمل على شيء جديد، ولا لأنها تفصل رأيًا من آراء العلماء أو نظرية من نظريات الفلسفة؛ بل لأنها تتناول نفسين أو نفوسًا ثلاثًا بشيء من التحليل الدقيق يظهر خفاياها، ويعلن ما كمن فيها من عاطفة أو شعور، ثم هي إلى هذا التحليل قد وفقت إلى طائفة من المواقف الدقيقة الرقيقة التي تؤثر في نفسك أقوى التأثير دون أنْ تصدمك صدمة قوية أو تهزك هزة عنيفة، وإنما هي تحدث في نفسك هذا التأثير قليلًا قليلًا، وتترقى بك في الألم شيئًا فشيئًا حتى تصل بك إلى أقصاه، مثلك في

ذلك مثل الذي يصَّعَّد في جبل شاهق دون أنْ يلقى في تصعيده عناء؛ لأن طريقه إلى القمة سهلة معبدة.

فالكاتب لا يجذبك إلى ما يريد جذبًا، وإنما يماشيك إليه، ويقودك في لطف ورفق، كأنه يسرقك أو يختلسك، ذلك إلى حلاوة في اللفظ، وسحر في البيان، وتجنب للتكلف، واقتصاد في الحركة، والغريب من أمر هذه القصة أنك تشهدها أو تقرؤها، فلا تكاد تشعر بأنك تشهد قصة أو تقرؤها، وإنما يملكك شعور قويٌّ هادئٌ؛ لأنك تشهد فصلًا من فصول الحياة، أو تطلع على صورة من صور الحياة، ومن هنا كان ما تشعر به من لذة أو ألم صادقًا؛ لأنه لم يُتكلف ولم يُتعمد، وإنما نشأ في نفسك كما تنشأ فيها اللذات والآلام اليومية أمام هذه المظاهر الفطرية التي تبعث في النفس اللذة والألم، ومن هنا لم يختلف النقاد في أمر هذه القصة، وإنما اجتمعت كلمتهم على الإعجاب بها والثناء على كاتبها وانتظار الخير الكثير منه، ولعل مصدر هذا الإتقان الذي أجمع النقاد عليه أنَّ الكاتب هادئ محب للأناة، لا يتعجل الفوز، ولا يتهالك على التصفيق، ولا يحرص على كثرة الإنتاج، هو بطيء في إنتاجه؛ يتصور القصة، ثم لا يكتبها حتى تطول العشرة بينه وبين الصورة التي يتصورها، فإذا أصبحت هذه الصورة كأنها جزء من نفسه أقبل على قلمه فرسم هذه الصورة في هدوء وبعد عن التكلف، فإذا تم له من ذلك ما أراد ونالت قصته حقها من الفوز لم يطمعه ذلك، ولم يدخل إلى نفسه الغرور، ولم يبعثه على أنْ يستزيد من الفوز، وإنما يبعثه على أنْ يتمهل، ويستأني ويتيح لنفسه الفرصة التي تمكنها من الراحة والتجدد، فيمكث السنتين والسنين لا يكتب ولا يفكر في الكتابة، وإنما يستريح ويقرأ ويشاهد ويتنقل في مظاهر الحياة، متفهمًا لها محللًا إياها، حتى تعرض له صورة أخرى، وإذا هو يسلك معها سبيله مع القصة الأولى، فهو من أقل الكتاب الممثلين إنتاجًا، ولكنه من أغزرهم مادة وأحسنهم أثرًا، وهو ينال على ذلك من الفوز والمكافأة أكثر مما يناله غيره من المتعجلين.

«ميشيل فردييه» محام معروف، عظيم الشهرة، بعيد الصوت، كثير العمل، لا تكاد تسمع لحديثه حتى تشعر بأنه ذكيُّ القلب، رقيق العاطفة، حاد المزاج، قويُّ الحس، وهو متزوج من امرأة يحبها حبًّا لا حد له، وتحبه هي كذلك حبًّا لا يعدله حب، واسمها «هيلين»، لا تكاد تسمع لحديثها حتى تتبين فيها مثلًا للمرأة التي تراها، فإذا أنت مأخوذ بإكبارها وإجلالها؛ لأنها جمعت إلى الجمال والفتنة نفسًا عالية، وقلبًا ملؤه الحنان، وأخلاقًا

مستقيمة فُطرت على الطهارة والوفاء، وهي كزوجها رقيقة العاطفة، ولكنها قوية الحس، تراهما في الفصل الأول يتحدثان عن سياحة يعتزمان أن يسيحاها في إسبانيا.

أما هي فمبتهجة مغتبطة؛ لأنها سترى ما لم ترَ؛ ولأنها ستخلوا إلى زوجها أسابيع لا يشاركها فيه شريك، وأما هو فسعيد ولكنه يتعجل العودة؛ لأن عمله كثير؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يؤجل هذا العمل إلا قليلًا، وتفهم من حديثهما أنهما قد تزوجا منذ ثلاث سنين، وأنهما تحابا قبل أنْ يتزوجا، وأنها أسلمت نفسها له قبل الزواج، أنكرته أسرته كلها، وما زالت تنكره وتزدري امرأته إلا أختًا له هي «جنڤييف»، وهي أرملة لا ولد لها، تحب أخاها وتكبر زوجه، وتضمر لها مودة قوية، يسألها ماذا تصنع هذا اليوم فتنبئه بأنها تنتظر جماعة من الزائرين، سيتناولون عندها الشاي، فإذا سألها عن مصدر هذا أنبأته بأن أخته تفكر في أنْ تُعرِّف فتاة إلى شاب، وهي تريد أنْ يكون بينهما زواج، أما هذه الفتاة فاسمها «كلودين أرفو» جميلة، ذكيَّة، مُثْرِيَة، ولكنها فقدت أمها، وهي تعيش مع أبيها الذي لا يحفل بها ولا يلتفت إليها، وإنما ينصرف عنها إلى لذاته وشهواته، فمن الخير أنْ تتغير حياتها، وأنْ تجد في الزواج ما ينقذها من شر هذه الوحدة التي تعيش فيها، وأما الشاب فهو «فيليب دارتيز»، وهو صديق هذه الأسرة، وهو جميل، حسن الطلعة، غنيٌّ، اشتغل بالمحاماة فتفوق فيها، وكاد يبلغ مكانة عالية لولا أنْ عرضت له امرأة نَصَفٌ ولكنها غنيَّة جدًّا، فأحبها وأحبته وعاشا حينًا، فما هي إلا أنْ صرفته عن العمل، فأصبح لا يعيش إلا لها، وأصبح يضحي بملكاته ومكانته في سبيل هذه المرأة، ومن الخير أنْ يتركها إلى حياة الزوجيَّة المنظمة التي تمكنه من إحياء ملكاته واسترداد مكانته في المحاماة، أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسخر منها ومن أخته، ومن عنايتهما بتزويج الناس بعضهم من بعض، ثم تقبل أخته فينصرف، ويقبل الزائرون قليلًا قليلًا حتى يتم اجتماعهم إلا الشاب فإنه لا يحضر، ومع ذلك فقد وعد بالحضور، وصاحبة البيت تنتظره وقد أعلنت مقدمه إلى الزائرين.

وهنا قسم لذيذ من القصة، فيه ضروب من الحوار مختلفة، كل واحد منها على قِصَرِه يصور لك تصويرًا صادقًا دقيقًا نفسًا إنسانية أو شخصًا من أشخاص هذه الحياة الخاصة: حياة الأغنياء والمترفين، فهناك في ناحية من نواحي الغرفة رجل وامرأة يتحدثان، يتحبب الرجل إلى المرأة ويغريها بالحب ولذاته، فتجيبه بأنها تفهم ذلك وتميل إليه فلا تنفر منه، ولكنها مع ذلك لا تورط نفسها فيه؛ لأنها تعودت ألا تكتم زوجها سرًّا، فهي تقص عليه أمر يومها إذا اجتمعا إلى مائدة العشاء، وهي تخشى إنْ اتخذت لها عاشقًا

أنْ تقص أمره على زوجها لما تعودت من ذلك، ولكنه يغريها ويهون عليها الأمر، ويفتح لها أبواب الحيل، وما يزال بها حتى يظهر أنه قد ملك عليها أمرها، فيخرجان بعد أنْ يقسم لها أنها تستطيع أنْ تقص على زوجها كل ما سيحدثها به في الطريق، وهذه المرأة نفسها مشهورة بالتورط في طائفة من الأغلاط المنكرة كلما ظهرت في جماعة، ولم تخطئ حظها من ذلك هذا اليوم، فبينما هم إلى الشاي يذكرون «فيليب» وانتظاره إذ ذكرت صلته بتلك المرأة التي يحبها وتحبه، فسمعت الفتاة ذلك، وتكلفت صاحبة البيت مشقة لتصرف الحديث عن هذا الوجه.

وهناك في ناحية أخرى أبو الفتاة، وهو رجل قد كان يتقدم في السن، ولكنه شاب أو يتكلف الشباب، مكبٌّ على لذته، لا يعدل بها شيئًا آخر، وهو حريص على أنْ يزوج ابنته ليخلص منها ويفرغ للذاته، وحرصه هذا على تزويج ابنته ينسيه واجبه، فهو لا يتحرى من أمر الشاب الذي يعرض عليه شيئًا، وإنما يكل الأمر في خفة إلى «هيلين» و«جنڤييف»، فإذا أبطأ الشاب انصرف وترك ابنته بين هاتين الصديقتين.

وهناك الفتاة «كلودين» يظهر عليها أنها قد بلغت من السذاجة والبراءة حظًّا عظيمًا، ولكنها ليست بالساذجة ولا الجاهلة، فهي تعلم لم دعيت إلى هذا الشاي، وإنْ أخفوا ذلك عليها، وهي تفطن لكل ما تسمع من حديث، وهي تعلم من أمر هذا الشاب الذي يراد تقديمه إليها كل شيء، وهي تميل إليه؛ لأن خلقه جميل، وتنفر منه لمكانه من تلك المرأة، ولكن انتظار هذا الشاب يطول، فتنصرف «جنڤييف» والفتاة، وتبقى «هيلين» وحدها لحظة، ثم يدخل الخادم فينبئها بأن «فيليب» قد جاء حين كان عندها الزائرون، فلما عرف مكانهم انصرف على أنْ يعود بعد قليل، وقد عاد، فيدخل فتتلقاه «هيلين» ساخطة مغضبة؛ لأنها دعته إلى الشاي وكانت تريد أنْ تقدم إليه ناسًا، أما هو فيجيب بأنه أقبل ليراها لا يرى غيرها؛ لأن رؤية غيرها تؤذيه، ورؤيتها هي تسره، وقد أقبل ليُسَرَّ لا ليتأذى، ثم يكون بينهما حديث تظهر فيه قيمة القصة، وتبدأ فيه المعضلة التي سيعالجها الكاتب في الفصلين الآخرين، يتحدثان فتتذكر له قصة الزائرين وقصة الفتاة، وأنها تريد أنْ تقدمها إليه فيتخذها له زوجًا، فيجيبها بأنه لا يريد أنْ يتزوج، فإذا ألحت عليه، أجابها في تبرم وسخط بأن ذلك لا يعنيها، وليس من حقها أنْ تفكر في أمره الآن، أو تحرص على سعادته بعد أنْ ازدرت هذه السعادة وضحت بها منذ ثلاث سنين، وإذن فقد كان بينهما حب قبل زواج «هيلين»، وقد ضحت هيلين بهذا الحب وتزوجت، ولكن الحديث يستمر بينهما فيوضح لنا هذه القصة، فنفهم أنَّ «فيليب» عرف هيلين هذه فأحبها ولم

تحبه، ثم قدم إليها صديقه «ميشيل»، فأحبها أيضًا وأحبته، أو قل مالت إليه، وكانت بينهما صلات العاشقين، فتألم «فيليب» لذلك، ولكنه أخفى ألمه، ثم أصبحوا ذات يوم فإذا ميشيل قد سافر فجأة إلى أمريكا، وانقطعت أخباره ورسائله حينًا، فانتهز فيليب هذه الفرصة، واستأنف ملاطفة «هيلين» والتحبب إليها، وما زال يتبعها بحبه وإلحاحه حتى رضيت له، ومضت على ذلك أشهر، ثم أقبل «ميشيل» من أمريكا، فإذا هو لم يسافر إلا ليبحث عن الثروة وليضمن مستقبلًا سعيدًا، فلما ظفر بذلك عاد فعرض على «هيلين» الزواج، وكانت تريد أنْ تنبئه بخيانتها إياه، ولكنها رأته سعيدًا مبتهجًا، فأشفقت عليه من الألم، ورأت أنَّ المستقبل أمامها مبتسم سعيد، فأشفقت على نفسها من الحرمان، وكتمت خيانتها وقبلت الزواج، وكتبت إلى «فيليب» تقطع ما بينهما من الصلة، وتعاهد فيليب وهيلين على أنْ يجتهدا في نسيان هذه الصلة.

ومضت على ذلك أعوام ثلاثة، أما هي فنسيت كل شيء؛ لأنها أحبت زوجها؛ ولأن زوجها عرف كيف يضمن لها السعادة، وأما هو فلم ينسَ شيئًا؛ لأنه ما زال يحبها، وما زال يألم لهذه القطيعة، فإذا سألت عن هذا الحب كيف يستطيع «فيليب» أنْ يجمع بينه وبين معاشرته لتلك المرأة التي قدمنا الإشارة إليها، قلنا لك: إنَّ هذا هو سر القصة، وستظهر عليه في الفصل الثاني.

فإذا كان هذا الفصل الثاني فقد عاد الزوجان من سياحتهما في إسبانيا، وقد أقبلت «جنڤييف» تريد أنْ تلقى «هيلين» لتحييها بعد العودة، فإذا رأتها وحيتها أنبئتها بأنها لم تيأس من الزواج بين «فيليب» و«كلودين»، وأنها قد عملت لذلك وجدَّت فيه فوفقت لشيء كثير، ذلك أنها ما زالت تحتال حتى قدمت الفتاة إلى الفتى في ملعب من الملاعب الرياضية، وكانت بين الفتاة والفتى مسابقات ومغالبات في هذه الألعاب الرياضية انتصرت فيها الفتاة غير مرة، ثم نشأ بينهما شيء من الميل الظاهر، ولكنه في نفس الفتاة قويٌّ يكاد يبلغ الحب الذي تنهلُّ من أجله العبرات، وهي تريد الآن أنْ تعلم علم فيليب وما اعتزم في أمر هذا الزواج، وقد احتاطت لذلك، فتحدثت صباح اليوم في التليفون إلى «فيليب» باسم «هيلين» تنبئه بعودتها وتدعوه لزيارتها، فوعد بهذه الزيارة في الساعة الثانية بعد الظهر، وهو قادم من غير شك بعد قليل، أما «هيلين» فتنكر عليها سعيها هذا، وتلومها لومًا شديدًا، ولكن «فيليب» يقبل فتستخفي «جنڤييف» وتتلقاه «هيلين» فيكون بينهما حديث نفهم منه أنه معجب بالفتاة ميال إليها، يود لو استطاع أنْ يقترن بها، ولكنه

لن يفعل، فإذا سألته عن سر هذا لج في كتمانه، وهي تتضرع إليه وتذكر له حب الفتاة وألمها، فلا يحفل بشيء من ذلك، ثم ينصرف، وتعود «جنڤييف» فتنبئها «هيلين» بأن لا أمل في الزواج، وهما تتحدثان إذ يدخل الخادم فينبئ بأن «سيمون» — وهي عشيقة «فيليب» — قد أقبلت تريد أنْ ترى «هيلين»، فتتشاءم المرأتان لهذه الزيارة، وتنصرف «جنڤييف» وتدخل «سيمون»، فيبدأ بينها وبين «هيلين» حديث ملؤه التورية والتعريض، وملؤه الغمز واللمز، ولكنه ينتهي إلى جزء هو عقدة القصة ومشكلتها الحقيقية، ذلك أنَّ «سيمون» تصارح «هيلين» بأنها تريد أنْ تتزوج من «فيليب»، وتطلب معونتها على ذلك، فإذا أظهرت «هيلين» شيئًا من التردد جاهرتها سيمون في عنف وقسوة بأنها مدينة لها بهذه المعونة، وأنها إذا لم تعنها فستلقى من ذلك شرًّا ليس فوقه شر؛ لأن «سيمون» تعلم ما كان بينها وبين «فيليب» من الخيانة، وأنها إنما علمت ذلك؛ لأنها كانت تحب «فيليب»، فانصرف عنها حين فتن «بهيلين»، فما زالت تتبين أسباب هذا الانصراف حتى عرفتها، وإذن «فهيلين» عدوتها قد أساءت إليها حين فتنت «فيليب»، وما زال «فيليب» متأثرًا بهذه الفتنة، فيكفي أنْ تأمره «هيلين» بشيء ليفعله، وإذن فهي تطلب إلى هيلين أنْ ترغبه في هذا الزواج، فإن لم تفعل فستقص أمرها على ميشيل زوجها، وستكون شقية مثلها ثم تنصرف، فإذا هيلين جزعة مضطربة يتنازعها أمران كلاهما شر، فهي لا تريد أنْ تعلم زوجها بما كان من خيانتها إياه، وهي لا تريد أنْ يقترن «فيليب» بهذه المرأة التي يكرهها ويزدريها، فتسرع إلى التليفون، وتدعو «فيليب» لزيارتها، وهي في انتظاره واجمة جزعة إذ يقبل زوجها، فتجزع لرؤيته، وكلما تلطف لها زادها ذلك ألما وحسرة، فإذا سألها زوجها عن ذلك اعتذرت بتعب السفر، وما يزال بها حتى تطمئن إليه قليلًا فيتحدثان، ثم يتركها لعمله.

ويأتي فيليب، فتقص عليه من أمر «سيمون» ما قدمنا، ويظهر لنا أنَّ هذا هو الذي يحول بين الفتى وبين الزواج، ذلك أنَّ «سيمون» أخذت كلما أحست ميلًا من «فيليب» إلى أنْ ينصرف عنها، تنذره بأنها ستقص أمره على «ميشيل»، فتقضي على سعادة «هيلين»، وإذن فهو يعيش مع هذه المرأة التي يكرهها ويزدريها لا لشيء إلا الحرص على أنْ تظل «هيلين» سعيدة، وعلى أنْ يظل سرها مكتومًا، أما الآن وقد ظهر أنها لا تكتفي منه بالعشرة، وإنما تريد منه الزواج، فأمره مضطرب كأمر «هيلين»، وهما يتشاوران إذ يدخل «ميشيل»، فيحيي صديقه القديم، ويتحدث إليه بأن الناس يذكرون عشرته لهذه المرأة فينكرونها ويسخطون عليها، ويلومون «فيليب» لومًا عنيفًا، ويتهمونه بأنه إنما يعاشرها

لثروتها، وينصح له بأن يقطع هذه الصلة، فيجيبه «فيليب» بأنه لن يقطعها، بل هو سيزيدها قوة ومتانة؛ لأنه سيتخذ «سيمون» زوجًا له، ثم ينصرف ويترك هيلين في حال من الوجوم غريبة، وينصرف ميشيل إلى عمله، أما هيلين فتظل واجمة حينًا، ثم يظهر عليها أنها قد اعتزمت أمرًا ذا خطر، فتعمد إلى منضدة وتكتب كتابًا، وتدعو خادمتها فتأمرها أنْ تنصرف بهذا الكتاب إلى «فيليب» فتدفعه إليه وتعود، فإذا انصرفت الخادم نهضت هي في ذهول ووجوم إلى مكتب زوجها، فطرقت الباب ودعت «ميشيل»: أأستطيع أنْ أتحدث إليك؟ فتسمع من وراء الباب صوتًا يجيبها أن نعم! فتستخفي وراء الباب ويسدل الستار.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مكتب ميشيل والمسرح خال لحظة، ثم يقبل ميشيل مضطربًا، فيدعو الخادم ويطلب إليه التليفون، فإذا حمله إليه دعا الطبيب، ثم تدخل أخته جنڤييف، فتفهم من حديثهما أنَّ هيلين مريضة، وأنها أقبلت إليه تحدثه، وكانت أمارات التعب والاضطراب ظاهرة على وجهها، فسألته أنْ يجتهد في منع هذا الزواج بين فيليب وصاحبته، ثم أخذتها نوبة عصبية عنيفة، فإذا هي ترتعد ارتعادًا قويًّا، وإذا دموعها تنهل، وإذا زفراتها متصلة، وإذا هي ترفع من وقت إلى آخر يدها إلى رأسها كأنها تحس ألما فيه، فحملها إلى مضجعها، وتعهدها بشيء من العناية حتى هدأت قليلًا، وهي الآن في سنة من النوم، فإذا قص ذلك على أخته حزنت له، وأخذت تهدئ من روع أخيها، ولكن أخاها مضطرب يفترض الفروض، ويخشى على زوجه كل مكروه، ولكنه يسأل أخته فيم أقبلت؟ فتقص عليه كل ما قدمت لك في الفصل الماضي، فإذا علم أنَّ فيليب قد زار زوجه مرتين، وأنَّ سيمون قد زارتها أيضًا دخله شيء من الخوف والتَّخَوُّن، وعبثت بنفسه الشكوك؛ لأن زوجته لم تحدثه بشيء من ذلك، فأخذ يسائل عن هذه الزيارات، وأخذ يفهم ما بال زوجه كانت مضطربة متعبة حين دخل عليها في الفصل الثاني، وأخذ يسائل عن مقدم سيمون، وأخذت أخته تزيل من نفسه هذه الشكوك والأوهام، ولكنه كان قد دعا خادم زوجه فأخبر أنها غائبة.

وقد عادت هذه الخادم فأقبلت، فيسألها أين كانت، فتنبئه أنَّ سيدتها كلفتها أنْ تحمل كتابًا إلى فيليب، فحملته وسلمته إياه، فلا يزيده هذا النبأ إلا شكًّا أو قل إلا يقينًا بأن امرأته تحب هذا الرجل، وما أسرع ما يتمثل تفسيرًا لحال امرأته، فهي تحب فيليب وتكره هذا الزواج، وقد اجتهدت في أنْ تصرفه عنه، وهي تجتهد في ذلك إذ دخل هو عليهما

فانقطع الحديث، فلما انصرف فيليب كتبت إليه تعزم عليه ألا يتم هذا الزواج، وقد اشتد يقينه وقويَ حتى كاد يجن جنونه، ولكن أخته تسأله: ولم تجتهد زوجك في أنْ تمنع هذا الزواج؟ وماذا عسى أنْ يغير هذا الزواج من حبهما إنْ كان بينهما حب؟ فهي كانت تعلم أنه كان يعيش مع هذه المرأة عيشة الزوج، أفتظن أنها تعلم ذلك، وتطمئن إليه، ثم تجتهد في أنْ تمنع إقراره رسميًّا! ألست تعلم أنها كانت تجتهد معي في تزويج فيليب من هذه الفتاة كلودين؟ وإذن فكيف تستطيع أنْ تفسر ذلك، وأنْ تفترض أنَّ بينهما حبًّا، فيظهر لميشيل أنه مسرف متعجل في افتراضه، ولكنه يظل مضطربًا؛ لأنه لا يفهم أمر هذا الكتاب، فتهدئه أخته، وتطلب إليه أنْ ينتظر حتى إذا أَبَلَّتْ هيلين من مرضها سألها عن هذا الكتاب، فأجابته بما يرضيه ويريحه، وتعلن إليه أنها ذاهبة تتعجل الطبيب، فإذا خرجت تبعها، وظل المسرح خاليًا حينًا، وإذا هيلين قد أقبلت وهي شاحبة ممتقعة عليها آثار التعب والعلة، فإذا دخلت ولم ترَ زوجها أقبلت إلى التليفون تريد أنْ تتحدث، ولكن زوجها يدخل فتنصرف عن التليفون ولما يتمكن من أنْ يراها، ثم يسألها كيف هي وما بالها خرجت من غرفتها؟ فتنبئه بأنها بخير، وأنها تسترد قوتها بعض الشيء، ولكن صاحبنا مضطرب، وهو أشد اضطرابًا من أنْ يصبر على زوجه، ويجنبها الأسئلة المؤلمة، فيسألها عن زيارة فيليب، وعن زيارة سيمون، وعن هذا الكتاب الذي بعثت به إلى فيليب، وهو كلما ألقى عليها سؤالًا لم يرَ منها إلا اضطرابًا وارتباكًا، ولم يحس منها إلا تورطًا في الكذب والتلفيق، ولم يشهد منها إلا ضعفًا وإسراعًا إلى استئناف النوبة العصبية التي شهدتها منذ حين، فلا يبقى في نفسه مكان للشك في أنها خانته، وفي أنها تحب فيليب، فيصرفها إلى غرفتها وهي ضعيفة لا تقاوم إلا قليلًا، فتنصرف وتتركه ذاهلًا قد بهت، وتدخل أخته فتنبئه بأن الطبيب غائب عن باريس، فيجيبها: لسنا في حاجة إلى الطبيب، فليست مريضة، وقد ظهر لي كل شيء، ثم يطلب إلى أخته أنْ تلحق بهيلين في غرفتها، وأنْ تلازمها وتحول بينها وبين مفارقة هذه الغرفة حينًا، وأنْ تمنعها من اللحاق به؛ لأنه ينتظر رجلًا، ويريد أنْ يخلو إليه، فتطيع أخته مشفقة.

أما هو فقد عمد إلى التلفون ودعا فيليب، فوعده أنْ يقدم حالًا، ويأمر الخادم ألا يدخل عليه أحدًا غير فيليب، فإذا أقبل فيليب أجلسه، وعمد إلى أبواب المكتب فأحكم إغلاقها، ثم جلس وقال لصاحبه: لقد عرفت كل شيء، فقد أنبأتني هيلين بما كان بينكما، وهو إنما قال ذلك ليمتحن صاحبه ويبتليه، ولكن صاحبه يجيبه في هدوء، أعلم ذلك! وكيف تعلمه؟ فقد كتبت إليَّ تنبئني به! تنبئك بماذا؟ تنبئني بأنها ستقص عليك كل

شيء، ثم يجتهد فيليب في أنْ يفسر له هذا الأمر، فيذكره بتقديمه إياه إلى هيلين وبأنه كان يحبها، فلم يحفل ميشيل بهذا الحب، ولم يلتفت إليه، أو لم يشعر به، وما زال يتملق هيلين ويتلطف لها حتى كان منها مكان العاشق، فهو إذن قد خان فيليب أو اعتدى عليه، ثم سافر فجأة دون أنْ ينبئ بسفره، وكان فيليب لا يفكر إلا في شيء واحد وهو أنْ ينتقم من هذا الاعتداء، وكان يحب هيلين، فأخذ يتتبعها ويلح عليها، وينتهز ضعفها ووحدتها حتى ظفر منها بما أراد، ثم كانت عودة ميشيل من أمريكا وعرضه الزواج على هيلين، فكتبت هيلين إلى فيليب تقطع ما بينهما من صلة، وكان هذا كل شيء، أما ميشيل فقد استمع لهذا الحديث والغضب مالك عليه أمره، وهو لا يكاد يصدق أنَّ الأمر قد انتهى بالعاشقين إلى هذا الحد، وإنما هو موقن أنهما قد مضيا في الخيانة بعد الزواج، ولكنه يحس من صاحبه الصدق، فلا يفعل هذا الإحساس في نفسه شيئًا، وإنما هو متأثر بالغضب والإهانة، وقد اعتزم أنْ يطرد زوجه، وأنْ يقطع ما بينهما من صلة، وهو يعلن إلى صاحبه أنه يستطيع أنْ يسافر معها إلى حيث أراد، ثم يسأله: «ولكنك تكره هذا السفر فسيحول بينك وبين الاقتران بهذه المرأة الغنية.»

يجيبه صاحبه: لا تكلف نفسك عناء، فلم يبق من سبب لهذا الزواج.

– وكيف ذلك؟

– لأني كنت مقدمًا على هذا الزواج وأنا كاره له، كنت أضحي بنفسي في سبيلك وفي سبيل هيلين، وفي سبيل سعادتكما كانت هذه المرأة قد عرفت كل شيء، وأمسكتني ثلاث سنين، كلما حاولت فراقها أنذرتني بأنها ستقص عليك ما تعلم فأبقى، ثم خطر لها الزواج فأنذرتني وأنذرت هيلين نفس النذير، فأشفقت عليها وعليك وقبلت الزواج، أما الآن وقد علمت كل شيء، فليس ما يدعو إلى هذا الزواج، ثم أريد أنْ أقول لك قبل أنْ أنصرف: إنك ستعفو عن زوجك، وإنَّ هذا العفو هو أجدر الأشياء بك، ولقد أعلم أنك تألم كثيرًا، ولكني أعلم أنَّ ألمك هذا سيزول؛ لأنها تحبك، أما أنا فآلم كثيرًا منذ سنين، ولن يزول هذا الألم؛ لأنها لا تحبني، وهو في هذا الحديث إذ تقبل جنقييف تدعو أخاها، فينصرف فيليب وتنبئ جنقييف أخاها أنَّ هيلين مضطربة قد عاودتها النوبة، فهي تدعوه صائحة باكية مرتعدة باسطة ذراعيها كالطفل، ولكنه يأبى أنْ يذهب إليها، ويصرف أخته ويجلس وقد وضع رأسه بين يديه مفكرًا، ويلبث كذلك حينًا، وإذا هيلين قد أقبلت فتدعوه، فإذا رفع إليها رأسه أخذت تحدثه بصوت متهدج وهي تدافع عبراتها: لقد سألتني فأخفيت عليك، وأنا الآن أريد أنْ أنبئك بالحق، فلست أجد من ذلك بدًّا، لا تكلفي نفسك ذلك فقد علمت

كل شيء، دعوته فسألته فأنبأني ثم انصرف، وإذا هي جاثية بين يديه تستغفره وتسأله العفو!

وهنا موقف أقل ما يوصف به أنه آية من آيات الدقة الفنية في وصف العاطفة الرقيقة المؤثرة، انظر إلى هذه المرأة تقدر خطيئتها، وتشعر بهول هذه الخطيئة، ولكنها تحب زوجها حبًّا لا حد له، وهي لا تستطيع أنْ تعيش بدونه، وهي لا تستطيع أنْ تطمع في عفوه؛ لأنها تعلم أنَّ هذا العفو عسير، فهي تعتذر وتترضى وتضرع ولا تطلب إلى زوجها إلا أنْ ينتظر، وأنْ يكون شجاعًا على احتمال الألم، وانظر إلى هذا الرجل يحب زوجه حبًّا لا حد له، ويثق بها ثقته بنفسه، وقد كان يؤمن الإيمان كله بأنها فوق ما يتورط فيه النساء من الضعف، وفوق ما يتعرض له النساء من الشك، فما هي إلا لحظة حتى انهدم هذا البناء الفخم، وأصبحت امرأته أمامه امرأة كغيرها من عامة النساء، وهو على هذه الخيبة يحب امرأته، وهو يحاول أنْ يخفي هذا الحب، ولكنه لا يجد سبيلًا إلى ذلك، وهو يلتمس وسيلة يستأنف بها الإيمان بزوجه، وهو يكلف نفسه المشقة في تلمس هذه الوسيلة، فكلما فتحت له امرأته بابًا من أبواب الأمل نهض شبح الشك الفظيع فأغلق هذا الباب إغلاقًا عنيفًا، وكيف يستطيع أنْ يؤمن بامرأته وقد خانته وكذبت عليه، واستطاعت أنْ تخفي هذه الخيانة وهذا الكذب ثلاث سنين دون أنْ يحس من ذلك شيئًا أو يتوهمه! كيف يستطيع أنْ يؤمن لها؟ أليست قادرة على أنْ تستأنف الكذب والخيانة وإخفاءهما؟ كلا! لا أستطيع! إنك تحبين هذا الرجل، وإلا فما بالك قد كرهت هذا الزواج، واجتهدت في منعه حتى أظهرت ما خفي من أمرك أمامي، ووصمت نفسك أمامي هذه الوصمة المخزية المنكرة؟ أليست هذه تضحية؟ أفكان يحملك على هذه التضحية شيء إلا الحب؟!

– ولكنك رجل تفهم معنى الشرف ومعنى الواجب خيرًا مما أفهمه، وما أشك في أني لم أقدم هذه التضحية متأثرة بالشرف والواجب، رأيت هذا الرجل وقد ضحى بنفسه في سبيلي ثلاث سنين، وهو يريد أنْ يضحي بما بقي له في سبيلي أيضًا، فكرهت ذلك وأبيته، وآية حبي لك أني وجدت نفسي أمام أمر شاق، هو منع هذا الزواج، فلم أستعن إلا بك، أفتراني كنت أستعين بك لولا أنَّ لي بك ثقة عظيمة.

وإذا جرس التليفون يدق، فتعمد إليه هيلين وتنبئ زوجها أنَّ أخته تريد أنْ تتحدث إليه، فيأبى، فتجيب عنه، ونفهم من الحديث أنَّ جنقييف تسأل عن المريضة وعن أمر الزوجين، وهي قلقة وتريد أنْ تطمئن، فتبذل لها هيلين مما يبعث في نفسها الطمأنينة، ثم

تسمع هيلين تقول: نعم أعدك بأني سأفعل ذلك، ثم تنصرف عن التليفون مترددة، فتقبل على زوجها: «ميشيل، إنَّ جنقييف تكلفني أنْ أُقبِّلك!» ولا ترى من زوجها انصرافًا عنها فتطوقه بذراعيها.

فبراير سنة ١٩٢٤

منا فنا

للكاتب البلجيكي «موريس ماترلانك»

مُثِّلَتْ منذ عشرين سنة ففُتن بها الناس، وكان النقاد يُجمعون على إكبارها، وغلا بعضهم في ذلك فذهب إلى أنها آية من آيات الفن، ولم يتردد «إميل فاجيه» في أنْ يثني عليها أجمل الثناء، ثم تناساها الناس في فرنسا، ولكنها طافت أقطار أوربا وأمريكا، ثم عادت في السنة الماضية إلى فرنسا، فمثلت في بيت «موليير»، ولم يتردد أحد من النقاد المعاصرين في باريس في أنْ يثني عليها، ويحمد «لبيت موليير» اتخاذه إياها بين قصصه التمثيلية؛ ذلك أنها خليقة بهذا الثناء، بل نستطيع أنْ نقول: إنها خليقة بالإعجاب الذي لا حد له، ففيها كل ما تمتاز به القصة التمثيلية المتقنة، فيها الفكرة التي تغذو العقل، وفيها العاطفة التي تغذو الشعور، وفيها الحركة التي تلذ الحس، ثم هي فوق هذا كله جميلة؛ لأنها تمثل فصلًا من فصول التاريخ.

وليس من شك في أنها ليست من الدقة التاريخية بحيث ترضي المؤرخ الحريص على الصدق والإصابة، ولست أقصد إلى هذا النحو حين أذكر أنها تمثل التاريخ، وإنما أريد أنها لا تمثل الحياة العصرية التي نحن فيها ولا تمثل عصرًا قريبًا من العصر الذي نعيش فيه، وإنما تمثل شيئًا بعد العهد به، فاشتد الميل إليه لا لشيء إلا أنه قديم؛ بل لشيء آخر غير أنه قديم، هو أنَّ هذا العصر الذي تقع فيه القصة كثيرًا ما تشتد الرغبة في درسه وتعرف أخباره وآثاره؛ لأنه عصر النهضة الأوربية يوم كانت هذه النهضة حديثة العهد، لا يتاح العلم بها والتنبؤ بمستقبلها إلا للأقلين عددًا، ثم تقع هذه القصة في إيطاليا مهد النهضة، فليس عجيبًا أنْ نجد شيئًا من اللذة حين نرى هؤلاء الإيطاليين الذين يتفاوتون

في رقيِّ العقل تفاوتًا شديدًا، فمنهم من مسته النهضة، فقرأ آثار الفلاسفة من اليونان، وتأثر بما قرأ حتى أصبح فيلسوفًا يزدري ما حوله ويكره الحياة التي يحياها، ويتخذ للحياة مثلًا آخر غير المثل الذي يتخذه الناس، وأكثرهم لا يزال محتفظًا بما ورث من نظم الحياة في القرون الوسطى، فهو يجهل الفلسفة أو يزدريها، وهو يكره هذه المثل العليا التي يسعى إليها الفلاسفة ويحرصون عليها، ثم نجد نفس هذه الحياة — حياة القرون الوسطى — ممثلة أمامنا بما فيها من عادات وأخلاق ونظم ننكرها، فتقع من أنفسنا موقع العجب، كل ذلك يحبب إلينا هذه القصة، ولكن موضوعها نفسه خلاب مستهو للألباب؛ لأنه قديم وجديد معًا؛ ولأنه من هذه الموضوعات التي قد تختلف الأزمنة دون أنْ تنالها الشيخوخة، أو ينقص حظها من الشباب، فهي حية أبدًا، قوية أبدًا، مؤثرة أبدًا في نفوس الناس، ولقد قرأ الناس في تاريخ الرومان وفي تاريخ بني إسرائيل شيئًا يشبه هذا الموضوع شبهًا قويًّا، فكان مؤثرًا في نفوس شعرائهم وكتابهم وأهل الفن منهم، وتناولوه بالشعر والكتابة والتصوير، فلم يزده هذا إلا قوة وشبابًا وقدرة على التأثير في النفوس.

الموضوع في نفسه يسير: رجل قويٌّ جبار، ينتهك حرمة الآداب والأخلاق والديانات، ويستغل قوته وجبروته ليرضي لذة منكرة أو شهوة مرذولة، فيغتصب امرأة من الحق لها أنْ تُرعى حرمتها، وقد روت أساطير الرومان شيئًا من هذا كان من شأنه أنْ ثل عرش الملوك في روما وأقام مكانه الحكم الجمهوريَّ، وروى تاريخ بني إسرائيل شيئًا من هذا كان من شأنه أنْ أنقذ مدينة اليهود المقدسة من الفناء والدمار؛ لأن فاتحًا أغار عليها فحصرها وألح عليها في الحصار حتى لم يبق لها بدٌّ من التسليم، ولكن امرأة جميلة كان الشعب بها مفتونًا ولها محبًّا، وكانت آية في الجمال والروعة، ذهبت إلى هذا الفاتح، فما زالت به تلاطفه وتداعبه حتى فتنته وأغوته ثم قتلته، فارتد الجيش عن المدينة خاسرًا، وقد أعجبت الشعوب بمثل هذه الأساطير، وتناقلت أخبار هؤلاء النساء على أنها تمثل البطولة.

فأنت ترى أنَّ الموضوع ليس في نفسه شيئًا جديدًا، وأنَّ الكاتب لم يخترعه اختراعًا، وسواء أصحت قصته من الوجهة التاريخية أم لم تصح، فليس من شك في أنه أحسن استثماره وتناوله على وجه أرضى العقل وأرضى الشعور وأرضى جمهور النظارة، ولقد مثلت سنة ١٩٢٣ قصة هذه المرأة الإسرائيلية التي قدمت الإشارة إليها، وكان واضع القصة «برنستين» الكاتب الفرنسي المشهور، فلم تنل ما كان ينتظره الكاتب من الفوز؛ لأنه لم يوفق فيها لمثل ما وفق له «ماترلانك» من الجمال والصدق والإتقان.

ولقد يكون من النافع أنْ نوازن بين هاتين القصتين لولا أننا لم نلخص لك قصة «برنستين»، فلنتكلف اليوم بتلخيص القصة التي نحن بإزائها، ولعلنا نعود إلى قصة «برنستين» في يوم آخر.

نحن في أواخر القرن الخامس عشر في إيطاليا، والحرب قائمة بين مدينتين عظيمتين، إحداهما مدينة «فلورنسا» والأخرى مدينة «بيز»، وقد اشتدت هذه الحرب حتى بلغت أقصى ما كان يمكن أنْ تبلغ من القسوة والعنف، وأتيح النصر «لفلورنسا»، فهي تحاصر مدينة «بيز»، وتضيق عليها الحصار حتى استنفدت ما كان فيها من قوة ومئونة وذخيرة وصبر، فالمدينة مشرفة على التسليم، وهي ترسل الوفود تلو الوفود إلى القائد المنتصر تريد أنْ تفاوضه في شروط التسليم فلا تعود هذه الوفود.

وقد ضاق الشعب بالأمر، وسئم الجند هذا الموقف، فالجند ينذر بالفرار، والشعب يستعد للثورة، وقائد الجيش المحصور واسمه «جويدو» يدبر أمره مع اثنين من ضباطه، ينبئه الضابطان بما قدمنا من فشل الجيش، وإفلاس المدينة، واستعداد الأمر للفساد، وبأن جيشًا من مدينة «فنيس» كان مقبلًا لنجدة المدينة، ولكن جيشًا من «فلورنسا» لقيه فهزمه، وكان الشعب والجيش المحصوران ينتظران الخير من هذه النجدة، وهما يجهلان ما أصابهما، فينبئهما القائد بأنه قد بذل كل ما كان يستطيع ليتفق مع المنتصر على الإذعان والتسليم، ولكن هذا المنتصر لم يجبه ولم يرد عليه، فهو في حيرة من أمره، وقد انتهت به هذه الحيرة إلى أنْ أرسل أباه يفاوض هذا القائد، وهو ينتظر أباه من حين إلى حين، ويخشى أنْ يكون قد أصابه ما أصاب الوفود التي سبقته.

على أنه سيء الظن بمدينة «فلورنسا»، لا ينتظر منها إلا الشر كله، وهو يرى الخير لجنده ومواطنيه في أنْ يعرفوا الحقيقة كلها ويموتوا كرامًا، وهم يتحدثون في ذلك إذ يقبل الشيخ أبو القائد، واسمه «ماركو» فيسرع إليه ابنه وصاحباه يسألونه عن المفاوضة ونتائجها، ويسأله ابنه ماذا لقي من القائد المنتصر «برتز فالي»، فيجيبه بأنه لم يلق منه إلا خيرًا وإجلالًا؛ ذلك لأن هذا القائد المنتصر الذي يختلف الناس في أمره ليس فظًّا ولا متوحشًا، وإنما هو رجل رقيق الحاشية، مهذب، متعلم، قد قرأ كثيرًا، وكان مما قرأ كتب هذا الشيخ، فهو إذن قد لقيه في إجلال وإكبار، كما يلقى التلميذ أستاذه، ثم يتحدث الشيخ إلى ابنه وصاحبيه بأنه لقي فلانًا عند القائد، وأنه كان سعيدًا بهذا اللقاء؛ لأن فلانًا هذا من الذين استكشفوا فلسفة أفلاطون واعتنقوها وأذاعوها، فكأن أفلاطون قد بعث

بعثًا جديدًا، ويمضي الشيخ في حديثه عن أفلاطون وفلسفته، وفي حديثه عما يستكشف الباحثون من آثار الأولين، فيحدثهم عن تمثال من تماثيل الآلهة وجد في غابة من الغابات، وكأنه قد نسي أنه أرسل ليفاوض في التسليم، وأنَّ من ورائه شعبًا يموت جوعًا، وجيشًا ينذر بالفرار والثورة، فيذكره ابنه بهذا كله، فيذكر ويجيب: نعم! لقد نسيت أنكم في حرب، على أني أحمل إليكم السلامة والعافية، ثم يسألونه عما يحمل، فتحس أنه يتكلف تأخير الجواب، ويقدم بين يديه كثيرًا من النصح والموعظة والتزهيد في لذات الحياة والترغيب في التضحية، ثم يضيق ابنه بهذه الفلسفة مبينًا أنَّ سعادة الفرد ليست شيئًا بالقياس إلى حياة رجل واحد، فكيف بحياة شعب بأسره! وكما مضى في هذا الحديث لم يزد الأمر إلا غموضًا على السامعين، فيلح ابنه وقد كاد يفقد الصبر، فيجيبه أبوه بأنه يحمل السلامة والعافية للناس جميعًا، ولكنه يحمل الشقاء لأحب الناس إليه وأكرمهم عليه، وهو قد قبل ووعد بتنفيذ ما شرط المنتصر، فإن لم يوفق لهذا التنفيذ، فقد وعد بأن يعود إلى هذا المنتصر ليلقى عنده ما أعد له من العذاب، وهو بار بوعده، فيلح ابنه في تبيين الأمر، فينبئه به وإذا هو منكر فظيع.

ذلك أنَّ القائد قد يئس من الحياة، فهو متهم في فلورنسا بالخيانة، وهو مقتول إنْ عاد إليها، وهو لا يريد أنْ يعود، ولكنه يريد أنْ ينتقم، فهو يريد أنْ يبعث إلى المدينة المحصورة بكل ما تحتاج إليه من قوة ومئونة وذخيرة، لتصبح بين اليوم والغد قادرة على أنْ تستأنف الحرب وتنتصر فيها، وهو لا يشترط لذلك إلا شرطًا واحدًا، ولكن الشيخ قبل أنْ ينبئهم بهذا الشرط ينبئهم بأن مدينة «فلورنسا» المنتصرة قد أزمعت أنْ تمحو هذه المدينة المحصورة محوًا لا تقوم بعده، فإذا تعجلوه في ذكر ما يشترط المنتصر أنبأهم بأن المنتصر يطلب أنْ ترسل إليه «منا فنا» زوج ابنه «جويدو» عارية لا يسترها إلا معطفها، فتمضي هذه الليلة، فإن قبل أهل المدينة هذا الشرط وأرسلوا إليه هذه المرأة، فهو مرسل إليهم كل ما وعد به من مئونة وذخيرة في الليلة نفسها، وإنْ أبوا فالحرب وتدمير المدينة.

لا يكاد القائد الشاب يسمع هذا الشرط حتى يثور ثائره، ويبلغ الغيظ منه أقصاه، وإذا هو مقتنع بأن أباه يرى رأيه، وإذا هو يهنئ أباه بهذه الشجاعة التي سيصطنعها حين يعود إلى القائد فيلقى عنده الموت، وإذا هو يزمع أنْ يذهب إلى الأسوار مع جيشه فيثبت لهجمة هذا الطاغية حتى يموت كريمًا ويموت أصحابه كرامًا، ولكن أباه ينبئه في هدوء وفلسفة أنه قبل الشرط، وأنه ينصح بقبوله وإنْ كان يراه عسيرًا أليمًا؛ لأن فيه حياة شعب وجيش، وليس من الحق لفرد مهما يكن أنْ يؤثر سعادته على حياة آلاف من الناس.

هنا حوار بين الأب وابنه مهما أقل فلن أستطيع أنْ أصف لك رقته وصدقه وجماله، هناك الشيخ يحب ابنه ويعطف عليه ويرثي له، ويرى أنه شقيٌّ مظلوم، ولكنه يحب الشعب ويعطف عليه ويرثي له من الجوع اليوم، ومن الموت والتشريد غدًا، وهو يُقدِّر الحياة الإنسانية والحرية الإنسانية، ويرى أنَّ سعادة ابنه مهما تكن ليست شيئًا، أو لا ينبغي أنْ تكون شيئًا بالقياس إلى حياة فرد فضلًا عن شعب بأسره، وهناك الشاب قويًّا شريفًا محتفظًا بشرفه مؤثرًا إيَّاه على كل شيء، محبًّا لزوجه شديد الغيرة عليها، فهو لا يسمع لأبيه إلا ساخطًا عليه، وهو لا يحفل بالشعب ولا بحياته ولا بآلامه، وهو لا يرى أنَّ من حق الجماعة على الفرد أنْ تكلفه مثل هذه التضحية التي لا يستطيع أنْ يحتملها الإنسان، فقد ضحى بقُوتِهِ ودمه، وهو مستعد لأن يضحي بحياته دفاعًا عن مدينته، ولكنه لا يستطيع أنْ يضحي، ولا يريد أنْ يضحي، وليس لأحد أنْ يطلب إليه أنْ يضحي بشرفه وحبه وسعادته دفاعًا عن هذه المدينة، فيجيبه أبوه بأن هذا كله قد يكون حقًّا في نظر الشباب، ولكنه إذا فكر وروَّى استيقن أنَّ التضحية بالحياة على ما فيها من جمال ليست شيئًا بالقياس إلى التضحية بالشرف التي تطلب إليه الآن، على أنَّ شيئًا من العقل والرويَّة يهون عليه احتمال هذه التضحية، فالشر واقع من غير شك، وستصبح امرأته في يد المنتصر غدًا إنْ لم تذهب إليه اليوم، ولكن الفرق أنها إنْ ذهبت إليه اليوم أحيت آلافًا من النفوس، وإنْ لم تذهب أضاعت شرفها وشرف زوجها، وأهلكت المدينة بأسرها.

أما الفتى فقد جن جنونه حتى أعتقد أنَّ أباه مجنون، وأنَّ الشيخوخة والإشفاق من الموت هما اللذان انتهيا به إلى هذه الضعة، وقد اعتزم ألا يسمع لأبيه، وهو يشفق إنْ ترك أباه حرًّا أنْ يتحدث أباه بشيء من هذا إلى الناس فيغريهم به، أليس الناس حريصين على الحياة! فهو يأمر إذن صاحبه بأن يتخذ أباه سجينًا، ولكن أباه يجيبه بأن ليس في ذلك خير ولا نفع؛ لأن الناس يعلمون من ذلك أنه تحدث إلى مجلس الحكم بما يشترط المنتصر قبل أنْ يتحدث به إلى ابنه القائد، وإذن فليس الأمر سرًّا، فإذا سأله عن رأي مجلس الحكم في هذا الشرط أجابه بأن مجلس الحكم لم يرد أنْ يقبل أو يرفض دون أنْ يسأل في ذلك «منا فنا» نفسها، يزداد سخط الفتى حين يعلم أنَّ شيئًا من ذلك قد يُلقى على مسامع امرأته، فهو مشفق على حيائها وعفتها وشرفها، ثم هو مع ذلك واثق بجوابها قابل له مطمئن إليه، فينبئه أبوه بأنه سعيد بهذا الرضا، ذلك أنَّ «منا فنا» قد قبلت ما اشترط المنتصر، وأزمعت أنْ تذهب إليه الليلة، وهم في ذلك إذ تقبل «منا فنا» شاحبة ممتقعة فيتلقاها زوجها متلهفًا يسألها ويعلن أنها رافضة، ولكنها تجيبه في هدوء: «سأذهب!»

ومهما يلح ومهما يضرع ومهما يغضب ومهما ينذر، فهو لا يجد منها إلا جوابًا واحدًا: «سأذهب!»

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في خيمة القائد المنتصر «برنزفال» وهو بين اليأس والأمل، ينتظر الساعة الموقوتة، لا يدري أتقبل إليه المرأة التي ينتظرها أم يقبل إليه الشيخ، وقد دخل عليه كاتبه، يحمل إليه رسالة من ممثل حكومة «فلورنسا» في الجيش، وفي هذه الرسالة أمر بمهاجمة المدينة غدًا وإنذار بالقبض عليه إذا لم ينفذ هذا الأمر، فيسخر القائد من هذا الكتاب، فيظهر سخطه على ممثل الحكومة في الجيش وعلى مدينة «فلورنسا»، ونفهم منه أنَّ هذا الممثل كان قد كاد للقائد في «فلورنسا»، وأنَّ القائد عليم بهذا الكيد، ولكنه لا يريد أنْ يموت دون أنْ ينتقم، ودون أنْ يقضي ألذ ساعة من ساعات حياته وأسعد وقت من أوقاته بلقاء هذه المرأة، ثم يدخل عليه ممثل حكومة «فلورنسا»، فترى شخصًا قد بلغ الكاتب أقصى ما يمكن أنْ يبلغ من الإتقان في تصويره، هو ماهر في المكر والدهاء، هو النفاق ممثلًا، يتحدث إلى القائد، فإذا حديثه حلو خلاب، وإذا هو كأنه أحرص الناس عليه وأشدهم رغبة في استبقاء مودته ورفع شأنه، ولكنك تشعر بأنه لا يقول هذا كله إلا كذبًا ورياء، ويشتد الحوار بين الرجلين فإذا النفاق قد أزيل، وإذا هما يتصارحان، وإذا القائد ينبئ صاحبه بأنه على بصيرة بكل شيء، وأنه منتقم منه ومن «فلورنسا»، وأنَّ مدينة «بيز» ستصبح غدًا قوية منيعة عزيزة الجانب، وهو يتحدث بذلك إلى صاحبه، وإذا هذا الرجل الضعيف الذي لا يمثل إلا الخداع والمكر قد نهض إليه بخنجره يريد أنْ يقتله، ولكن الضربة أخطأت صدر القائد وأصابت وجهه، ثم يعفو القائد عن هذا الرجل ويأمر به، فيؤخذ سجينًا دون أنْ يصيبه أذى، وتقبل «منا فنا» فإذا دخلت تلقاها القائد في شيء من الاضطراب، أما هي فهادئة ثابتة مطمئنة لا تتكلم إلا قليلًا، تجيب «نعم» أو «لا» حين تُسأل، وهي تعلم ما ينتظرها، وهي مزمعة أنْ تكون عند ما يريد القائد، أليست قد أقبلت لهذا!

– أراضية أنت به؟

– نعم!

– ألا تأسفين له؟

– أكنت تريدني على ألَّا آسف!

– أتريدين أنْ تري ما سأرسله إلى المدينة من مئونة وذخيرة؟

– نعم!

فيأخذ بيدها، ويخرج أمام الخيمة، ويشهدان معًا انطلاق العربات تحمل ما يرسل به إلى المدينة، ثم يعودان وقد أدَّى ما عليه، فيجب أنْ تؤدي هي ما عليها، يقودها في لين ورفق إلى سرير غليظ جاف فتجلس، وإذا هو قد جثا بين يديها وإذا هو يدعوها باسمها الذي لا يعرفه إلا زوجها وأهلها، وإذا هو يتحدث إليها في صوت عذب، وإذا حديثه رفيق بريء من كل غلظة أو جفاء، وإذا هو ليس المنتصر الذي يريد أنْ يلهو، وإنما هو محبٌّ يعبد حبيبته.

– من أنت؟ أتعرفني؟

ثم يستمر بينهما حديث آية في الرقة والطهارة والعفة، ذلك أنهما كانا صديقين، كانت هي تعيش مع أمها في مدينة «فينيز» في قصر فخم عيشة الأغنياء، وكان هو يعيش مع أبيه الصائغ عيشة التجار، فأقبل أبوه ذات يوم إلى القصر يحمل إلى أمها عقدًا ورافق أباه وانتظره في الحديقة، فرأى عند فسقية طفلة في الثامنة من عمرها تنتحب؛ لأن خاتمها سقط في الماء، فألقى بنفسه في الماء يلتقط الخاتم، وكاد يفقد الحياة، وكان في الثانية عشرة من عمره، ولكنه استطاع أنْ يلتقط الخاتم، وأنْ يضعه في إصبع الطفلة، فقبلته وكانت بينهما مودة اتصلت حينًا.

– إذن! فأنت «جانلو»؟

– نعم!

– وكيف عبثت بك صروف الحياة؟ وكيف انقطعت بك الغيبة عني؟

– سافرت مع أبي إلى أفريقيا، فضللنا الطريق في الصحراء، ثم وقعت أسرًا في يد العرب ثم في يد الإسبانيين، ثم عدت إلى إيطاليا فالتمستك في «فينيز»، فعرفت أنَّ أمك فقدت ثروتها وماتت فقيرة، وأنك تزوجت من رجل غنيٍّ عظيم الجاه في مدينة «بيز»، وكنت أحبك حبًّا لا أستطيع أنْ أصفه.

– وكيف لم تسعَ في أنْ تلحق بي؟

– كنتِ سعيدة، وكنتُ شقيًّا، فآثرتُ لك السعادة، ولنفسي الشقاء، ولقد طفت حول هذه المدينة ووقفت على أبوابها، واجتهدت في أنْ أراك فلم أوفق لذلك، ثم حاربت وانتصرت وأجَّرت نفسي للمدن، وأجَّرت نفسي لمدينة فلورنسا، فانتصرت لها في حرب أو حربين، وإذا أنا قائدها أمام هذه المدينة، وإذا أنا أستطيع أنْ أراك! هذه هي القصة.

هنا حوار لذيذ بينهما في قمة هذا الحب الذي أضمره لها الشاب، ترى هي أنَّ هذا الشاب لم يَفِ للحب بحقه، فقد كان يجب عليه أنْ يسعى إليها ويلح في السعي حتى يصل إليها، ويرى أنه قد وفَّى للحب بحقه؛ لأنه إنما أحبها لنفسها لا لنفسه.

– وإذن فأنت تضحي بشرفك وماضيك ووطنك لتراني؟ يجب أنْ أعترف بأن هذه التضحية عظيمة جدًّا.

– يجب أنْ أنبئك بأني لم أُضَحِّ بشيء، فليس لي وطن، ولو أنَّ لي وطنًا لما ضحيت به في سبيل الحب، وإنما أنا أجير، وقد استيقنت أني مقتول في فلورنسا، فأنت ترين أني لم أخسر شيئًا بهذه الخيانة، ولم أشتر هذه السعادة التي أذوقها الآن بثمن قليل أو كثير.

فإذا اعترف لها بهذا في هذه الصراحة وهذا الصدق كان قد وصل من قلبها إلى كل شيء، فإذا هي تحبه، وإذا هي كانت تحبه، وإذا هي كانت تتكلف إخفاء هذا الحب، ولكنها وفية لزوجها تحبه أيضًا وتعطف عليه، وهو يحبها ولكنه يحبها حبًّا شريفًا نقيًّا، فهو لا يريدها على سوء، وهو يتعفف حتى عن تقبيل يدها، وهي تترك له يدها لا تضن عليه بشيء؛ لأنها تعلم أنه لا يطمع منها في شيء، وإذا هما يستكشفان معًا هذا الحب العظيم الذي لا يعدله شيء في الحياة عظمة وطهارة وقوة، وإنهما لفي هذه النجوى الطاهرة الحلوة التي تتجاوز بهما حدود الإنسانية، إذ يذكران من ينتظرها في المدينة، وهو شقيٌّ بهذا الانتظار، فتهم بالعودة لأن الفجر قد أقبل، ولكن كاتب القائد يدخل مضطربًا ينبئ بأن ممثلًا آخر لحكومة «فلورنسا» قد أقبل وقد انتصر على جيش «فنيز»، وهذا الممثل يتهم القائد بالخيانة، ويريد القبض عليه، فيجب أنْ يفر القائد وأنْ ينجو بنفسه، وهو يتحدث بهذا وإذا جلبة تسمع خارج الخيمة على بعد كأن الجيش يثور بقائده، أما القائد فهادئ مطمئن؛ لأنه ينتظر الموت دون أنْ يكرهه أو يخافه بعد هذه الليلة السعيدة التي قضاها مع من يحب، ولكنها جزعة مشفقة تريد أنْ تنجي صاحبها.

– تعال معي إلى المدينة، فأنت في ذمتي، ولن يكون زوجي أقل شرفًا وكرامة منك، فسأقص عليه كل شيء، وسيعرف لك مكانك مني.

يتردد القائد قليلًا ثم يَقبل، ويخرجان أمام الخيمة، وينظران في الأفق، فإذا مدينة «بيز» مضيئة، وإذا آيات الابتهاج والغبطة ظاهرة تملأ الأفق، وإذا هما مسحوران بهذه الزينة مبتهجان لما بعثا في هذه المدينة من حياة.

وإذا الحب والابتهاج قد بلغا من هذه المرأة أقصاهما، فضعفت لشدة ما قاومت ولشدة ما كظمت من عواطفها، فهي تضطرب الآن، وهي محتاجة إلى أنْ تعتمد على صاحبها لتمشي.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في مدينة «بيز» في قصر «جويدو»، والصبح قد أخذ يشرق، «وجويدو» يتحدث إلى أبيه وإلى صاحبيه، فهو مثقل بما احتمل من هَمٍّ وما لقي من ضيم، وهو يذكر أنْ قد تم البيع والشراء، فأكلت المدينة وشربت وفرحت وابتهجت وأخذت بحظها من السعادة، وأخذ هو بحظه من الشقاء، وقد تمت إرادة المدينة فيجب أنْ تتم إرادته، أما أبوه فيرثي له ويعطف عليه، وينصح له بالإناة والروية، ويعترف بأن مصابه عظيم، ولكنه يعترف بأن الأمر لو استؤنف لما تردد في أنْ يسلك السبيل التي سلكها من قبل، ويشتد الحوار بينهما، فإذا القائد مغضب يريد أنْ ينتقم لنفسه، وإذا هو ساخط على أبيه يحتقره ويبغضه ولا يريد أنْ يراه، ولكن أصواتًا تسمع خارج القصر ولا تلبث أنْ تدنو، فإذا ضجيج وعجيج، وإذا صياح وهتاف، فإذا تبين القوم ذلك عرفوا أنَّ «منا فنا» قد أقبلت، وأنَّ الشعب يحييها ويحتفل بها ناثرًا عليها الأزهار باذلًا ما يستطيع لإجلالها وإكبارها، حتى إذا دخلت القصر ودخلت معها الجماعات المحتشدة ظهرت فرحة ومبتهجة، وتلقاها الشيخ فضمها إليه وقادها يريد أنْ يضمها إلى ابنه قبل أنْ ينصرف؛ لأن ابنه كان قد طرده، ولكن القائد لا يكاد يرى زوجه مقبلة إليه حتى يدفعها دفعًا عنيفًا، وحتى يصيح بهذه الجماعات المحتشدة يطردها ويزجرها.

– ماذا تريدون؟ لقد أكلتم وشربتم، وتستطيعون أنْ تأكلوا وتشربوا، فانصرفوا إلى ما تريدون، إنَّ في عيني دموعًا لستم أهلًا لأن تروها.

يدفعهم في عنف ويغري بهم الحرس، فينصرفون إلا شخصًا واحدًا هو «برتزفال» يدفعه وينذره ويهجم عليه يريد أنْ يؤذيه، فإذا امرأته قد قامت من دونه تحميه: دعه.

ثم ما تزال به حتى تنبئه بأن هذا هو «برنزفال»، فإذا سمع اسمه تغير في نفسه كل شيء، فابتهج ابتهاجًا لا حد له، وأقبل إلى الناس يدعوهم ويستعيدهم ليسمعوا النبأ العظيم؛ ذلك أنه استيقن أنَّ امرأته قد أسلمت نفسها لهذا القائد الوحشيِّ، ولكنها ما زالت به تخادعه حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها زوجها منه وزوجها سعيد، فهو لم يكن يريد إلا أنْ يقتل هذا الرجل، وهو كان يعتقد أنه سيلقى في ذلك عناء، وسيتكلفه حينًا طويلًا، فكيف به وقد أصبح عدوه بين يديه!

يعلن هذا إلى الجماهير، ويقبل على امرأته يريد أنْ يضمها ويقبلها شاكرًا مغتبطًا، ولكنها تدفعه وما تزال به وبالناس حتى تسمعهم صوتها عاليًا، ألا إنَّ هذا الرجل لم يمسني، لقد قضيت الليل عنده وحيدة عارية لا يسترني إلا معطفي، ثم خرجت من عنده وكأني خرجت من عند أخي، ولقد دعوته إلى المدينة على أنه جارٌ لاجئ، فله ذمتي وله ذمتكم جميعًا.

أما زوجها فلا يكاد يسمع هذا حتى يسقط في يده، وكأنه قد فقد رشده وصوابه، فهو لا يصدق ما يسمع، وكيف يصدق ما يسمع! وهل مثل هذا الحديث يلائم طباع الناس! وكيف يستطيع أنْ يؤمن بأن هذا القائد قد أمسك عنده هذه المرأة الجميلة فخلا إليها وهي وحيدة عارية ثم لم يمسها ولم ينلها بأذى! ومن الذي يستطيع أنْ يصدق ذلك؟! وفي الحق أنَّ أحدًا من هذه الجماهير لا يصدق ذلك ولا يؤمن له إلا الشيخ، فإنه يخرج من الصفوف ويعلن أنَّ المرأة صادقة، فلا يلبث ابنه أنْ يتهمه بأنه يشارك هذين المجرمين في جريمتهما.

إذن فقد عجز عقل الزوج وعجزت معه عقول هذه الجماهير عن تصديق هذه القصة، فهم لا يستطيعون أنْ يؤمنوا بأن الإنسان يستطيع أنْ يصل من الطهارة والعفة والسمو إلى هذا الحد، وإذا هذا الزوج يلاطف زوجه، ويصطنع ما يملك من حيلة ليحملها على الاعتراف بالإثم، وإذا شيء من الجنون قد أصابه، فهو لا يستطيع أنْ يطمئن ولا أنْ يهدأ إلا إذا سمع من امرأته أنَّ هذا الرجل قد نالها بما تكره، وتيأس من تصديق زوجها، وتيأس من تصديق الجمهور، وهي واثقة بأن صاحبها مقتول إذا لم تكذب ولم تعترف بأنه قد نالها بالأذى، فما أسرع ما تتغير، وما أسرع ما تعترف كاذبة وهي تعلم أنها كاذبة بأن الرجل قد اقترف الإثم، وأنها قد خدعته ولاطفته حتى قادته إلى المدينة لينتقم لها منه، ولكنها هي تريد أنْ تنتقم، هي تريد أنْ تعذب هذا الرجل، وأنْ تقيس تعذيبها إياه بما منحته من لذة هناك حيث خلا إليها، هي تطلب وتلح في الطلب ألا يناله أحد بالأذى، وأنْ يوضع في غرفة من غرف السجن، وأنْ يكون إليها وحدها مفتاح هذه الغرفة لتفتن في تعذيبه! فما أسرع ما يطمئن زوجها، وتطمئن معه الجماهير إلى هذا الحديث، وإذا هم جميعًا مقتنعون بأنها الآن صادقة وهي تكذب، وبأنها كانت كاذبة حين كانت تصطنع الصدق.

خدعوا جميعًا إلا الشيخ فقد فطن لكل شيء، وأقبل إلى المرأة وقد أخذ ينالها شيء من الإغماء، أقبل إليها يشجعها همسًا، ويحثها على أنْ تمضي في الكذب، فالكذب وحده وسيلة النجاة لهذا الرجل الوفيِّ الشريف، أما هي فماضية في الكذب، ولكن حبها لصاحبها قد تجاوز كل حد، وأصبح لا يعدله إلا شيء واحد هو احتقار هؤلاء الناس الذين لا تستطيع عقولهم ولا نفوسهم أن تؤمن للحق إلا إذا صاغته على مثالها.

فانظر إلى هذه القصة وإلى فصولها الثلاثة، فأما الفصل الأول منها فآية في تمثيل البطولة والتضحية والأثرة، وهو يمثل هذا كله في صدق ودقة لا حد لهما.

وأما الفصل الثاني فآية في تمثيل البطولة النقية الطاهرة، التي لا يكاد يعرفها الإنسان أو يلقاها إلا في الكتب والأقاصيص.

وأما الفصل الثالث فهبط بك من هذه السماء الصافية النقية، التي صعد بك فيها الكاتب في الفصل الثاني إلى هذه الأرض التي يسكنها الناس ويعيشون فيها، متأثرين بأخلاقهم ورذائلهم ونقائصهم الاجتماعية، متأثرين فيها بالضعف الإنسانيِّ الذي يحول بينهم وبين أنْ يروا الحق، إلا إذا مُسخ هذا الحق مسخًا، وأصابه الفساد حتى لاءم نفوسهم.

نعم! ينحط بك هذا الفصل من ذلك الملأ الأعلى الذي خلق لتعيش فيه الملائكة، والذي هو جو كله صدق وصراحة وطهارة وبرٍّ إلى هذه الأرض، التي لا يمكن أنْ تستقيم أمورها إلا بالكذب والرياء.

فبراير سنة ١٩٢٤

العذراء المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

أما اليوم فأريد أنْ أحدثك عن فن عجيب من فنون التمثيل، أريد أنْ أحدثك عن الكاتب الفرنسي «هنري بتايل»، ولست في حاجة إلى أنْ أقدمه إليك، فأنت تعرفه من غير شك، ومن ذا الذي لا يعرف هذا الكاتب الذي فُتِنَ به الباريسيون خاصة والفرنسيون عامة، والذي تأثر بهذه الفتنة ففُتن بفنه وبالغ في إتقانه والحرص على الإجادة فيه حتى قتله النقد في يوم من الأيام! نعم! قتله النقد، واعترف النقد على نفسه بهذه الجريمة إنْ صح أنْ تسمى جريمة، فقد كان «هنري بتايل» عليل القلب، وقدم إلى التمثيل قصة لم تعجب النقاد، فأنكروها وبالغوا في إنكارها، وكان وقع هذا الإنكار شديدًا في نفس الكاتب، فمات فجأة وهو يصحح تجارب هذه القصة التي قصت عليه، فالنقد إذن هو قاتله، ومع ذلك فلم يزد النقد على أنْ أدى واجبه للفن، فأعلن رأيه متأثرًا بطباع النُّقَّاد وأمزجتهم؛ فكان حادًّا حينًا، وليِّنًا رفيقًا حينًا آخر، أليست حياة «هنري بتايل» وموته وأثر النقد في هذه الحياة وفي هذا الموت من الموضوعات التي تصلح لإنشاء قصة تمثيلية مؤثرة!

لست أريد أنْ أقدم إليك هذا الكاتب الذي تعرفه، وإنما أريد أنْ أقدم إليك فنه، وأعتقد أنَّ فَنَّهُ في حاجة إلى شيء من التفسير، على أنك تستطيع أنْ تلم بهذا الفن إلمامًا حسنًا إذا قرأت قصة واحدة من قصص هذا الكاتب، وأحسب أنَّ أول ما يمتاز به «هنري بتايل» أنه لا يقصد في قصصه إلى فكرة ولا إلى نظرية، أو هو لا يتخذ الفكرة أو النظرية مقصده الأساسي، وإنما يقصد إلى الجمهور — يقصد إلى الجمهور دون غيره — ويعمل

في الجمهور لا في غيره، فموضوع القصص التي كتبها هذا الكاتب ليس في حقيقة الأمر شيئًا إلا النظارة، ولكن يجب أنْ نتفق، فلن تجد في قصة من قصصه شيئًا يتحدث عن النظارة أو يشير إليهم، وإنما تجد موضوعات مختلفة قصد إليها الكاتب فأتقن درسها وتحليلها وعرضها، ولكنه بنفس هذا الإتقان إنما تناول جمهوره من القرَّاء أو النظارة فعبث بهم عبثًا لا حد له.

أريد أنْ أصف ما في نفسي فأجد شيئًا من الصعوبة في هذا الوصف؛ لأن الفكرة التي أريد أنْ أتحدث بها إليك دقيقة جدًّا، أريد أنْ أقول: إنَّ الكاتب لا يفكر في أنْ يدخل في نفس النظارة أو القرَّاء علمًا جديدًا، أو يحدث فيها شعورًا جديدًا، وإنما يريد أنْ يتناول شعور القرَّاء والنظارة وعواطفهم فيعبث بها، ولكن في نظام يلائم بينها حينًا ويخالف بينها حينًا، وما يزال يجمع بعضها إلى بعض، ويفرق بعضها من بعض، حتى يصل إلى ما يريد، وهو الانتهاء بنفس القارئ أو الشاهد إلى أقصى ما يمكن أنْ تنتهي إليه من التأثر والانفعال، إنْ صح هذا التعبير، فالكاتب في حقيقة الأمر لا يكتب، وإنما يتخذ التمثيل سبيلًا يصل بها إلى نفوس النظارة وعواطفهم فيجمعها بين يديه، فإذا اجتمعت له أخذ يتصرف فيها كما يتصرف عالم الكيمياء في طائفة من المواد والعناصر اجتمعت له، فهو يلائم بينها ويضيف بعضها إلى بعض ليصل بهذه الملاءمة والإضافة إلى أقصى ما يمكن أنْ يصل إليه من الفرقعة العنيفة، وهذه هي لذته، لذته أنْ يثير عواطف الجمهور حتى يكاد يفنيها، لذته أنْ يعبث بهذه العواطف فيؤلف من مختلفها نظمًا تتباين بتباين ضروب العبث التي يعمد إليها، كما يعبث الطفل بطائفة من الحصى جمعها بين يديه، فهو يتخذ منها صورًا متخلفة متباينة، ولكنه ليس طفلًا، وليس يقصد إلى العبث من حيث هو عبث، وإنما هو فنِّيٌّ، وهو يريد أنْ يثير في نفس الجمهور أقوى العواطف وأشدها عنفًا.

فليس التمثيل عنده شيئًا يغذو العقل، وليس التمثيل عنده شيئًا يغذو الشعور، أو هو لا يجعل غرضه الأساسي من التمثيل عنده فن يجب أنْ يؤثر في النفس، وأنْ يؤثر فيها قبل كل شيء، وسواء عليه متى وصل إلى هذا التأثير العنيف أأضاف إليه فكرة جديدة أم لم يضف، أأضاف إليه شعورًا جديدًا أم لم يضف، وهو في أكثر الأحيان خصب لا تخلو قصته من نفع، ولكن هذا النفع كما قلت ليس بالشيء الذي وُضِعَتِ القصة من أجله، وإذا كان هذا هو فن الكاتب، فهل نستطيع أنْ نقول: إنَّ هذا الفن حَسَنٌ؟ وهل نستطيع أنْ نقول: إنَّ هذا الفن خليق بالبقاء؟! وهل من الحق ألا يقصد من التمثيل إلا إلى التأثير في النفس وإثارة العواطف دون أنْ يفكر الكاتب في أنَّ هذا التأثير خصب أو عقيم؟! ثم

أليس في هذا النحو من فهم التمثيل شيء من الانحطاط المعنوي والإسراف في الميل إلى المادة؟! تريد أنْ تؤثر رغبة في التأثير، وأنْ تتأثر رغبة في التأثر لا ترمي إلى غرض آخر غير التأثير؟! فأيُّ فرق بينك وبين من يطلب اللذة رغبة في اللذة، فهو يأكل؛ لأن الأكل لذيذ لا لأنه يغذو، وهو يشرب؛ لأن الشرب لذيذ لا لأنه ينقع الغلة ويروي الظمأ، أليس في هذا النحو من تصور الفن والحياة شيء من ازدراء العقل والإعراض عنه، بل من ازدراء الخير والزهد فيه؟! أليس التمثيل على هذا النحو سلسلة من التجارب خليقة بالعالم يدرس علم النفس، ويريد أنْ يضع قواعده لا الفني الذي يريد أنْ يظهر الناس على صورة من صور الجمال أو يهديهم إلى سبيل من سبل الخير؟! أعترف بأن «هنري بتايل» عالم نفسيٌّ ماهر، يستطيع أنْ يحلل العاطفة، فيصل من تحليله إلى أدق ما يمكن أنْ يصل إليه المحلل، ثم يستطيع أنْ يلائم بين العواطف المختلفة فيصل من هذه الملاءمة إلى تأليف أمزجة غريبة لم يعتدها الناس، ولكن عالم الكيمياء نفسه حين يحلل وحين يلائم لا يقصد إلى التحليل وحده ولا يقصد إلى الملاءمة وحدها، وإنما يقصد إلى شيء آخر هو فوق التحليل وفوق الملاءمة، يقصد إلى العلم وإلى انتفاع الإنسانية بهذا العلم، قَدِّرْ هذا الانتفاع كما تشاء، قل: إنه الانتفاع المادي إنْ كنت من العمليين، وقل: إنه الانتفاع العقلي إنْ كنت من النظريين، ولكن هناك انتفاعًا إنسانيًّا تنتهي إليه مباحث العلماء الذين يحللون ويركبون، فما هذه المنفعة التي ينتهي إليها تمثيل هنري بتايل وتحليله للعواطف وملاءمته بين المختلف منها؟ ما هذه المنفعة الخُلقية أو الفلسفية أو الاجتماعية؟ لو أنه ظفر بإيجاد منفعة قيمة لفنه هذا لكان فنه أجمل فنون التمثيل الحديث، ولكنه لم يوفق في أكثر الأحيان لهذه المنفعة التي يمكن أنْ تنتظر من فن كفن التمثيل، يتجه قبل كل شيء إلى الجمهور لا إلى علماء النفس.

وأريد أنْ تكون القصة التي أحدثك عنها اليوم دليلًا صادقًا على ما قدمت.

نحن في باريس، في قصر فخم لرجل من أشراف فرنسا، بعيد الصوت، رفيع المكانة، عظيم الثروة، حريص على مكانته وصوته وما ورث عن طبقة الأشراف من العادات وشدة المحافظة، هو الدوق دي شارنس، وبين يدينا كاتبه الخاص يرتب أوراقًا على منضدة، فيدخل عليه قسيس صديق للأسرة شديد الاتصال بها، وعلى هذا القسيس آثار الإشفاق والاضطراب. يسأل عن صحة الدوق والدوقة والأسرة كلها، فلا يجيبه الكاتب إلا بالخير، يسأل هل حدث حدث؟ فيجيبه الكاتب: لا! ويدخل الدوق فيصرف كاتبه، ويخلو إلى

قسيسه، فينبئه بأنه دعاه لأمر جلل، وأنه إنْ لم يكن قد أصاب الأسرة أو أحد أعضائها موت ماديٌّ فقد أصابها موت معنويٌّ، هو شر من كل موت، ولا يطيل فينبئه بأن رجلًا صديقًا للأسرة كثير التردد عليها قد أغوى ابنته، فهو لذلك جزع، وليست امرأته أقل منه جزعًا، وهو جزع لأمر في نفسه، جزع لأنه لم يكن ينتظر هذا من ابنته التي لم تتجاوز الثامنة عشرة، والتي كان يراها مثل الطهر والنقاء، جزع لأنه لن يستطيع أنْ يضم ابنته إليه، وقد أصابها ما أصابها من الدنس، جزع لأنه لا يكاد يتعمق الأمر حتى تثور عواطفه وتملكه تلك العادات التي ورثها، والتي كلها حرص على الشرف واحتفاظ به، ثم جزع لأن المجرم صديق من أصدقائه المخلصين، وهو يحاول أنْ يكتم اسم هذا الصديق، ولكن الغيظ يملكه فإذا هو قد صرح بهذا الاسم، فإذا هذا الاسم هو «مرسل أرموري» ذلك المحامي المعروف الذي وصل إلى نقابة المحامين، وبلغ من المجد منزلة دونها كل منزلة، والذي عرف بالشرف والمروءة وجميل الخلق، ثم يقص عليه الأمر، فإذا الصلات بين هذا الرجل وبين الأسرة ليست بعيدة العهد، ولكن هذا الرجل لم يكد يتعرف إلى الدوق حتى مالت إليه الدوقة فلاطفته، وبشت له، ودعته إليها كثيرًا، ثم التقت الأسرتان في المصيف فاشتدت بينهما الصلات، ثم عادت إلى باريس فاستكشف الأب رسائل غرام بين ابنته «ديان» وبين هذا المحامي، وهذه الرسائل لا تدع سبيلًا للشك في أنهما آثمان، ولكن الفتاة قد آثرت الصمت واعتصمت به، فهي لا تجيب عن شيء، وهذا الأمر سر مكتوم يعرفه الزوجان وحدهما، وقد أفضيا به إلى القسيس ليستعينا برأيه ومشورته.

وتدخل الدوقة فإذا امرأة شديدة الحزن، ولكنها رقيقة العقل مفتونة بالحياة وزينتها ولذاتها، طاهرة ولكنها لم تشعر بطهارتها، ولا تظن أنَّ الطهارة تحتاج إلى شيء من الجهد، أو أنَّ في لذات الحياة البريئة ما يعرض الفتيات والنساء للخطر، فهي المسئولة عن إثم ابنتها؛ لأنها أساءت تربيتها، وقوَّت في نفسها الميل إلى الزينة والاستعداد للفتنة، وهي تعترف بذلك، وتأسف له، وهما يستشيران القسيس فيما يصنعان، فيشير عليهما بالمضي في التكتم حتى لا يظهر الناس على شيء، وبالاجتهاد في إصلاح ما فسد من نفس الفتاة وخُلقها، وإنما السبيل إلى ذلك أنْ تكون السيرة معها شديدة قاسية، فتحرم أسباب الزينة واللذة، وتضطر إلى دير من هذه الأديرة القاسية الخشنة تخضع فيه للمراقبة الدينية حتى تبلغ الرشد، ويلح في ذلك ويبالغ حتى ينصح بأن يقص شعر الفتاة، أما الأم فتجزع لذلك ولكنها مضطرة إليه، وأما الأب فقد قبله فرحًا مبتهجًا، وكلف القسيس أنْ يتخذ لذلك أسبابه، فيخرج القسيس ليسأل في دار الأسقف عن أشد الأديرة ملاءمة لهذا الأمر،

فإذا خرج دعيت الفتاة، فيحاول أبوها أنْ يتبين منها جلية الأمر، فانظر إليه منذرًا مخيفًا، وانظر إلى زوجه رقيقة لينة، والفتاة صامتة لا يخيفها النذير ولا تستلينها الرقة، ولكن الأب يتجاوز النذير إلى شيء من العنف، وقد ضاق بالفتاة صمتها، فبدأت تقص أمرها، وبدأت تقصه في خفة وازدراء كأنها لا تشعر بما أتت من إثم، وكأنها لا ترى في ذلك عارًا ولا عيبًا، وكلما مضت في ذلك ازداد أبوها سخطًا وعنفًا، ولكن أخاها يدخل، وهو فتى في المدرسة الحربية، قوي شديد النشاط، مبتهج، مبتسم للحياة، مؤمن بمذاهب المحافظين، مخلص للملك، وهو يفاخر بأخته ويظهرها في كل مكان، وهو سعيد؛ لأن رفاقه معجبون بها يلاطفونها، ويطمع كل منهم في أنْ يتخذها زوجًا له، فإذا دخل تحول الحديث، وأُخْبِر بأن أخته مريضة، فأظهر شيئًا من الشدة، ثم اطمأن إلى الخبر فمازح أخته وأبويه، وهم كذلك إذ ينبئ الخادم بأن سيدة أقبلت للزيارة، فينصرف الفتيان، وإذا هذه السيدة هي زوج المحامي الآثم دعيت ليقص عليها الأمر، فلا تكاد تدخل حتى يتلقاها الزوج مقطبًا محزونًا، ثم لا تكاد تتحدث حتى يخبرها الخبر في غير لين ولا رفق، وإذا هذه المرأة قد صعقها الأمر، فهي بين نازلتين عظيمتين: إحداهما أنَّ زوجها قد خانها وهي تحبه وتهيم به، والأخرى أنَّ زوجها قد أغوى هذه الفتاة ابنة صديقتها، فأساء إلى أحب الناس إليها، فهي لا تدري كيف تعتذر، وهي لا تدري كيف تصلح ما أفسد زوجها، ولكن الدوق لا يطلب إليها إلا شيئًا واحدًا، وهو أنْ يستخفي هذا الزوج من وجهه، وألا يظهر الناس من إثمه على شيء، وأنْ تنقطع بينه وبين الفتاة كل صلة، فإذا خرجت المرأة أعيدت الفتاة، فما زال بها أبوها حتى عرف منها كل شيء، ثم يتركها لأمها، فتنبئها بما اعتزم من إرسالها إلى الدير، ترفض الفتاة ساخرة، فإذا ألحت أمها أظهرت الفتاة شيئًا من الرفض ثم من العصيان، ويدخل أبوها فينهرها نهرًا شديدًا، ثم يرق لها، وإذا هو يضرع إليها في أنْ تذهب إلى الدير لتحتفظ للأسرة بكرامتها، ولتصلح ما أفسد من أخلاقها، فتُظهر الفتاة الطاعة، وتجيب في رفق وقد أصلحت من أمرها ونظمت شعرها: «سأذهب إلى الدير.»

فإذا كان الفصل الثاني فنحن في مكتب المحامي بباريس، وأمامنا هذا المحامي والفتاة وخادمها، ولا نكاد نسمع إلى حديثهما حتى نفهم أنهما قد تكاتبا واتفقا على الفرار، وأنَّ الفتاة خيَّلت إلى أبويها أنها ذاهبة إلى الدير، فأعدا لها كل شيء، وخرجت ذلك اليوم تزور القسيس، وضربت لأمها موعدًا عند القسيس، ولكنها أقبلت إلى صاحبها الذي أعد كل شيء للفرار بعد حين، وقد تم رأيهما على هذا الفرار، فبعد دقائق ستأتي السيارة، فتقلهما

إلى حيث يركبان السفينة إلى إنجلترا، وقد أخفيا أمرهما وكتماه، فلم يُظهرا عليه إلا هذه الخادم.

ولكنهما يشفقان من هذه الخادم؛ لأنها تحب سائق سيارة، وهما يشفقان أنْ تكون هذه الخادم كارهة للرحيل، وأنْ تكون قد أنبأت صاحبها به، فتنكر الخادم ذلك وتقسم، ويصدقها العاشقان ويأمرانها أنْ تذهب، فتأخذ القطار حتى تصل إلى محطة كذا فتنتظرهما هناك، فتنصرف ويخلوان.

ولست ألخص لك ما يدور بينهما من حديث كله حب وفتنة إلا شيئًا واحدًا له خطره، وهو أنَّ المحامي ينصح للفتاة أنْ تفكر وتروَّى؛ لأنه جاوز الأربعين وهي في الثامنة عشرة، وهو يخشى أنْ يكون حبها شيئًا من نزق الشباب وغرور الأطفال، وكلما ألح عليها في ذلك لقيته بالسخط مرة وبالسخرية مرة أخرى حتى يؤمن بأن عزيمتها صادقة، وأنها مستعدة لاحتمال ما ستلقى من الخطوب، ثم يسمع حركة السيارة، فيدنو من النافذة وينظر، فإذا هو يرى امرأته، فهو جزع مضطرب، وهي أشد منه جزعًا واضطرابًا، تنصحه ألا يلقى امرأته فيأبى إلا أنْ يلقاها، فتستحلفه ألا يضعف ولا يلين فيحلف، ثم يخفيها في غرفة ويلقى امرأته، أما امرأته فتزعم له أنها مرت بالمكتب عفوًا فصعدت لتراه، وتطلب إليه أنْ يذهب ليدفع أجر السيارة، ويبحث عن شيء نسيته فيها، فإذا ذهب أسرعت إلى غرف المكتب تفتشها، ثم عادت ومعها مفتاح، ويعود زوجها فتنبئه أنها تعلم كل شيء، وأنه كان يريد السفر مع الفتاة، وأنها أقبلت لتمنع هذا السفر، فإذا أنكر أظهرت له كتابًا تسلمته ينبئها بالأمر، فإذا أنكر أنبأته بأن الفتاة في هذا المكتب، فإذا أنكر أظهرت له المفتاح وأنبأته بأنها رأت الفتاة وأغلقت الباب من دونها، فيعترف بأن الفتاة عنده، ولكنها أقبلت لتراه قبل أنْ تذهب إلى الدير، أما هي فلا تصدقه بل تضرع إليه في ألا يفعل، وهما كذلك إذ تنظر من النافذة فترى أخا الفتاة مقبلًا، تنبئ زوجها، فيشتد جزعه، ويطلب إليها المفتاح ليخلي سبيل الفتاة وليصرفها إلى بيتها متى أقبلت السيارة التي تنتظرها، ولكنها تأبى وتلح في الإباء، وتعد بأنها ستلقى الفتى لقاء حسنًا، وستخفي عليه كل شيء، ثم تضطر زوجها إلى الدخول في غرفة، وتستقبل الفتى، فإذا سألها عن زوجها أنبأته بأنه هنا يتحدث إلى بعض الناس في أمر له، ثم تسأله عن سبب زيارته فيظهر لها كتابًا كالذي في يدها منكرًا ذلك مستبعده، أما هي فتظهر الغضب؛ لأن الفتى شك في زوجها إلى هذا الحد، ويرى الفتى من اطمئنانها وهدوئها ما يقنعه بأنه كان مخطئًا، وبأن الكتاب ليس إلا دسيسة فيعتذر ويكثر من الاعتذار، وتذهب «فاني» إلى زوجها فتدعوه، فيظهر هادئًا

مطمئنًا، ويتحدثون فلا يظهر الفتى من أمره شيئًا؛ لأنه كان اتفق على ذلك مع «فاني»، ثم يزعم أنه أقبل يدعوهما إلى الصيد فيقبلان الدعوة، ويسترق المحامي لحظة، فيلح على زوجه في أنْ تدفع إليه المفتاح ليرسل الفتاة إلى بيتها، فتدفعه إليه، ويأخذه هادئًا ويتركهما لحظة على أنْ يعود وهما يتحدثان، وهي تريد أنْ تشغله عن النافذة حتى لا يرى أخته تخرج من المكتب وتصعد في السيارة، وما تزال به حتى تسمع حركة السيارة وانصرافها، ثم تنتظر لعل زوجها يعود فلا يعود، ثم تدعوه فلا يجيب، وإذا هي مضطربة ذاهلة تدنو من الإغماء شيئًا فشيئًا، فيسرع الشاب إلى البواب فيدعوه، فإذا أقبل سألته «فاني» متحفظة عن السيارة: هل انصرفت؟ وهل صعد فيها زوجها ومعه امرأة؟ فإذا أجابها نعم صرفته ثم صاحت جزعة، فيسألها الشاب فتنبئه بكل شيء، ولست أصف لك غضب الشاب ووعيده، ولكنهما يتفقان على الانتقام.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في فندق من فنادق لندرا، وأمامنا المحامي يتحدث إلى كاتبه، ونفهم من حديثهما أنَّ أسرة الفتاة قد تبعته، وأنَّ أخاها أرسل إليه شاهدين، وطلب إليه المبارزة فرفض، وأنَّ الأسرة طلبت إليه موعدًا للقاء، فضرب لها موعدًا هذا الفندق وهذه الساعة، وهو لا يدري من سيلقاه، وهو لا يدري ماذا ستكون نتيجة هذا اللقاء، وهو يخشى الغدر؛ ولذلك احتاط فكتب كتابين أحدهما إلى «ديان»، والآخر إلى وكيل أعماله في باريس، وهو يكلف كاتبه أنْ يحمل هذين الكتابين ويدفعهما إلى من كُتبا إليهما، ويدخل القسيس فينصرف الكاتب، ويكون بين القسيس والمحامي حوار قيم لذيذ، كنت أود لو استطعت أنْ أترجمه لك، فقد يكون خير ما في هذه القصة من حيث منفعتها العقلية، ولكن الوقت والمكان أضيق من ذلك، يطلب القسيس إلى المحامي باسم الشرف والمروءة وباسم ما تلقى الأسرة من الألم أنْ يرد الفتاة إلى أهلها، فيأبى باسم الشرف والمروءة وباسم الألم أيضًا، ذلك أنَّ الشرف شيء يختلف الناس في تصوره، فللقسيس فيه رأيٌ، وللمحامي فيه رأيٌ آخر، فإذا كان القسيس يرى أنَّ الشرف في أنْ ترد الفتاة إلى أهلها حتى لا تسوء سمعة هذه الأسرة، ولا يفسد مستقبل الفتاة والأسرة بريئة والفتاة جاهلة، فإن المحامي يرى أنَّ الشرف إنما هو في أنْ يأبى تسليم الفتاة، أليست هذه الفتاة تحبه! أليست قد وهبت نفسها له! أليست قد لجأت إليه! أليس قد حماها ووعدها بالوفاء! أليس تسليمها نكثًا للعهد وخفرًا للذمة وحرمانًا للفتاة سعادة أطمعها فيها! وإذا كانت الأسرة تألم فألمها سخيف؛ لأن مصدره العادة والحرص على القديم، ولو أنَّ هذه الأسرة حرة حقًّا

مستنيرة حقًّا لما أنكرت من سيرة الفتاة شيئًا، ولما قطعت الصلة بينها وبينها، ولأقرت هذا الحب فلم تضطر الفتاة إلى الفرار.

أما ألم الفتاة إذا ردت إلى أهلها فألم قويٌّ صادق، لا يعتمد على عادة باطلة أو قديم سخيف، وإنما هو ألم السعيد حرم سعادته، والمشغوف حيل بينه وبين من يهوى، ويعجز القسيس عن إقناع المحامي فينصرف قائلًا: لقد حرمت التوفيق، فلعل غيري أحسن مني حظًّا، ويخرج، فتدخل من نفس الباب الذي خرج منه زوج المحامي، فانظر إلى الزوجين وجهًا لوجه، وانظر إلى ما يحدث في هذا الموقف من تغير العواطف وتبدلها، أقبلت شجاعة قوية العزم، وكانت تعتقد أنها ستكون عنيفة، وأنها ستحسن الدفاع عن حقها وعن شرفها، فأخذت كلما دنت من لندرا تفقد شيئًا من شجاعتها وقوتها، حتى إذا رأت زوجها كانت قد وصلت من الضعف إلى حيث تتشجع، فتكظم عواطفها، وتغالب عبراتها، وتبحث عن القوة المادية فلا تجدها، وعن اللفظ فلا تكاد تظفر به.

أما هو فَقَدْ فجأه لقاؤها؛ لأنه لم يكن ينتظر هذا اللقاء؛ ولأنه يكبر امرأته إكبارًا شديدًا ويعطف عليها عطفًا شديدًا، ويرى أنه قد ظلمها ظلمًا منكرًا، فإذا التقيا على هذا النحو كان في موقفها جمال بشع، على أنها تحتفظ بكبريائها، فلا تبكي ولا تستعطف، ولا تطلب إلى زوجها أنْ يرحمها أو يرد إليها، أليست تعلم أنه لم يحبها إلا أسبوعًا، ولم يشتهيها إلا شهرًا، وأنه قد عاش معها أعوامًا طوالًا لا يميل إليها إلا متكلفًا، أما هي فقد أحبته منذ عرفته، وما زالت تحبه رغم هذه الآثام وهذه المخزيات، وهو يدافع عن نفسه فلا تسمع له ولا تصدقه، ولكنه صادق، فقد لا يكون حبه إياها قويًّا ولكنه أحبها، وقد قوت المحن هذا الحب فأصبح الآن عظيمًا، وهو كلما تكلم ظهر صدقه، وكلما ظهر صدقه أثر في نفس امرأته، وإذا تحوُّلٌ في العاطفة، أما هو فشديد الهيام بزوجه، يدنو منها يريد أنْ يضمها إليه، فأما هي فليست أقل منه هيامًا، ولكنها أشد منه شجاعة وأعظم منه شعورًا بالكرامة، فهي تغالب عواطفها وتقف زوجها عند حده، وتسأله عن شيء واحد تريد أنْ تعرفه، تسأله عن هذا الحب الذي كلفته هذه الأهوال: أقويٌّ حقًّا أم هو لا يعدو الفتنة؟ فإذا هو متردد يفكر، ولا يجد جوابًا صريحًا، ولكن هذا التردد نفسه يكفيها، فتقتنع بأنه لا يهزل في هذا الحب، وبأنه لم يتكلف ما تكلف مفتونًا أو عابسًا، فترضى وتطمئن إلى المنازلة.

وانظر إلى التغير الجديد في عواطفها، انظر إليها راضية مطمئنة تضرع إلى زوجها في شيء واحد، وهو أنْ يعدها بأن يكون إليها هي مرجعه إذا نابته نائبة أو دهمه خطب

أو انقطعت الصلة بينه وبين صاحبته، تلح في هذا الوعد؛ لأنه سيكون الأمل الذي سيحبب إليها الحياة، يعدها، وإذا شيء من الذهول لا حد له قد ملكهما جميعًا، هي هائمة بزوجها تضحي بنفسها في سبيله، وهو يعجب بهذا الحب وهذه التضحية إعجابًا لا يزيده إلا هيامًا، ولكنها تصرفه وتلح في ذلك؛ لأن أبا الفتاة وأخاها ينتظران ويوشكان أنْ يأتيا، ينصرف ويدخلان، فإذا كل شيء قد تغير، وإذا هي تدافع عن زوجها، ولا تتهم بالإثم إلا الفتاة، وتسرف في هذا الدفاع حتى تغضب الرجلين، ويكون بينهما وبينها خصام عنيف، ينطق فيه الفتى بألفاظ الوعيد.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن مع العاشقين في فندق آخر من فنادق لندرا، وقد انتصف الليل وهما يتحدثان، وقد أخذ منهما القلق، ولكنهما يكتمانه، هي مشفقة على صاحبها من أخيها، وهو مشفق على صاحبته من أسرتها، وهما يتكلفان الفرح فلا يصلان إليه، وهي تلح عليه في ألا يخرج من غرفته، فيضحك ويظهر الإباء، ولكن الباب يطرق فيملؤها ذلك خوفًا، فإذا ذهب صاحبها إلى الباب دفع إليه الخادم كتابًا فيقرؤه، وإذا امرأته تطلب إليه موعدًا، وإذا هي تتعجل ذلك وتلح فيه، يأبى استقبال امرأته في غرفة صاحبته، فتلح عليه هذه في استقبالها؛ لأن الأمر جلل قد أصبح فوق هذه الاعتبارات كلها، فإذا استقبل امرأته — وقد استخفت صاحبته في غرفة النوم — أنبأته زوجه بما كان بينها وبين أسرة الفتاة من خصام، وبأنها أشفقت على حياته، فراقبت الفتى حتى علمت أنه استأجر غرفة في هذا الفندق، فاستأجرت هي أيضًا غرفة فيه، وأقبلت تنبئه بمكان الخطر، وتسأله أنْ يلزم غرفته ولا يخرج، فيأبى، وتلح فيعدها، فإذا خرجت لم تكد تجاوز باب الغرفة حتى عادت مضطربة؛ لأنها رأت الفتى واقفًا يترقب، وهي تحدث زوجها بذلك إذ تسمع دنو الفتى، فتكره زوجها على أنْ يستخفي في غرفة نومه وتطفئ النور ويقبل متلطفًا؛ فإذا دخل الغرفة عمدت هي إلى النور فأضاءته ووقفت من الفتى موقف الخصم تردعه وتزجره، وتسأله عما أضمر من جريمة، فيجيبها: أقبلت أطلب أختي، ويردعها هو أيضًا! ألست تحمي عشق هذين الآثمين! ثم يرفع الفتى صوته يعيِّر خصمه بالجبن والاحتماء بالنساء، فإذا أطال في ذلك ظهر المحامي ومعه صاحبته، فكان بين هؤلاء النفر موقف من هذه المواقف التي لا يحسنها إلا هذا الكاتب، يشتد الخصام بين الرجلين حتى يبلغ أقصاه، يخرج الفتى مسدسه ويوجهه إلى صدر صاحبه، وإذا المرأتان قد أقبلتا تحميانه وتتلقيان من دونه الموت، يكف الفتى يده دهشًا، وإذا الزوج قد وقفت من زوجها موقف من يحميه

ويتقي عنه، فانظر إلى هذه الفتاة العاشقة، وقد رأت من خصمها هذه التضحية وهذا الحب فصاحت: إنَّ غيرتي منك لشديدة! إنَّ حبك إياه لأعظم من حبي، إنَّ ألمك لعظيم، وأنا مصدر هذا الألم.

ثم انظر إلى هؤلاء النفر، وقد ثارت عواطفهم حتى كادوا ينسون العالم الذي هم فيه، أما الفتى فغيران، يريد أنْ يسترد أخته، وأنْ يقترف الإثم إذا لم يوفق، وأما المحامي فهائم بالفتاة معجب بزوجه إعجابًا ليس دون الحب، وأما الزوج فعاشقة تريد أنْ تسفك دمها لتحمي من تحب، وأما الفتاة فكلفة بصاحبها، ولكنها معجبة بهذه المرأة، ترى أنها قد ظلمتها ظلمًا فاحشًا، فتسأل صاحبها سؤالًا تزعم أنه سيحل كل شيء: أينا تحب حقًّا؟ لا يتردد المحامي في الجواب، بل يقول في صراحة وهيام: إنه يحب الفتاة ويؤثرها على امرأته، وبينما الفتاة تسمع هذا الجواب فيتألق وجهها بشرًا وسرورًا، إذا المرأة تسمعه فتئن أنينًا مؤلمًا، ولكنها لا تغير من موقفها شيئًا، ثم انظر إلى الفتاة وقد أخذها ذهول يشبه الجنون، فهي تدعوهم جميعًا في لهجة الهائمة إلى أنْ ينظروا في الغرفة كأن فيها شيئًا عجبًا، فإذا أقبلوا جميعًا ينظرون، فلم يروا شيئًا قال المحامي: إنها مجنونة، فتجيبه: سترى أني عاقلة، ويسمعون طلق المسدس، فإذا هي صريعة قد قتلت نفسها.

فبراير سنة ١٩٢٤

الأم المفتونة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

ليس هذا عنوان القصة، بل ليس هو عنوانًا دقيقًا لخلاصة القصة، ولكنه مع ذلك يعطي منها صورة ما، أما العنوان الصحيح فهو «الأم كوليبري»، وهذا اللفظ اسم طائر صغير جدًّا، يعيش في خط الاستواء، له بهجة وجمال يخلبان الأبصار، وفيه قوة ونزق وخفة يضرب بها المثل، وواضح أنَّ هذا اللفظ لم يطلق على بطلة القصة عبثًا، وإنما أطلق عليها الشبه بينها وبين هذا الطائر، فهي امرأة قد ناهزت الأربعين، ولكنها ما زالت محتفظة بشباب الفتاة التي لم تكد تتجاوز العشرين، فهي رشيقة، حلوة، صغيرة القد، خفيفة الحركة كثيرتها، منطلقة اللسان، عذبة اللفظ، حرة فيه، لا تكاد تصمت، ولا تكاد تتكلم إلا بأبعد الكلام عن سنها ومقامها ومنزلتها من ولديها، فلها ولدان، أحدهما في الثانية والعشرين، والثاني في السادسة أو السابعة عشرة.

ولكن الناس إذا رأوا هذه المرأة مع أحد ابنيها لم يفكروا في أنها أم ترافق ابنها، وإنما فكر بعضهم في أنها أخت ترافق أخاها، وتحدث أصحاب الظنون السيئة في أنها فتاة لعوب ترافق عاشقها، وفي الحق أنَّ كل شيء في هذه المرأة يعطي منها صورة غريبة لا تمثل المرأة الجادة ولا الأم التي تشعر بأمومتها، وتعرف لهذه الأمومة ما لها من حق أو كرامة، وإنما هي فتاة نزقة لعوب، لا تفهم الحياة إلا على أنها فصل من فصول اللَّهو وضرب من ضروب المجون، وهي تريد أنْ تلهو ما استطاعت إلى اللَّهو سبيلًا، وأنْ تأخذ من المجون والدعابة بأعظم حظ يمكن أنْ تأخذ به امرأة، وقد أحس ابناها شبابها هذا الغريب

وخفتها المدهشة، فلم يسمحا لأنفسهما أنْ يدعواها كما يدعو الابن أمه، وإنما اتخذا لها اسمًا يختصر شبابها وجمالها ولطف قدها وخفة حركتها، فسمياها «الأم كوليبري»، وهي تحب هذا الاسم وتفتن به، وتساير ابنيها لا كما تساير الأم أبناءها بل كما يساير الصديق صديقه، فهي تعبث معهما وتمزح، وهي تشرب معهما وتدخن، وهي تصغي لأحاديثهما وأسرار لهوهما وعبثهما، ولا تتردد في أنْ تضاحكهما، وربما نصحت لهما وأعانتهما على أسباب اللَّهو والمجون، وهما يحبانها حبًّا لا حد له، حبًّا مصدره الأمومة والبنوة من جهة، ثم الشباب وما يستتبعه من الافتتان في العبث والمجون من جهة أخرى.

وهذه الأسرة غنية نستطيع أنْ نقول: إنها فاحشة الثروة، أما زعيمها البارون «دي ريسبرج»، فرجل من أشراف بلجيكا عظيم الثروة، أراد أنْ يختلط دمه بدم الفرنسيين أو يعيش في فرنسا، ويكون من ذوي المكانة والأثر في حياتها العامة، فتزوج من هذه الفتاة «إيرين»، وكانت يتيمة، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، ورزق منها غلامين أحدهما «ريشار» في الثانية والعشرين، قد تم درسه وأخذ يعمل مع أبيه ويشاركه في حياته المالية، وهو يريد أنْ يتزوج وقد خطبت له فتاة، وأما الآخر فهو «پول» في السابعة عشرة من عمره، وهو تلميذ يستعد لامتحان الشهادة الثانوية، وقد انصرف الأب إلى ثروته يدبرها ويثمرها، وإلى حياته المالية يعكف عليها حتى أنسته كل شيء، أنسته زوجته، فلم يلتفت إليها، ولم يحفل بها، وربما طلب لذته في ساعات قصار بعيدًا عن داره، وهو مع ذلك يحب امرأته وابنيه، ويريد لهم حياة سعيدة لا يشوبها شرٌّ ولا سوء، فهو يبيح لهم من أسباب النعيم شيئًا كثيرًا، وقد أسكنهم قصرًا فخمًا، وأطلق أيديهم في المال يأخذون منه حاجتهم وفوق حاجتهم؛ لأنه يريد أنْ يستمتعوا بهذه الثروة الضخمة حقًّا، ولكن امرأته على ضخامة ثروتها واجتماع أسباب النعيم لها لم تكن سعيدة؛ لأن شيئًا آخر كان ينقصها هو الحب، الحب الذي يخفق له القلب، ويفتح أمام النفس أبواب الأمل، وينهض بصاحبه إلى حياة ليست كالحياة، وإنما هي شيء كالحلم الذي لا يقظة منه، لم يتح لها هذا الحب؛ لأن زوجها منصرف عنها بأعماله المادية؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يتصور الحب على هذا النحو، ولكنها مع ذلك لم تشعر بهذا النقص في أول عهدها بالحياة الزوجية؛ لأنها شغلت بابنيها وتربيتهما، فكانت أُمًّا قبل أنْ تكون امرأة، وأما الآن وقد بلغ هذان الغلامان أشدهما وأخذا يستقلان بالحياة، فأخذ أحدهما يهيئ له عشًّا لا يلبث أنْ يطير إليه، وأخذ الآخر يستعد للشهادة الثانوية حتى إذا نالها ترك البيت وذهب إلى إحدى المدارس العليا، فاستعد لحياة المستقبل، نقول: أما الآن فقد عادت هذه المرأة إلى نفسها،

وفكرت في أمرها، ونظرت فإذا هي قوية فتية، وإذا قلبها وجسمها جميل، وإذا عواطفها حادة وحسها في حاجة إلي التنبيه، فأصابها شيء من القلق لم تتبينه أول الأمر، ولكنها لم تلبث أنْ عرفت كنهه وأسبابه وتعرضت لنتائجه.

فإذا كان الفصل الأول، فنحن في قصر هذه الأسرة، في أجمل أحياء باريس، وقد دعت هذه الأسرة إلى العشاء نفرًا من أصدقائها، فيهم شباب قد انتحوا ناحية يشربون ويدخنون ويتحدثون بأخبار لهوهم وعبثهم، وفيهم نساء منهم سيدات تقدمن في السن واحتفظن بالعادات والآداب القديمة، فهن لا يتحدثن إلا في الجد، وفيهن سيدات أخر من الجيل الحديث يكرهن الجد وينفرن منه، ويطمعن في اللَّهو ويصبون إليه، وبين أولئك وهؤلاء هذه الفتاة «مادلين» التي خطبت «لريشار»، قد أقبلت هذه الليلة ومعها أمها تريد أنْ تتحدث إلى خطيبها ليتعارفا ويبلو كل منهما صاحبه قبل الزواج، وبينما الشبان يتحدثون فيذكرون اللهو والمجون، ويقص كل منهم أخباره على أصحابه، إذا السيدات قد خلون في غرفة أخرى، ولكنهن لا يمزحن ولا يضحكن لمكان أولئك السيدات المحافظات، وما هي إلا أنْ نرى الأم «كوليبري» قد أقبلت مندفعة إلى الشبان في نشاط وخفة، تشكو سأمها وضيق ذرعها بصاحبتها، وتلوم هذا الشباب على اعتزاله وانصرافه إلى أحاديثه الخاصة، وتلح على هؤلاء الفتيان في أنْ يذهبوا إلى السيدات ليدخلوا على اجتماعهن الفاتر شيئًا من حدة الشباب ونشاطه، ثم هي تتكلم في غير انقطاع، وتتحرك في غير هدوء باسمة لهذا الشاب مداعبة لهذا الشاب، وترى الشواب فتستسقيهم فيسقونها، وترى البيانو فتعمد إليه، وتجري أصابعها عليه فإذا إيقاع حسن، وإذا الشبان قد فتنوا بها، فهم يتحدثون بجمالها وخفتها، منهم من يجهر لها بذلك فتبتهج، ومنهم من يسر ذلك، ويذكر لصاحبه أنه يشتهيها ولكنه يائس منها! أليست أم صديقيه! ثم هي امرأة على نزقها وخفتها شريفة معروفة بالعفة لم تذكر عنها سيئة قط، وهو يأسف لذلك أشد الأسف.

ثم تنظر المرأة إلى الشبان يدخنون، فتريد أنْ تدخن، وهي لا تريد ذلك عفوًا، وإنما تريد أنْ تغيظ السيدات المحافظات لعلهن يتعجلن في الانصراف وتوفق لما تريده، فلا تكاد تظهر للسيدات وفي يدها لفافة التبغ حتى يظهرن كره ذلك وإنكاره، ثم يتعللن ويهممن بالانصراف، ولا يبقى إلا السيدات المحدثات ومعهن الخطيبة وأمها قد بقيت كارهة لترافق ابنتها، ومعهن امرأة شيخة، ولكنها تتفلسف فتزدري الجديد، وربما ابتسمت له وعطفت عليه وهي تحتفظ بالقديم لنفسها، وهم يعرفون منها ذلك فلا يحفلون بها ولا يحتاطون

أمامها، وفيها شيء من الصمم، فهم يستطيعون أنْ يتبادلوا من الحديث ما يريدون؛ لأنهم قد أمنوا أنْ تسمعهم، وهم لا يضنون على أنفسهم بالمزاح والإسراف فيه، فيتبادلون أخف الألفاظ وأشدها إيغالًا في العبث، كلهم فَرِحٌ، وكلهم مبتهج إلا الفتاة الخطيبة، فهي تريد أنْ تتحدث إلى خطيبها، وهي تحتال في أنْ تنتحي به ناحية، وإلا أم الفتاة فهي تكره هذا الابتهاج وتمقت هذا المجون، ولا تخفي مقتها على الأم فتلومها وتعاتبها، ولكن الأم لا تجيبها إلا ساخرة مزدرية، فهي تهزأ بالزواج وقوانينه، وهي تسخر من النظم الاجتماعية، وهي لا تذكر إلا الحرية وإلا اللذة، وهم كذلك إذ يحمل إلى هذه الأم كتاب تنظر فيه ثم تخلو إلى ابنها، فإذا هذا الكتاب من عشيقة الفتى تنذره بأنها ستفضح أمره إذا تزوج، فيغضب الفتى لذلك وينصرف مع أصحابه ليفكروا في الأمر، وليردوا هذه المرأة إلى رشدها؛ ولكنهم لا يكادون ينصرفون حتى يقبل صديق لهم اسمه «جورج دي شمبري»، فإذا ظهر أحسسنا من السيدات ميلًا إليه وإعجابًا به، ورأينا الأم تعنى به عناية خاصة، فتتلطف له وتتحدث إليه في دعابة ورفق.

وينصرف الشبان ويبقى هذا الفتى، فما هي إلا أنْ تنصرف الخطيبة وأمها، ولا يبقى إلا تلك الشيخة التي أشرنا إليها وسيدة أخرى شابة ليست أقل نزقًا وخفة من صاحبة البيت، على أنها لا تمكث طويلًا؛ لأن صاحبة البيت طلبت إليها أنْ تنصرف فلا يبقى إلا الفتى والشيخة الصماء وصاحبة البيت هذه، ولذيذ جدًّا منظر هؤلاء الثلاثة، فأظنك قد فهمت أنَّ بين هذا الغلام وبين هذه المرأة صاحبة البيت صلات حب، وهما يتحرقان شوقًا إلى العزلة، ولكن الشيخة لا تبرح مكانها، فهما يخدعانها ويتغازلان، وهي تشعر مرة وتنخدع أخرى، ولكنها لا تبرح مكانها، وكأنها تجد شيئًا من اللذة فيما تشهد؛ لأنه يذكرها شبابها، وقد كره العاشقان مقامها، فما يزالان بها حتى تشعر بأن الساعة متأخرة، فتنصرف ويخلو العاشقان، وإذا الفتى في الحادية والعشرين من عمره، كان رفيقًا لابن صاحبة البيت في المدرسة، وكان يختلف إلى صديقه، وكانت صاحبة البيت كثيرًا ما تخرجهما من المدرسة للنزهة كما تفعل الأم مع ابنها، ولكن الفتى جميل خلاب، وفيه خفة وسذاجة، فلا تلبث الأم أنْ تفتن به، وقد كثر اختلافه إلى البيت فارتفعت الكلفة بينها وبينه شيئًا فشيئًا، ثم تجاوز الأمر بينهما حد الصلات المألوفة بين مثليهما، فإذا هما عاشقان، وهما بهذا العشق سعيدان، ولكن سعادتهما مختلفة، أما الفتى فسعيد على نحو ما يسعد الشبان، لا يفكر في غد ولا يحسب للمستقبل حسابًا، وإنما هو مندفع في لذته وسعادته إلى غير حد، وهو مغتبط بهذا الحب، يشعر بشيء من الكبرياء؛ ظفر

بهذه المرأة التي كانت تستطيع أنْ تجد عنه منصرفًا لو أرادت إلى كثير من الرجال الذين يتبعونها ويتملقونها، وأما هي فسعيدة ولكن مع شيء كثير من الحزن والخوف والأسف أيضًا، هي سعيدة؛ لأنها تحب الفتى؛ ولأنها قد وجدت ما يزيل ذلك القلق الذي أشرنا إليه؛ ولأنها تشعر بأنها كالزهرة قد تفتحت للضوء والندى، فكلها حياة، وكلها حسن، وكلها عاطفة، ولكنها تعلم أنَّ هذا الحب غريب منكر، أليس منكرًا أنْ تحب المرأة صبيًا هو رفيق ابنها في المدرسة؟ ثم ماذا يضمر المستقبل لهذا الحب وعن أي نكبة سيتكشف لهما الغد؟ هي سعيدة ولكنها محزونة مشفقة، على أنَّ هذا الحزن والإشفاق يزيدان في حرصها على السعادة، ويحملانها على أنْ تتزيد منها ما استطاعت، وعلى أنْ ترى لحظتها سنة لأنها لا تعرف بم سيلقاها الغد، وهما يتغازلان فنراها مرة طفلة متهالكة على الحب واللذة، تعبد هذا الفتى عبادة لا حد لها، وتراها حينًا محزونة واجمة، ثم يطول بهما هذا الموقف وقد بلغ الحب من الفتى أقصاه، فهو يريد أنْ يضمها إليه، وبلغ الحب منها أقصاه أيضًا، ولكنها مشفقة أنْ يدخل أحد ابنيها، أليس أحدهما يستطيع أنْ يعود من حين إلى حين؟! أليس الآخر في غرفته يدرس، وقد يخطر له أنْ يأتي ليتحدث إلى أمه حينًا؟! هي إذن تحتاط، ولكن الشاب لا يطيق صبرًا فترسله إلى غرفة ابنها الصغير ليتثبت من أنه منصرف إلى درسه، فإذا خرج الفتى عمدت إلى كتاب وجلست تنظر فيه، وهي كذلك إذ يعود الفتى فيعجبه منظرها تقرأ في الكتاب، فيريد أنْ يقبلها على غرة، وإذا هو يمشي على أطراف قدميه حتى لا تشعر به، فإذا قاربها ولم يبق بينه وبينها إلا أنْ يميل إلى عنقها فيلثمه ظهر ابنها «ريشار» على باب الغرفة، وقد رأى هذا كله فرفع صوته سائلًا عن أخيه، فيلتفت الفتى مذعورًا، ويتكلف المزح فيقول لقد كنت أريد أنْ أخيف أمك!

أما «ريشار» فقد فطن إلى الأمر، ولكنه لا يظهر شيئًا، وإنما يعيد السؤال عن أخيه، ويتكلف «جورج» المزاح، فلا يزيده تكلفه إلا اضطرابًا، ثم يكون بينه وبين صديقه حديث يظهر فيه الجفاء، أما الأم فلم تشعر أو لم تكد تشعر بتفصيل هذا المنظر؛ لأنها كانت منصرفة إلى كتابها، فتسأل ابنها عما حصل فيجيبها متكلفًا، ثم ينبئها أنه منصرف فتقول: سيصحبك «جورج» ينصرف الفتَيَان، وتعود هي إلى كتابها فتنظر فيه، ولكن ابنها قد تكلف نسيان قلنسوته فيعود إلى الغرفة، فإذا رأى أمه عاكفة على الكتاب تردد قليلًا، ثم مشى على أطراف قدميه مشية صاحبه منذ حين، وما زال كذلك حتى يدنو من أمه وهي لا تحسه ولا تشعر به، فإذا بلغها تردد حينًا ثم جاهد نفسه، وإذا هو قد وضع شفتيه على عنق أمه يقبلها قبلة العاشق، فإذا هذه المرأة تضطرب كلها، وإذا كتابها قد

سقط من يدها، وإذا هي تستلقي بين ذراعي مقبلها تناديه في رفق نداء العاشقين! ثم تنظر فإذا ابنها وإذا هما ممتقعان، أحدهما قد ملكه الغضب، والأخرى قد ملكها الخزي، ولكن الفتى يملك نفسه فيقول لأمه: «عمي مساء يا أماه!» ثم يعمد إلى قلنسوته فيأخذها وينصرف.

فإذا كان الفصل الثاني فقد أقبل الصيف، وانتقلت هذه الأسرة من باريس إلى ساحل البحر، واتخذت هناك بيتًا فخمًا لم يتم استقرارها فيه، أما الأب فمنصرف في أيام راحته إلى الصيد، وأما أصغر الغلامين فعاكف على الدرس، يريد ألا يسقط في امتحان أكتوبر، ونرى هذا الغلام جالسًا إلى مكتبه يدرس، وإذا أخوه قد أقبل وعليه آثار الاكتئاب، كأن شيئًا ذا بال يشغله، فيتحدث إلى أخيه حديث الجاد، ويسمع له أخوه دهشًا حينًا ثم يطمئن، ذلك أنَّ أكبر الأخوين ينبئ أخاه بأن جورج قد أساء إلى شرف الأسرة إساءةً منكرةً، وأنه لا يستطيع أنْ ينبئه بهذه الإساءة؛ لأنه ما زال بعد صغيرًا، ولكنه محتاج إلى معونته؛ لأنه مضطر إلى أنْ يبارز جورج، وإلى أنْ يخفي أسباب هذه المبارزة على أبويه وعلى كل إنسان، ويريد أنْ ينتحل أسبابًا سخيفة لهذه المبارزة.

أما الغلام فكأنه قد فهم كل شيء ولكنه لا يظهر شيئًا، وإنما يرى أخوه عليه آثار الثقة والاطمئنان والطاعة، وقد ظهر على وجه الغلام تأثر شديد، فهو ينظر في كتابه ليخفي هذا التأثر، وإذا جورج قد أقبل حسن اللباس جميل الزيِّ يتكلف الزينة، وإذا هو منطلق اللسان يتحدث إلى صديقيه في مجون ودعابة، فيقص عليهما أخبار المدينة والمصطافين، ولا يلقاه الأخوان إلا في فتور وجفوة، فيحس ذلك ولكنه يتكلف المزاج، وإذا «إيرين» قد أقبلت مندفعة كعادتها في نشاط وخفة غريبين، فلا تلتفت إلى ابنيها وإنما تتحدث إلى الفتى مبتهجة منطلقة اللسان: «لقد أحسست أنك أقبلت فأسرعت لأراك»، ثم تمضي في هذا الحديث، فتذكر أنها كانت تعمل في إعداد لون من الحلوى قد اخترعته هي، وأنها قد وفقت وأنها تدعو الفتى ليذوقه هذا المساء، وأنها تريد أنْ تخرج للنزهة فتدعو ابنها فيعتذر، ويعرض جورج نفسه فتقبل مبتهجة، ثم تنظر إليه وإلى لباسه فتنقده، وتلاحظ ملاحظات دقيقة يتأثر منها الفتَيَان، ثم تنظر إلى قفازيه فتأخذهما وتريده على ألا يلبسهما، يأبى الفتى، وتلح، فيزداد إباؤه، فتظهر أنها ستلقيهما في الطين حتى لا يستطيع أنْ يلبسهما، فيضرع إليها الفتى أنْ تردهما إليه، فتأبى وتنصرف، فيتبعها الفتى، وإذا هي تدور حول الغرفة، تعدو والفتى يتبعها من ورائها عَدْوًا كما يفعل الشابان، وابناها

ينظران إلى ذلك، وقد ملكهما الخزي والغضب، ولكن العاشقين لا يحفلان بشيء من ذلك، وإذا الأم قد خرجت عَدْوًا من الغرفة وتبعها الفتى فغابا حينًا، وأقبلت الأم تعدو كأن جريها لم ينقطع، فتجلس متعبة ويجلس الفتى إلى جانبها، ويختلسان غفلة الفتيين، فيضربان موعد اللقاء بعد قليل في مكان غير بعيد.

ثم ينصرف جورج وينصرف أصغر الفتيين، وإذا الأم تلوم ابنها؛ لأنه يتحدث إلى صديقه في جفاء وغلظة لا يليقان؛ ولأن الأدب وحسن اللقاء يكلفانه شيئًا غير هذا، وهي تتحدث إلى ابنها بلهجة الأمر، كما تتحدث الأم إلى طفل تريد أنْ تزجره، وهي تأمر ابنها أنْ يغير هذه السيرة، فسيتعشى الفتى في البيت هذا المساء، ويجب أنْ تتلقاه لقاء حسناء، ثم «لا أريد أنْ أسمع منك شيئًا»، وتهمُّ بالانصراف، وقد جاهد الفتى نفسه، ولكنه عجز عن أنْ يملكها، فيدعو أمه، فإذا التفتت إليه مغضبة طلب إليها في رفق ألا تذهب إلى الميعاد. هنا موقف مؤثر جدًّا! فانظر إلى هذه الأم كانت تزجر ابنها وتردعه فإذا ابنها يعلم كل شيء، وإذا هي بين يديه مختلطة مضطربة لا تدري كيف تقول، وإذا الفتى يرفه على أمه ويرفق بها، وكأنه يستعطفها ويترضاها: «لا أريد أنْ ألومك وليس لي أنْ ألومك، وكنت أريد ألا أتحدث إليك في ذلك، ولكنني لم أستطع، فأنا أضرع إليك ألا تذهبي إلى هذا الميعاد»، وإذا الأم تعتذر إلى ابنها وتستعفيه، وتذكر شبابها الضائع، وهذه القوة الجديدة التي أحستها منذ حين.

أما الفتى فيصرفها عن هذا الحديث ويخطئ، فيذكر لها أنه سينتقم لشرف أبيه، فتثور الأم وقد نسيت أمومتها وخزيها وزلتها، وأخذت لا تذكر إلا شيئًا واحدًا، وهو أنَّ عشيقها معرض للخطر، وهي تريد أنْ تحميه، فهي تسلك إلى ذلك كل سبيل، تسخط حينًا فتنذر، ثم تستخزي حينًا آخر فتستعطف، وقد انهلت دموعها، وأقبل زوجها وهي في هذه الحال، فيسأل، فيخفيان عليه الأمر، فيلوم ابنه ويزجره؛ لأنه قد أغضب أمه وساءها، ثم ينصرف، ويخلو الابن إلى أبيه، ويحاول الأب أنْ يعرف شيئًا فلا يظفر بشيء، فيحدث ابنه بأنه لقي جورج في الطريق، وأنه يحب هذا الفتى ويعجب به، ويريد أنْ يستعين به في عمله ويلحقه بمكتبه، لا يكاد الفتى يسمع هذا حتى يثور ويظهر الخلاف لأبيه، ويظهر الأب أنه مغضب، وما يزال بابنه حتى يعترف له بأن بينه وبين جورج خصومة لا بد من أنْ يصفي حسابها، وهما كذلك إذ تعود الأم وقد لبست قلنسوتها تريد أنْ تخرج، ثم يبدو لها فتعدل عن الخروج، ثم يظهر الأب أنه خارج ليلقى جورج؛ لأنه يحب هذا الفتى، وينهض فيأخذ غدارة صيده، فتنهض امرأته تريد أنْ ترافقه والرجل يلاحظ اضطراب

امرأته وتناقض حركاتها، فيجلس ويلوم ابنه؛ لأنه اضطر أمه إلى هذا الاضطراب، ثم يلح في السؤال عما بينهما، فيبالغان في التكتم، وإذا الرجل عرف كل شيء؛ لأنه كان قد تخيله منذ حين فشك، ثم قامت له البينة الآن، وإذا هو قد بلغ أقصى غضبه، وإذا هو يريد أنْ ينتقم من هذا الغلام! فانظر إلى امرأته وإلى ما بينها وبين زوجها من الحوار، تريد أنْ تحمي هذا الشاب فهو بريء، وهي وحدها الآثمة، أليست أمًّا! أليس هذا الشاب طفلًا حدثًا؟! لم يغوها وإنما أغوته، وليس لأحد أنْ يعتدي عليه، وقد فقدت الآن كل عاطفة وكل عقل وأصبحت غريزة خالصة كأنثى الحيوان تدافع عن صغيرها، وقد وقفت إلى الباب تريد أنْ تمنع زوجها وابنها من أنْ يتجاوزاه، ويشتد بينهما الحوار والخصومة، فإذا هي تنكر النظم الاجتماعية، وتسخر من الزواج والأسرة والأمومة، ولا تؤمن إلا بشيء واحد هو الحب، وإذا الشرف — كما يتصوره الرجال — ليس إلا أثرًا من آثار الوحشية، ومظهرًا من مظاهر الأثرة وقسوة الرجل، وإذا الرجال حين يذكرون العدل والشرف إنما يذكرون منافعهم وأثرتهم وقسوة قلوبهم، ثم تريدون أنْ تعدلوا، فاقتلوني أنا لأني أنا الآثمة إنْ كان هنالك إثم! أما زوجها فيسلك معها سبلًا مختلفة من الرفق والغلظة، فإذا رأى منها هذا العناد أعلن إليها أنها لا تستطيع أنْ تأمن على عاشقها، ولكن على أنْ تلحق به، وعلى أنْ تخرج من هذا البيت فلا تعود إليه، وإذا هي تقبل فرحة مبتهجة، ولكن فرح كله ذهول، هو أشبه بالجنون وقد خرجت تعدو ويحاول ابنها أنْ يتبعها فيمسكه أبوه.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في ضاحية من ضواحي الجزائر، وقد مضى حين على ما كان في الفصل الثاني، واستقر العاشقان في هذه البلاد؛ لأن الغلام يؤدي فيها خدمته العسكرية وقد تبعته صاحبته، فاتخذت في هذه الضاحية المشرفة على البحر بيتًا جميلًا تحيط به حديقة بديعة خصبة، وهي تعيش في هذا البيت عيشة لذة وبهجة، قد تركت الاحتشام وأخذت من التبذل بحظ عظيم، فهي لا تكاد تستر جسمها، ولا تكاد تحتاط في حركاتها ولا في كلامها، أليست ثائرة على الهيئة الاجتماعية وأخلاقها ونظمها وعواطفها! أليست قد ضحت بزوجها وابنيها ومنزلها في سبيل هذا الحب؟! وإذن فما الاحتشام وما تكلف الاحتفاظ بالأخلاق؟! كلها حب وكلها لذة، ولكنها محزونة! فقد بلغت الأربعين، وأخذت تحس انصراف الشباب، وصاحبها في الثانية والعشرين لم يستكمل حظه من الشباب بعد، هي إلى الفناء وهو إلى الوجود، هي إلى الذبول وهو إلى النضرة، والأمر ليس واقفًا عند هذا الحد، وإنما يجاورها قوم من الأمريكيين فيهم فتاة جميلة خلابة ماهرة،

وقد كان الحديث بينها وبين الشاب، ثم استحال الحديث إلى شيء من العاطفة يخفيانه ولكنها تعلمه، فهي تحس الغيرة وآلامها، وترى أنَّ خصمها أقوى منها، له الشباب ولها الشيخوخة، ولكنها مع ذلك تجاهد، وهي في هذه الليلة تنتظر صاحبها وقد تهيأت لاستقباله وهيأت كل شيء، ولكن صاحبها تأخر، فهي تتمشى محزونة متكلفة الابتهاج، ويقبل صاحبها، تلقاه مبتهجة محبة صادقة في الحب وفي الابتهاج، ويلقاها هو مبتهجًا محبًّا ولكن التكلف ظاهر عليه، فإذا جلس إلى المائدة أقبل الخادم يحمل إليه كتابًا بعثت به إليه الجارة، فيظهر اشمئزازًا متكلفًا، ويذكر أنَّ هذا الكتاب قصة حدثته عنها الفتاة وأعارته إياها ليقرأها، أما صاحبته فتظهر أنها لا تحفل بذلك وتبالغ في التلطف للفتى ومداعبته، ثم تدخل عليهما امرأة شيخة شاعت عنها الأحاديث المتناقضة، فذكر الناس أنها أميرة لهت في شبابها إلى غير حد، حتى إذا بلغت سن الشيخوخة، وقد لقيت كثيرًا من الآلام أقبلت إلى الجزائر ومعها ثروة ضخمة، فانصرفت إلى الخير، واتخذت معملًا للبسط تعلم فيه الفقيرات من أهل هذه البلاد، وقد أقبلت ومعها صبيتان عربيتان ونماذج من أعمال تلميذاتها، فيتحدثون وينتهز الفتى وجود هذه المرأة فينسل إلى جيرانه، فإذا خلت المرأتان تحدثتا في الحب، ففهمنا أنَّ هذه المرأة التي تركت كل شيء لتتبع عاشقها ليست مخدوعة، وأنها تعلم كل شيء، وتحس حب صاحبها لهذه الفتاة الأمريكية، وأنها لا تريد أنْ تجاهد ولا أنْ تثقل على صاحبها، وإنما تريد أنْ تترك له الذكرى جميلة نضرة؛ لأنها تحبه حقًّا.

وقد استعدت لذلك فكتبت كتاب الوداع، وهي راضية مبتهجة حتى لا يشتمل هذا الكتاب على شيء مؤلم، وهي تنتظر أنْ يدق الجرس، وتشعر بوجوب الانصراف لتنصرف ذات يوم في غير ضجيج ولا عجيج، وتحاول الشيخة أنْ تسليها وتطمئنها فلا توفق، ثم تعمد العاشقة إلى الكتاب الذي بعثته الفتاة، فتنظر فيه فإذا صحف معلمة، وإذا في هذه الصحف جمل ذات معنى تذكر حب الفتيان ونقاءه وطهارته، وإذا بين صحف الكتاب صورة فوتوغرافية للفتاة، ثم يأتي الفتى ومعه الفتاة، فتلقاهما «إيرين» مبتهجة مبتسمة، وتتحدث إليهما حديثًا عذبًا، وتنصرف مع صاحبتها الشيخة إلى النافذة كأنها تريها جمال الطبيعة، وما سيحدث حين يخسف القمر بعد ساعات، ولكنها تتحدث إليها في أمر هذين الشابين وفي حبهما، «أتعلمين ماذا يصنعان الآن؟ إني لا أراهما ولكني أعلم ما يصنعان، إنهما يتصافحان، ويضغط كل منهما على يد صاحبه، ويجتهد كل منهما في أنْ يقرأ في عيني صاحبه، وسألتفت الآن إليهما في هدوء وبطء حتى يتمكنا من أنْ يفترقا»

وهي صادقة فيما تقول؛ فقد كان الفتيان يتصافحان ويتبادلان نظرات الحب ويتحدثان في رفق حديث الحب، ثم تنصرف الفتاة، فإذا رافقها الفتى قليلًا أنبأته بأنها ستلعب له شيئًا من الموسيقى، ثم يعود الفتى وتنصرف الشيخة، ويظهر الفتى أنه متعب، فتشير عليه صاحبته بأن ينام فيفعل، وتدنو منه تداعبه وتهزه كما تهز الأم طفلها، وقد وضعت شفتيها على جبينه، وما تزال كذلك حتى يغرق الفتى في النوم، وإذا هي تسمع الموسيقى من بعيد، إنها لتلعب له ولكنه منصرف عنها إلى النوم، وكذلك الشباب، ثم تتركه وتعمد إلى كتاب الوداع الذي أعدته فتقرؤه، فإذا هي تتمنى فيه لهذا الفتى سعادة كلها صفو لا يشوبه شقاء، تقرأ باكية وما زال صوت الموسيقى يصل إلى الغرفة، فيمتزج بصوتها الباكي وغطيط النائم.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في باريس عند ابنها «ريشار»، وقد تزوج من خطيبته ولكن بعد مشقة؛ لأن قصة أمه كادت تلغي هذا الزواج، وقد رزق من هذا الزواج طفلًا، وهو يتحدث إلى زوجه وإلى صديق له، وهو يذكر أباه وأنه محزون، وأنَّ حزنه قد آذى صحته، ثم ينصرف «ريشار» إلى كتاب يكتبه، وتتحدث زوجه إلى الصديق، فيذكران الأم المفتونة، وما يصل من أحاديثها إلى باريس وما يتحدث الناس به من مجونها وتبذلها، وأنها تظهر في حديقتها عارية أو كالعارية، وأنها تسرف في تبذير ما لها؛ لتتمتع صاحبها بكل لذات الحياة، ثم تذكر الزوج أنها مطمئنة، فقد اشترطت على زوجها أنْ تنقطع بينه وبين أمه كل صلة وَقَبِل زوجها هذا الشرط، وهم كذلك إذ يدخل الخادم، فيدفع إلى ريشار بطاقة، ينظر فيها ثم يضطرب لها، «وأين هذه السيدة؟» هي خارج الغرفة، «لتنتظر قليلًا!» ويريد أنْ يتحدث إلى زوجه، فإذا هي قد فهمت، وإذا هي تجيبه في عنف بأنه يعلم ما اتفق عليه، وأنها لا تسمح بأن تدخل هذه المرأة بيتها، وأنَّ له أنْ يراها لينبئها بذلك، ثم تنصرف مع الصديق، ويأذن ريشار بإدخال السيدة فإذا هي أمه محزونة تدافع عبراتها، لا تكاد تثبت على قدميها، ولا تكاد تنطق بتحية ابنها، وابنها متأثر، ولكنه يتجلد ويتكلف القوة، فيحي أمه تحية فاترة، وتجلس فيسألها ما خطبها؟

– لقد مررت بباريس فأردت أنْ أراك، ثم يسألها: ومتى تعودين إلى الجزائر؟

– لن أعود!

– وكيف؟

– لقد انقطع كل شيء بيني وبين جورج!

– وماذا تريدين إذن أنْ تفعلي؟

– لا أدري! أريد أنْ أتم حياتي وقد مررت بباريس فأردت أنْ أراك، وتسأله عن أخيه، فيذكر أنه في مدرسة الهندسة، وأنها تستطيع أنْ تراه، ثم تسأله عن ابنه، وتشكر له أنْ كتب إليها ينبئها بمولد هذا الطفل، فيخبرها أنَّ ابنه بخير، وأنه خرج مع مرضعه للنزهة، ولكن المرضع تدخل فتسأل عن شيء، وتعلم الأم أنَّ ريشار يريد أنْ يخفي عليها ابنه، فترى ذلك حقًّا ولكنه لا يزيدها إلا حزنًا ولوعة، ويسألها كيف تريد أنْ تعيش: وأين تريد أنْ تقضي الشتاء؟ فيظهر له أنها أنفقت كل ما كان عندها من المال، ولم يبق لها إلا شيء ضئيل يستطيع أنْ يكفل لها حياة خاملة متواضعة.

– وأين أنا إذن؟

فتجيبه بأنها لم تأتِ مستجدية، وأنها قد نبذت أسرتها، وهي أكبر من أنْ تضرع إلى هذه الأسرة، ولكن الحديث لا يكاد يستمر حتى تشعر أنَّ هذه المرأة لا تستطيع أنْ تعيش وحدها، وأنها قد لجأت إلى ابنها تسأله أنْ يعلمها كيف تعيش، فلقد همت بالموت، ولكنها عجزت عنه، وهي لم تتعود هذه الحياة الخشنة حياة البائسات، وهي لا تريد شيئًا ما، وإنما تريد أنْ تتم أيامها، فأروني كيف أتم هذه الأيام! ماذا تريدون أنْ أصنع؟ يجب أنْ تروا لكم فيَّ رأيًا! أسكنوني حيث تريدون، أبيحوا لي أنْ أراكم وأنْ أرى هذا الطفل خُلسةً، إني أعلم أنَّ اسمي يخجلكم، وأنَّ محضري يخزيكم، ولكن ماذا تريدون أنْ أصنع، يجب أنْ تحتملوني حتى أموت، وقد بلغ بها التأثر أقصاه، وفقد ابنها كل قوة فهو يضمها إليه ويقبلها، وهي محزونة ولكنها سعيدة بين ذراعي ابنها، ثم يضطرها ابنها إلى غرفة، ويدعو زوجه فيقص عليها الأمر، فتلقاه في عنف وغلظة، ولكنها تتكلف هذا العنف وهذه الغلظة، وإذا مخبرها خير من مظهرها، وإذا هي رفيقة رحيمة، فما أسرع ما تعمد إلى الغرفة فتفتحها وتدعو المرأة — ولكن في غير رفق — إلى أنْ تأتي فترى طفل ابنها، تأتي الأم متعثرة تكتم زفراتها، فتتبع امرأة ابنها ذليلة مخفوضة الرأس، أما ريشار ففرح؛ لأنه رأى من زوجه هذا الرفق، وهذا العطف، فيريد أنْ يتحدث إلى أبيه ليصلح بينهما، ويعمد إلى التليفون، ولكن أباه يدخل.

– هي هنا!

– من هي؟

– أمي!

لا يظهر الشيخ عجبًا، وإنما يظهر ألمًا شديدًا، ويستعطفه ابنه فإذا الرجل قريب جدًّا من العفو، وإذا هو يريد أنْ يعفو، ولكنه يسأل ابنه: اذكر اسمي لها؟

– نعم!
– أأظهرت شيئًا من الاستعداد للصلح؟
– لا!
– إذن فليست تحبني، ولئن عرضت عليها العفو لترفضنه، ثم العفو، إني لا أستطيعه، إنَّ عقلي ليدعوني إليه، وإني لأراه حقًّا وخيرًا، لكني لا أستطيعه؛ لأن شعوري يأباه، وتربيتي لا تعين عليه، وما ورثت من دين وعادة يحول بيني وبينه.

وهنا حديث أقل ما يوصف به أنه وصف صادق لحياتنا العقلية في هذا العصر، فعقولنا ترى أشياء يرفضها شعورنا وتنكرها عواطفنا؛ ذلك لأن الجديد قد كسب العقول، أما القديم فما زال مستأثرًا بالعواطف والشعور، فنحن نرى أنَّ هذه المرأة خليقة بالعطف والعفو، وأنَّ زلتها لها عذرها، وأنها ليست أمرًا لا يحتمل المغفرة، ولكن عواطفنا الدينية والاجتماعية وشعورنا بالشرف والغيرة، كل ذلك يحول بيننا وبين أنْ تكون حياتنا العملية ملائمة لحياتنا العقلية، وإذن فالشيخ يوصي ابنه خيرًا بأمه، ويعد بأنه سيقوم بحاجاتها جميعًا، وسيجتهد في أنْ يجعل الحياة عليها هينة لينة، ولكنه لا يستطيع ولا يريد أنْ يراها، ثم ينصرف وقد انحنى ظهره، وظهرت عليه آثار التعب والعناء.

أما ابنه فيفتح بابًا، فإذا هو يرى المرأتين تتحدثان في شيء من الصفو والمودة، وبينهما الطفل قد جمع بين قلبيهما، فيدعوهما سعيدًا، وتهم أمه أنْ تنصرف وقد قنعت بهذا العطف، ولكنها تطمع في أنْ تشعر بأن امرأة ابنها قد صفحت عنها، وهي لا تريد أنْ تقول لها ذلك، وإنما تطمع في أنْ تقبلها، فتعتنق المرأتان وقد امتزجت دموعهما، وإذا الجرس يدق فيريد ريشار أنْ يخفيهما ليستقبل الطارق، ويتقدم إلى غرفة وتتبعه امرأته وتبقى أمه كأنها تصلح من أمرها، وإذا الخادم تدخل فتنبئ بأن فلانًا بالباب، تجيبها الأم وقد نسيت موقفها وخيل إليها أنها في بيتها: ليدخل!

فإذا رأت تردد الخادم ذكرت موقفها، ثم جاهدت نفسها وقالت: نعم ليدخل فأنا الجدة.

فبراير سنة ١٩٢٤

المتجردة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

هي عندي آية من آيات الكاتب، ومن خير ما أخرج للناس في التمثيل، فيها كثير جدًّا من الحق، وفيها كثير جدًّا من الدقة، وفيها كثير جدًّا مما يملأ القلوب رحمة ويبعث في النفس عاطفة الإشفاق الشديد، ومع ذلك فأنا أتردد التردد كله حين أريد أنْ أحكم عليها من الوجهة الخلقية، ولعل الخير هو ألا أحكم عليها من هذه الوجهة، وأنْ أترك القارئ يرى فيها رأيه، ذلك أنَّ الكاتب التمثيلي ليس مكلفًا في كل وقت أنْ يتخذ الأخلاق الكريمة غاية لما يكتب وغرضًا لما يضع من قصص تمثيلية، فقد يقصد الكاتب إلى إظهار صورة من صور الحياة واضحة جلية، وقد لا يتعدى قصده هذا الحد، قد يكون مصورًا فنِّيًّا لا أكثر ولا أقل، وهو في هذه الحالة قد يلائم الأخلاق الكريمة وقد لا يلائمها؛ لأن موضوع القصة أو الصورة التي أراد أنْ يظهر الناس عليها تلائم هذه الأخلاق أو تخالفها.

على أني أراني غير بعيد من القصد في هذا الحكم، فإن الكاتب التمثيلي أو القصصي الذي لا يقصد إلا إلى التصوير وحده، ولكن إلى التصوير الصادق الصحيح، من خير الدعاة إلى الأخلاق الكريمة والحاثين على الفضائل التي اتفق الناس على إيثارها، فليس وحده مرشدًا إلى الخير ذلك الذي يدعوك إليه ويدلك عليه صراحة دون رمز ولا إيماء، وإنما يرشدك إلى الخير ذلك الذي يظهر لك الحياة أو صورة من صور الحياة على حقيقتها واضحة جلية، بشعة أو جذابة، تاركًا لعقلك أنْ يحكم حرًّا مختارًا دون أنْ يقدم إليك هو ما ينبغي أنْ تحكم به، وإذا كان هذا حقًّا فليس يعنيني أنْ يكون الكاتب قد تعمد في هذه القصة خلقًا من الأخلاق أو فضيلة من الفضائل فدعا الناس إليها، وإنما الذي

يعنيني أنْ تكون هذه الصورة التي قصد إلى تصويرها صادقة واضحة، وأنْ تكون من الصدق والوضوح بحيث تمثل للناس خلالًا يشعرون بالخير في النفور منها، ولست أشك في أنه قد وفق إلى هذا كل التوفيق، ثم يعنيني شيء آخر، هو أنْ تكون للقصة قيمة علمية، أو — بعبارة أوضح — قيمة تعليمية، أو — بعبارة أشد وضوحًا وجلاء — يعنيني ألا تشهد القصة أو تقرأها حتى تخرج منها بشيء جديد صحيح، لم تكن تعلمه قبل أنْ تقرأ القصة أو تشهدها، وقد وفق الكاتب لهذا أيضًا، ثم يعنيني أنْ تكون إلى هاتين الخصلتين مستثيرة للعاطفة باعثة لضروب التأثر الشديد، تحمل من يقرأها أو يشهدها على أنْ يشعر شعورًا قويًّا بالرحمة والإشفاق حينًا، وبالسخط والغضب حينًا آخر، وقد وفق الكاتب إلى هذا أيضًا، فكانت هذه القصة غريبة بين قصصه الكثيرة، فلعلك تذكر أني كنت أقول لك عن هذا الكاتب: إنه يعنى قبل كل شيء بإثارة العواطف واستحداث الجهاد العنيف بينها، وإنه يتخذ التمثيل وسيلة إلى العبث بحس الجمهور وعواطفه، وليس يعنيه إلا أنْ يرى هذا الجمهور متأثرًا شديد الاضطراب، هو كذلك في أكثر قصصه، ولكنه في هذه القصة يضيف إلى هذه الخصلة هذه الخصال التي أشرت إليها آنفًا، فهو يستثير العواطف القوية، وهو يصور فيصدق في التصوير، وهو يعلم القارئ شيئًا لم يكن يعلمه، وهو يظهر وجوهًا من الخير والشر ينتفع الناس بظهورهم عليها، ثم إني لم أذكر إلى الآن خصلة أخرى من خصال هذه القصة، هي الخصلة اللفظية، فلست أعرف للكاتب قصة بلغ فيها من جودة اللفظ ورقة الأسلوب، وخفة الروح، وسهولة الحوار، وقصره ما بلغه في هذه القصة، بل لقد بلغ من ذلك حدًّا أعتقد معه أنَّ من العسير جدًّا — إنْ لم يكن من المستحيل — أنْ تترجم بعض فصول هذه القصة إلى لغة أجنبية؛ لأن خصائص اللغة الفرنسية والعقل الفرنسي بلغت فيها من القوة والشدة حدًّا تستحيل معه الترجمة.

أراد الكاتب أنْ يصور لنا ضربًا من ضروب الحياة بين طائفة من طوائف الفرنسيين هي طائفة المصورين، وأنا زعيم لك بأنك لا تكاد تفرغ من قراءة هذه القصة حتى تلم إلمامًا صالحًا بشيء غير قليل من أخلاق هذه الطبقة من الفنيين، وألوان حياتهم، وما ألفوا فيما بينهم من اصطلاح، وما يشعر به كل منهم بالقياس إلى نفسه وإلى أصحابه، ولا تكاد تقرأ هذه القصة حتى تسأل نفسك: أليس من الحق أنه إذا امتازت الطوائف، وتكونت لها شخصية ظاهرة، فلا بد من أنْ تكون لها أخلاقها وخصالها ونظمها الخاصة، التي تميز بينها وبين غيرها من الطوائف من جهة، وتميز بينها وبين مجموع الأمة من جهة أخرى، وبعبارة واضحة: أليس هناك ضربان مختلفان من الأخلاق أحدهما الأخلاق العامة التي

هي أخلاق الشعب جملة، والأخرى الأخلاق الخاصة التي هي أخلاق الجماعات المختلفة المتمايزة، فللمصورين أخلاقهم، وللعمال أخلاقهم، وللمعلمين أخلاقهم وهَلُمَّ جرًّا، وإذن فالأخلاق لم تهبط من السماء، ولم يبتكرها العقل ابتكارًا، ليست أثرًا من آثار الدين، وليست نتيجة من نتائج الفلسفة، وإنما هي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية، ولكني أحس أني قد تعمقت وذهبت بك في الفلسفة إلى أمد بعيد، فلنعد إلى القصة، فهي أخف من ذلك روحًا وألذ عشرة.

نحن في باريس، في قصر من قصور الفن الفرنسي، يجتمع فيه المصورون وأصحاب التماثيل ومن إليهم من أصحاب هذه الفنون، وفي هذا اليوم قدَّم المصورون آثارهم الفنية، وهم يستبِقون ليظفروا بالجوائز أو بالوسام الذي يمنح لأيهم تفوَّق في التصوير وقدم ما أعجب جمهور الممتحِنين، ونحن نرى جماعات المصورين شبانًا وشيوخًا وكهولًا، ونرى بينهم طائفة من النقاد، ونرى قليلًا من عامة الناس قد أقبلوا يشتركون في هذه الحفلة، ونرى بنوع خاص قليلًا من الفتيات اللاتي يعملن نماذج للمصورين، أقبلن يشهدن حظوظ هؤلاء المصورين من هذه المسابقة، وبين هذه الجماعات كلها أحاديث كثيرة مختلفة ليس إلى ترجمتها من سبيل، ولكنها كلها صور مصغرة من أخلاق هذه الطائفة من الفنيين، ولست تستطيع أنْ تمضي في هذا الفصل الأول دقائق دون أنْ تضحك وتغرق في الضحك؛ لأن لهؤلاء المصورين في جدهم وهزلهم لغة وأساليب وطرقًا من التصور مضحكة لذيذة حقًّا، ولكن الذي يعنينا من كل هذه الجماعات، ومن حركاتها العنيفة المتصلة رجل واحد، قد انتحى ناحية في المقصف ومعه فتاة وصديق له، وهو يريد أنْ يتجنب الحركة ويعتزل الضوضاء، وهو قلق مضطرب شديد القلق والاضطراب، وليست صاحبته أقل منه اضطرابًا، هذا الرجل هو المصور «برنييه»، وهذه الفتاة هي نموذجه «لولو» أو «لولوت» أو «لويز».

أما الرجل فمتوسط العمر أدنى إلى الشباب منه إلى الكهولة، جميل الطلعة، حسن الطبع، يظهر أنَّ له في التصوير مقدرة ممتازة، وهو قد قدم في هذه المسابقة صورة امرأة متجردة، صورها تصويرًا خلفيًّا، وهو يود لو ظفر بالوسام، ولكنه شاب، فهو لا يطمع في الوسام، وإنما يطمع في أنْ يظفر من أصوات المحكمين بعدد لا بأس به، وينازعه مصور آخر شيخ، ولكن هذا الشيخ بغيض إلى جمهور المصورين، وأما هذه الفتاة «لولوت» فقد قلت إنها نموذج المصور «برنييه» وهي فتاة جميلة جدًّا، فقيرة جدًّا، أو قل: إنها معدمة

بائسة كأضرابها من النماذج، قد اشتغلت نموذجًا لطائفة من المصورين، ولكنها اشتغلت عند اثنين يعنياننا بنوع خاص، أحدهما المصور «روشار» اشتغلت عنده سنتين، وكان بينها وبينه حب، فكانت له خليلة، ثم انصرفت عنه إلى «برنييه» هذا، فأقامت عنده، وشاركته في حياته، وكانت في الوقت نفسه خليلته ونموذجه في التصوير، وليست هذه الصورة التي يقدمها اليوم إلا صورة هذه الفتاة، وهي تحب المصور حبًّا شديدًا، وقد تكلفت ضروبًا من العناء لتسهل عليه الحياة، وهي الآن ترجو أنْ يكون له من الفوز ما يكافئ شيئًا من هذا العناء الذي تكلفته، فقد جاعت وجاع صاحبها، وضيَّقَتْ على نفسها وعلى صاحبها في كل شيء إيثارًا للاقتصاد، ومع ذلك فهما مدينان للبان بمقدار ضخم من المال، فلو فاز صاحبها اليوم لاستطاع أنْ يبيع صورته، فيؤديا دينهما ويرفها على نفسهما، والمصورون يصوتون ويصوتون، وكلما فرغوا من تصويت ظهر أنَّ الحظ مسعد «لبرنييه»، فأمله يشتد ولكن خوفه يشتد أيضًا، والناس من حوله يشجعونه ويؤيدونه ويمازحونه ويمازحون صاحبته، وما يزالون كذلك حتى يبلغوا التصويت الأخير، فإذا الفوز لصاحبنا «برنييه»، وإذا هو قد نال الوسام بكثرة قليلة جدًّا، ولكنه نال الوسام وأصبح مظهرًا من مظاهر المجد الفرنسي في التصوير، وتغيرت حياته كلها فانقطعت الصلة بينه وبين الفقر، واتصلت بينه وبين الثروة، وسيقصد إليه منذ اليوم أشراف الناس وأغنياؤهم يشترون آثاره بالأثمان الضخمة، وقد بدأ ذلك فأقبل إليه تاجر من تجار الصور فساومه صورته هذه، وانتهت بهما المساومة إلى ٦٠٠٠٠ فرنك، وبينما هما يتساومان كانت «لولوت» دهشة ذاهلة لا تكاد تصدق ما تسمع، ستون ألف فرنك بعد هذا البؤس الشديد، فسيؤدي إذن دين اللبان، وسيعيشان عيشة ناعمة، وستشتري قلنسوة طالما رغبت فيها وعجزت عنها.

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فإن الحكومة الفرنسية نفسها تريد أنْ تشتري هذه الصورة، وأنْ تعرضها في متحف «لوكسمبرج»، فليس لابتهاج الفتاة حد، فلا ينبغي أنْ تنسى أنَّ الصورة تمثلها، فقد أصبحت إذن شيئًا رسميًّا سيعرض في متحف من متاحف الدولة، حتى إنَّ أحد أصحابها يمازحها فيقول: يجب أنْ تسعدي، فسيعرض ظهرك في متحف «لوكسمبرج»، فإذا مضى عليه شيء من الدهر انتقل إلى متحف «اللوفر»، يجب أنْ تسعدي، فقد أصبحت أثرًا من هذه الآثار الفنية الخالدة، وما كانت «لولوت» تحلم بأن الدهر قد ادخر لظهرها مثل هذا الحظ، ولكن هناك ما هو أجَلُّ من هذا خطرًا؛ فقد احتال المصور الفائز في أنْ يخلص من أصحابه ومهنئيه ليخلو لحظة إلى صديقته ونموذجه

«لولوت»، فهما يتقارضان أحاديث الحب، ويذكران بؤسهما، ويقصان من أخباره شيئًا كثيرًا مؤلمًا، فتذكر هي أنها اضطرت ذات يوم مع أمها إلى التماس الصدقة في الشوارع، ويذكر هو أنه كثيرًا ما قضى الأيام جائعًا لا يتبلغ إلا بكثرة من الخبز، وقد تقاسما هذا البؤس وأقبلت الثروة، فيجب أنْ يتقاسماها وهو لا يريد أنْ يعيشا خليلين، وإنما يريد أنْ يعيشا زوجين، فإذا سمعت هذا بلغ بها الابتهاج حدًّا يشبه الذهول، ثم تطلب في سذاجة ورفق أنْ يكون هذا الزواج في الكنيسة؛ لأنها تحب أنْ يبارك القسيس زواجهما، وينصرف العاشقان وليس لسعادتهما ولا لأملهما في الحياة حد.

فإذا كان الفصل الثاني فقد مضى على هذا كله حين من الدهر، فاقترن العاشقان، وأقبلت الثروة على «برنييه» إقبالًا شديدًا، فأصبح مصور الملوك والأمراء، وغير نظام حياته كلها، واتخذ لنفسه بيتًا فخمًا يشبه القصر وأثثه بفاخر الرياش وبديع الزينة، واتخذ عادة أغنياء الناس وأشرافهم، فاعتزم أنْ يستقبل الزائرين مساء السبت من كل أسبوع، وأنْ يحيي في هذا المساء حفلات الرقص والموسيقى، وهو اليوم يبتدئ أول حفلة من هذا النوع، وبينما تغير هو تغيرًا شديدًا، فقد ظلت امرأته على ما كانت عليه من سذاجة وجهل واستمساك بحياتها الأولى، فهي مغتبطة بحياتها الجديدة، ولكنها ليست مطمئنة فيها، وهي تجهل التقاليد جهلًا شديدًا، يؤلم زوجها ويخجله في كثير من الأحيان وأصحاب زوجها وأصدقاؤه يرون ذلك، ويشفقون على صديقهم، ويلومونه بأنه تزوج هذه المرأة الفقيرة التي خرجت من الطبقات المنحطة، ومنهم من يغلو في ذلك، فينصح له بأن يخلص من هذه المرأة، ويتخذ له زوجًا غنية تلائم حياته الجديدة، وهو لا يستطيع أنْ يفكر في هذا؛ لأنه يحب هذه المرأة، ويريد أنْ يفي بالعهد، ويذكر أنها كانت شريكة بؤسه، فيريد أنْ تكون شريكة سعادته، ولكنه مع ذلك ضيق الذرع بها، فهو ينافق ويتكلف الحب حين لا يشعر في حقيقة الأمر إلا بالإشفاق أو شيء كالإشفاق، هو لا يحتفظ لها بذلك الحب القديم، وآية ذلك أنه بدأ يخونها، وبدأ يخونها مع امرأة ألمانية إسرائيلية ضخمة الثروة، باهرة الجمال، أقبلت إلى فرنسا فاشترت لها زوجًا من الأستقراطية الفرنسية المفلسة، اشترت لها زوجًا له لقب الأمير، فاتخذت لقبه، وهو شيخ فان، هو لا يضايقها، وإنما يترك لها الحرية كلها! لا يعنيه إلا أنْ يعيش عيشة تلائم مقامه ولقبه، وقد طلبت هذه الأميرة إلى صاحبنا المصور أنْ يصورها، وجلست للتصوير مرة ومرة، فكانت الرغبة، ثم كان الحب، ثم كانت الخيانة، وهو يخفي هذا الحب على زوجه، ولكنه تسلم في هذه الليلة حين كان

يستقبل أصحابه وزائريه كتابًا من الأميرة تنبئه بزيارتها، فهو قلق وَجِل ويقبل صديقه له، فينبئه بأن سعيه في وزارة المعارف ليس بعيدًا من الفوز، ذلك أنَّ صاحبنا المصور أصبح يستحي أنْ يظهر الناس في متحف من متاحف باريس على امرأة عارية، فهو يريد أنْ تنقل هذه الصورة من باريس إلى متحف من متاحف الأقاليم النائية، والوزارة تمانع في هذا، وهو يتحدث إلى صديقه إذ تقبل «لولوت»، وقد سمعت كل شيء، فيسؤها رأي زوجها ويؤلمها؛ لأنها سعيدة بأن تعرض في متحف من متاحف باريس، وهي ترى هذه الصورة في هذا المتحف رمزًا لسعادتهما، وهي تكره أنْ يغير شيء في هذا الرمز.

ويشتغل القوم بلهوهم، وإذا الأميرة قد أقبلت وخلت إلى المصور، فهما يتحدثان في الحب وألوانه، ويذكران مواعيدهما وآمالهما، ويكادان يتجاوزان الحديث إلى غير الحديث، ولكن «لولوت» قد أقبلت وكأنها سمعت من الحديث شيئًا، فلا تكاد تقبل حتى يلقاها العاشقان لقاء حسنًا ولكنه متكلف، أما هي فتلفت زوجها إلى أنه قد أهمل زائريه، فإذا انصرف الرجل وخلت المرأتان كان بينهما موقف مؤثر، ذلك أنَّ «لولوت» تتحدث إلى الأميرة في صراحة مخالفة لما ألف الناس من ذوق وتقاليد، تزعم لها أنها تحب زوجها حبًّا شديدًا، وأنَّ زوجها يحبها أيضًا، وأنَّ من الإثم أنْ تعمد امرأة مهما تكن إلى هذا الحب فتسيء إليه، أما الأميرة فتسمع هذا الكلام مبتسمة، لا غاضبة ولا خائفة، وإنما تهون على هذه المرأة المسكينة في شيء من السخرية مُرٍّ شديد المرارة، ثم تظهر من العطف عليها والرفق بها ما يملأ قلبها اطمئنانًا، ثم تبالغ الأميرة في هذا، فتتخذ هذه المرأة صديقة وتنزع حلية كانت في صدرها، فتضعها في صدر هذه المرأة، وهما إذن صديقتان، وقد أمنت «لولوت» كل مكروه، ولكن أمد هذا الأمن ليس طويلًا، فلا يكاد هذا الموقف ينتهي حتى يتبعه موقف آخر يعيد إلى نفس «لولوت» ما كان فيها من اضطراب، تنظر فإذا عاشقها القديم «روشار» قد أقبل، فإذا سألت زوجها عن ذلك قال: دعوته بين الذين دعوتهم من الزائرين.

– وكيف فعلت ذلك وأنت تعلم ما كان بيني وبينه! إنما أردت إذلالي!

ثم تخلو إلى هذا الرجل فتلومه؛ لأنه قَبِلَ الدعوة وأقبل إلى هذا البيت، وكان الذوق والرفق يقضيان عليه ألا يفعل، أما الرجل فيجيبها في رفق وصدق بأنه إنما أقبل سعيدًا مغتبطًا ليراها سعيدة مغتبطة، وأنه مستعد أنْ ينصرف وألَّا يعود إذا كان هذا يرضيها، فتجيبه، نعم! فينصرف الرجل وقد أكد لها في لهجة صادقة مؤثرة أنه كان أحبها حبًّا صادقًا، وأنه لا يزال يذكر هذا الحب ويتمنى لها كل سعادة، أما هي فقد عظم اضطرابها،

فهي تشعر بأنها وحيدة، وكأن الناس جميعًا يأتمرون بها، ألم تسمع أنَّ زوجها يريد أنْ يبعد صورتها من باريس؟ ألم تحس أنَّ بين زوجها وبين الأميرة شيئًا يشبه الحب؟ ألم تنكر زيارة هذا العاشق القديم؟ ثم لا تمضي دقائق حتى يظهر أنَّ الناس يأتمرون بها حقًّا، أخذوا ينصرفون ومن بينهم الأميرة، وأخذ الزوج يعين الأميرة على لبس معطفها، فانتهز هذه الفرصة للمغازلة، فهو يطلب قبلة إلى صاحبته، وهي تقول له: بل تَنَسَّمْنِي، فهذا يكفيك إلى غد، وهو يَتَنَسَّمُهَا ولكن «لولوت» من ورائه قد رأت وسمعت، وإذا هي تصرخ صرخة منكرة، وقد انتزعت معطف المرأة فألقته على الأرض، والتفت الناس جميعًا ومن بينهم الأمير الذي كان قد أقبل يقود زوجه، فإذا هذا الأمير قد أقبل على زوجه في هدوء وهو يقول: إنَّ هذا لمؤلم أيتها العزيزة، وكان من الحق أنْ تربئي بنا عنه، ثم يقدم إليها ذراعه وينصرفان، أما «لولوت» فقد سقطت على الأرض واجتهد زوجها وصديق له حتى صرفا الناس، وأقبل الرجل على امرأته يرد إليها الحس والحركة، فإذا أفاقت أخذت تبكي بكاء مرًّا، وأخذ هو يهون عليها ويعتذر إليها، ولكنها مغرقة في البكاء لا تسمع له، وإنما تردد هذه الكلمات: ما أشد هذه الوحدة! ما أشد هذا الألم!

فإذا كان الفصل الثالث فقد تقدم هذا الحب الآثم حتى أصبح حقيقة واقعة لا ينكرها العاشقان، وإنما يريدان أنْ يجعلاها أمرًا شرعيًّا، أما الرجل فيريد أنْ يطلق امرأته، وأما المرأة فتريد أنْ تطلق زوجها، ثم يكون بينهما الزواج بعد ذلك، ونرى في أول الفصل الأمير قد قبل الطلاق، على أنْ تدفع له امرأته مقدارًا ضخمًا من المال يكفي لحياته ومنزلته، وهي مستعدة لأن تؤدي إليه كل ما أراد، ولكن «لولوت» ترفض الطلاق، وقد أقبلت إلى الأمير تريد أنْ تتخذه حليفًا، حتى إذا اتفقا على رفض الطلاق لم يتمكن هذان الآثمان مما يريدان، ولكن الأمير قد قبل الطلاق وهو يسخر من زوجه، ومن الزوجية، وهو يحتقر الجماعة ونظمها وأخلاقها، ولا يحفل إلا بشيء واحد، هو ما بقي من حياته على نحو يعصمه من الفقر والإفلاس والانحطاط عن منزلته ومنزلة آبائه، وهو ينصح لهذه المرأة ألا تتشدد، وينذرها بأن نتائج التشدد سيؤذيها دون أنْ تنفعها، فتنصرف المرأة مزدرية لهذا الشيخ ساخطة على النظام الاجتماعيِّ شقية بحظها، ولكنها رأت زوجها مقبلًا إلى بيت الأميرة فعادت، وما كان الزوج يلقى الأميرة حتى يكون بينهما حديث مؤلم حقًّا، ولكنه آية من آيات الفن؛ ذلك أنَّ هذا الرجل يشعر بأن حبه آثم وبأنه مقبل على جريمة، ويحاول ما استطاع أنْ ينصرف عن هذه الجريمة، ولكنه لا يستطيع؛ لأنه لا يكاد يرى

الأميرة حتى يفقد عزمه وقوته على المقاومة، وإذا هو ألعوبة في يدها، أما هي فترضى منه هذا الشعور وتحمده له ولكن إلى حد، فهي تحبه أيضًا، وهي لا تضحي بهذه المرأة، أليست تريد أنْ تمنحها من المال ما يضمن لها حياة سعيدة صالحة! ويشتد الحوار بينهما حتى تغضب الأميرة، ولكنه غضب خاص، غضب يراد به استثارة الحب والشهوة، وهي تبلغ من ذلك ما تريد، حتى إذا استوثقت أنها قد أضرمت الرجل إضرامًا نهضت فألقت معطفها، وظهرت في ثوب كله ترغيب واستغواء، فيدنو الرجل منها، يشمها ويقبلها ويضمها، وإذا الباب قد فتح وظهرت «لولو»، فلا تكاد تظهر حتى يظهر معها الكاتب ومهارته المعروفة في تغير المواقف والعبث بالعواطف، فانظر إلى هذه المرأة مغضبة ساخطة، قد استطاعت أنْ تضطر هذين العاشقين إلى أنْ يسمعا كل ما أرادت أنْ توجه إليهما من سبٍّ ولوم، ثم انظر إليها قاضية تأخذ بالعدل، وتريد أنْ تعرف ما قدر لها بين هذين العاشقين، فهي أيضًا عاشقة ولحبها الحق في الحياة، ثم هي زوجة ولها حقوق الزوجات، ثم انظر إليها ضارعة قد جثت أمام عدوتها تستعطفها وتترضاها، وتطلب إليها أنْ تترك لها زوجها، ثم انظر إلى هذه العدوة قد اضطربت كلها لهذا الموقف، فخيرت الرجل بينهما، أما الرجل فلا يختار، وإنما يريد أنْ يخرج مع زوجه ليفرغ من هذا الموقف المؤلم، أو يريد أنْ يصرف زوجه ولكن زوجه قد رأت وفهمت، فانظر إليها قد اقتنعت بضعفها، واستيقنت أنَّ الشر واقع لا محالة، فأذعنت وأقبلت إلى المائدة، وكتبت بيدها طلب الطلاق، ودفعت الكتاب إلى زوجها وانصرفت.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في مستشفى من مستشفيات باريس، نشهد في حجرة من حجراته «لولوت» في سرير المرض، ولكننا نعلم أنها بارئة لا خطر عليها، ذلك أنها انصرفت عن زوجها إلى بيتها وقد بلغ منها اليأس أقصاه، فأرادت أنْ تقتل نفسها، ولكن يدها اضطربت فأخطأت القلب وأصابت الرئة، واستطاع الطبيب أنْ ينجيها، وأخذت الحياة تعود إليها، وأخذ الأمل يعود مع الحياة، فهي قد كلفت أختها أنْ تتبع زوجها وتتبين ما بينه وبين الأميرة من صلة، وقد أقبلت أختها فتنبئها بأن الصلة قائمة متينة بين العاشقين، فهي إذن يائسة وهي إذن ستألم، ولكن الأميرة قد أقبلت تعودها وتحمل إليها أزهارًا، فإذا خلت إليها سألتها العفو والمغفرة، وأعلنت إليها أنها سترد إليها زوجها، وأنهما قد اتفقا على ذلك، ولكنها لا تثق بشيء من هذا ولا تطمئن إليه، ويقبل الزوج وتنصرف الأميرة، فيحدثها بمثل ما تحدثت به الأميرة، وتفهم من حديثه أنه يريد أنْ يحتفظ بالزواج ويعيش

معها، ولكن عيشة الأصدقاء والإخوان، لا عيشة الأحباء والعاشقين، أما هي فلا تسمع ذلك إلا أَلِمَتْ له؛ لأنها تحب؛ ولأنها ترى أن ليس لحبها صدًى في نفس زوجها، وما تزال بزوجها حتى يغضب ويحنق، ويعلن إليها أنه مستعد لأن يضحي بكل شيء عطفًا عليها ورفقًا بها، فهو لا يملك غير هذا، وكيف تريده على الحب وهو لا يملك هذا الحب! وهل الناس يحبون لأنهم يريدون أنْ يحبوا! ثم ما يزال بها حتى تظهر له شيئًا من الرضا، فينصرف على أنْ يعود بعد حين، ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تشعر بألم وضيق في التنفس، وإذا هي تريد الهواء وتريد الضوء وتريد الحياة، فتعينها الممرضة حتى تترك السرير وتفتح لها النوافذ، فإذا دخل الضوء والهواء ابتهجت لهما، ولكن زائرًا قد أقبل، هو عاشقها القديم «روشار»، أقبل لأنه علم بكل شيء، وتردد على المستشفى يتعرف أخبارها منذ كانت الحادثة، وهو الآن قد علم من الطبيب أنها بارئة، وأنها تستطيع أنْ تخرج من المستشفى متى أرادت، وهو يعلم أنها تعسة، وأنَّ شفاءها لم ينته بعد، وأنَّ هذين العاشقين سيتخذانها جسرًا إلى سعادتهما، وهو يحبها، وهو لم ينسَ ذلك الحب القديم، وهو لا يريد إلا أنْ يفي لها، ويحملها إلى ذلك البيت الذي نشأ فيه حبهما القديم، في ذلك البيت تتم شفاءها، وفي ذلك البيت تستقبل الصحة والحياة، فإن أرادت أنْ تمضي لوجهها فلن يمسكها.

– نعم! إني لأريد الصحة، وإني لأريد الحياة.

– احملني. وما أسرع ما تحمل إلى عربة تنتظر وقد أمرت أنْ يرسل متاعها إلى بيت «روشار».

إلى هنا تنتهي القصة في التمثيل، ولكنك تريد أنْ تعرف ماذا يكون من أمر الزوج، فيقصه عليك الكاتب لتقرأه لا لتشهده على المسرح، يقبل الزوج فلا يرى زوجه، فإذا تبين الخبر أخذه شيء من الوجوم، وأخذ يحدق في السرير يتبين مكان زوجه وشكل جسمها في الفراش، ثم ينظر فإذا أزهار على السرير، فيأخذ منها زهرة ينظر إليها، ثم يحملها إلى فمه، وإذا هو يبكي!

مارس سنة ١٩٢٤

الفضيحة

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

أعتذر قبل كل شيء من هذا العنوان، فلست مبتكره، وإنما أنا مترجم، وليس لي أنْ أتصرف في الترجمة إذا كان اللفظ واضحًا جليًّا، وليس من شك في أنَّ الكاتب قد أراد ما كتب، وفي أنَّ القصة تعبر تعبيرًا حسنًا عما أراد، فهي فضيحة ولكنها لا تخلو من عظة وعبرة، وأي فضيحة تخلو من عظة وعبرة! هي فضيحة نافعة، وهي في الوقت نفسه لذيذة؛ لأنها كغيرها من قصص هذا الكاتب، طائفة من الأوصاف التي تمثل صورًا من الحياة الفرنسية تمثيلًا قويًّا صحيحًا، ولقد أجد شيئًا من التردد حين أريد أنْ أحكم على هذه القصة، فلست أدري أهي قصة محزنة أم هي قصة مضحكة، ولعلها محزنة ومضحكة، فموضوعها محزن ونتيجتها محزنة، ولكن سياقها مضحك جدًّا، وهو مضحك لا على نحو ما ألفت من القصص المضحكة، وإنما هو مضحك على نحو خاص، كأن الكاتب لم يرد أنْ يضحكك، ولا أنْ يسرك، وإنما اضطر إلى ذلك اضطرارًا؛ لأن أشخاصه مضحكون بطبيعتهم، مضحكون حتى في أشد أوقاتهم حرجًا، وأعظم مواقفهم بؤسًا وسوءًا، وهم مضحكون لا لأنهم يريدون أنْ يضحكوا؛ بل لأن الله خلقهم كذلك.

وهل تعلم شيئًا أشد إيلامًا للنفس وأعظم تأثيرًا في القلب من رجل يبكي ويألم حقًّا، ولكنك تراه يبكي ويألم حتى تشاركه في ألمه وبكائه مخلصًا في ذلك مضطرًّا إليه، وأنت في الوقت نفسه مضطرٌّ إلى أنْ تضحك منه وتبتسم لما ترى من ألمه وبكائه، أو من تعبيره عن هذا الألم واندفاعه في هذا البكاء، مصدر هذا الموقف الغريب شيء من التفاوت في الطبع بينك وبين هذا الشخص الذي يُبكيك ويُضحكك في وقت واحد، هو ثائر الطبع،

حاد المزاج، وأنت هادئ معتدل، وقصته في نفسها مؤلمة، فهو يألم عشرين حين لا تألم أنت إلا أربعًا أو خمسًا، والفرق بين ألمك وألمه هذا الغلو الذي تشهده ولا تفهمه، هذا الذي يضحكك وأنت تبكي ويبعث في وجهك الابتسام في حين يظهر على جبينك العبوس، وهذا هو الذي تجده في هذه القصة؛ لأن الأشخاص في هذه القصة هم من أهل الجنوب الفرنسي، وأنت تعلم، أو لعلك قرأت في الكتب أنَّ أهل فرنسا الجنوبية قوم فطروا على ثورة الطبع وحدة المزاج وحرارة العاطفة وانطلاق اللسان، هم غلاة حين يشعرون، وهم غلاة حين يتكلمون، وهم غلاة حين يفكرون، وهم إلى الكلام والإسراف فيه أقرب منهم إلى التفكير والميل إليه، ولعلهم — كما يقول «الفونس دوديه» في بعض قصصه — لا يفكرون إلا حين يتكلمون، فبينما تنطق ألسنة الناس بالكلام لأنهم فكروا أو شعروا، فهم يصفون بكلامهم فكرة أو عاطفة أو نوعًا من أنواع الشعور، فهؤلاء الفرنسيون من أهل الجنوب ولا سيما فصحاؤهم وأهل البلاغة منهم، يتكلمون أولًا، فإذا تكلموا تحركت عقولهم ففكروا، وعواطفهم فشعروا، وربما بدأوا الكلام وهم لا يعرفون ماذا يقولون فإذا اندفعوا فيه قليلًا قليلًا أخذوا يتأثرون بألفاظهم ونبرات أصواتهم، فإذا هم يبكون كأنهم يخضعون لأشد الخطباء تأثيرًا.

من هؤلاء الناس اختار المؤلف أشخاص قصته، وقد مثلهم تمثيلًا قويًّا، فهم يتكلمون ويتكلمون، وإذا اندفعوا في الكلام فليس إلى وقوفهم من سبيل، ثم هم ليسوا مكثرين فحسب، وإنما هم غلاة مسرفون، يتخيرون من الألفاظ أضخمها ومن الصور أشدها عنفًا، وهم مع كلامهم متحركون حركات ليست أقل غلوًّا ولا عنفًا من ألفاظهم، ومن هنا كانت القصة لذيذة جدًّا في الملعب، وهي لذيذة لمن قرأها وله علم بأخلاق أهل الجنوب، ولكنها عسيرة جدًّا على من يريد أنْ يترجمها أو يلخصها، وربما كان من المستحيل أنْ يعطي المترجم أو الملخص منها صورة صحيحة، فلنجتهد في أنْ نعطيك منها صورة مقاربة إنْ أخطأك فيها ما يضحك ويسر فلن يخطئك فيها ما يؤلم ويبعث الإشفاق.

«موريس ڤربول» رجل من أهل الجنوب بالقرب من مدينة نيس، عظيم الثروة جدًّا، يشرف على مصانع ضخمة، ويُعنى بالأزهار واستخراج أعطارها، له أرض واسعة قد خصصها لذلك، وهو منصرف إلى تدبير ثروته، جاد في ذلك، لا يكاد يحفل بغيره من الأشياء، وأهل بلده يحبونه فانتخبوه لهم عمدة، ثم انتخبوه عضوًا في مجلس الإقليم، ثم هم يريدون أنْ ينتخبوه عضوًا في مجلس الشيوخ، وهو يقبل هذا كله مع شيء من الازدراء والسخرية، ولكنه يؤدي واجباته العامة كما يؤدي واجباته الخاصة في أمانة واستقامة،

وقد تزوج من فتاة جميلة خلابة هي «شارلوت» أحبها حبًّا لا حدَّ له، يوشك أنْ يكون إيمانًا، بل قل: إنه إيمان، أما هي فتحب زوجها حبًّا قويًّا أيضًا، ولكنها تشعر بشيء من السأم مصدره أنَّ حياتها الزوجية شديدة الانتظام قريبة جدًّا إلى العفة والقصد، خالية أو تكاد تخلو مما يحتاج إليه شبابها وقوتها وحدة مزاجها، ثم هي في الوقت نفسه ضيقة الذرع بهذه الحياة المنتظمة الضيقة التي يحياها أهل الأقاليم، والتي تخلو أو تكاد تخلو من اللهو واللعب، وما يصرف النفس عن الجد من حين إلى حين، على أنها تخضع لهذا كله دون أنْ تشعر به شعورًا واضحًا، فإذا جاء الصيف في سنة من السنين سافرت مع زوجها وابنيها إلى مصطاف في جبال «البرينيه» في مدينة من هذه المدن، التي يختلف إليها في فصل الصيف أغنياء الناس وسراتهم من كل بلد ومن كل إقليم ومن كل جنس، فهي ليست مدنًا فرنسية، وإنما هي مدن مختلطة تلتقي فيها الأجناس المختلفة والطبقات المتباينة، ويختلف الناس في هذه المدن، فمنهم من يحبها لما فيها من الاختلاط والتعاون، وما يستتبعه ذلك من الملاحظات الخلقية في نفس المفكر، ومنهم من يكره هذه المدن لنفس هذا الاختلاط، وما يستتبعه من فساد خلقيٍّ شديد.

ونحن في الفصل الأول نشهد طائفة من الفرنسيين قد جلسوا إلى «فرپول»، وهم يتحدثون في هذا، فمنهم من يذم هذه المدن ويزدريها، ويلعن الصيف الذي يضطره إليها من حين إلى حين، ومنهم من يحمدها لا لأنه يحبها؛ بل لأنه يجد فيها ميدانًا للملاحظات الخلقية، والملاحظات الخاصة التي تشغله هي أنَّ هذه المدن تسمح لعواطف الحب بأن تظهر ولحاجات الناس إلى اللهو واللعب بأن ترضى، وقد تسمح بشيء آخر يظهر غريبًا، ولكنه في حقيقة الأمر ليس غريبًا، وهو أنَّ الإنسان مهما يكن شريفًا نقيًّا طاهر النفس فهو في حاجة من حين إلى حين إلى أنْ يختلس لذة من اللذات، تخالف الشرف والنقاء وطهارة النفس، وهذا الاختلاس ميسور في هذه المدن التي تلتقي فيها الأجناس المختلفة، ويكثر فيها اللهو، ويستمتع فيها المصطافون بضروب من الحرية لا يعرفونها في حياتهم العادية، وبينما هم يتحدثون على هذا النحو إذا أصوات ضحك ترتفع، فيلتفتون فإذا نساء يضحكن من وراء الأشجار، فإذا تبينوا هؤلاء النساء وعرفوهن، فهن من أولئك اللاتي يأتين من حين إلى حين إلى هذه المدينة، يأتين يوم السبت ويَعُدْنَ يوم الاثنين ليلهون ويُلهين ويَعُدْنَ بشيء من المال، ثم تأتي «شارلوت» فتتحدث قليلًا إلى زوجها وإلى من معه، وبينما هم جميعًا يتحدثون يمر رجل على بعد فيراه بعض هؤلاء المتحدثين، ثم ينتهز فرصة فينتحي مع «شارلوت» ناحية، ويحذرها من أمر تأتيه، ويوشك أنْ يجر عليها شرًّا

عظيمًا، فتظهر أنها لا تفهم فيصرح لها بأنه رآها أمس وقد خرجت من غرفتها تقصد إلى غرفة أخرى وكاد زوجها يراها، فهو ينصح لها بأن تكون حذرة محتاطة، وهو لا يقدم هذه النصيحة إلا مخلصًا معتذرًا؛ لأنه إنما اضطر إليها اضطرارًا إذ هو مشفق عليها من عواقب هذا الأمر، أما هي فتغضب وترده ردًّا لا يخلو من عنف، وقد أنكرت كل ما زعم، ثم ينصرفون جميعًا ومعهم الزوج الذي اتفق مع امرأته على أنْ تلحق به في «الكازينو» بعد أنْ ترافق ابنيها إلى غرفة النوم، ولا يكادون ينصرفون وتخلو المرأة إلى ابنيها والمربية حتى يمر ذلك الرجل الذي مر منذ حين، وإذا هو يشير إلى هذه المرأة إشارات خفية تضطرب لها، وتجيب عليها بإشارات خفية مثلها، ثم تأمر المربية أنْ تقود ابنيها إلى غرفة النوم، فإذا سألها أحدهما: ألا ترافقيننا كما وعدت؟ أجابت أنها متعبة، وتنصرف المربية ومعها الطفلان.

ويدنو الرجل من «شارلوت» فإذا هو أجنبي، قوي الخلق، جميل الطلعة، حسن الزيِّ، يتحدثان فإذا بينهما حب، وإذا هما يسرفان في هذا الحب حتى تجاوزا كل حذر واحتياط، ولكن حديثهما غريب، فبينما هو يحدثها في حرية وصراحة تكاد تشبه القِحَة إذا هي تجيبه في حياء وبضروب من الإيماء، وهو ينكر منها هذا، وهي تنكر منه صراحته، ثم ينتهي بها الأمر إلى أنْ تصرح أيضًا، فإذا حبها عنيف، وإذا هي لا تفهم هذا الحب، ولكنها تحرص عليه حرصًا شديدًا، وإذا هي تستطيع الآن أنْ تفهم ما كانت تشعر به من سأم قبل أنْ تلقى هذا الرجل، ذلك أنَّ هذا الرجل يعرف كيف يرضي النساء، وهي تذكر له هذه الجملة التي تختصرها اختصارًا صحيحًا، وهي أنه يقبلها قبلًا ليست مسيحية في حين أنَّ قبلات زوجها طبعًا مسيحية خالصة، ويريد الرجل أنْ يضرب معها موعدًا، فتأبى وتلح في الإباء، ويلح الرجل، فإذا عرف منها الإصرار أظهر شيئًا من ضيق الصدر ومن اليأس فتسأله، فتفهم منه قليلًا قليلًا أنه سيء الحظ؛ لأن أباه قد أبطأ عليه في إرسال النقود، وقد حاول أنْ يقترض فلم يوفق، وهو في حاجة إلى مقدار من المال قليل، ولكن هذه أشياء لا قيمة لها، وما كان ينبغي أنْ أتحدث إليك فيها، ولكنك تطالبينني بالصراحة، فلا أستطيع أنْ أخفي عليك شيئًا، أما هي فقد ساءها ذلك، وأخذت تكلمه بصوت كأنه يأتي من بعيد قائلة: لو أنَّ عندي ما تحتاج إليه لما ترددت في أنْ أدفعه إليك، ثم يريد أنْ يقبل يدها، فإذا فيها خاتم قد استوقف نظره، وأحست هي ذلك وفهمته فتعرض عليه الخاتم، ويتأبى قليلًا ثم يرضى على أنْ يرده إليها غدًا، فهو سيظهره لصائغ يريد أنْ يقترض منه ما يحتاج إليه، أخذ الخاتم وانصرف، وإذا المرأة مضطربة محزونة قد سقط

في يدها؛ لأنها عرفت أنَّ هذا الرجل الذي تحبه وتخون زوجها وابنيها وأسرتها وماضيها بين ذراعيه ليس إلا محتالًا، وهي في ذلك إذ يقبل زوجها، فإذا هي تنحني إلى الأرض كأنها تبحث عن شيء، فإذا سألها أنبأته أنها افتقدت خاتمها، فهي تبحث عنه، فينحني ومعه صديق ليبحثا عن الخاتم أيضًا.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في جنوب فرنسا في بيت «شارلوت» والقوم إلى مائدة الغداء، وقد أقبل رجل موظف في المحكمة يقال له «باريزو»، فتحدث إلى صاحب البيت حديثًا تفهم منه أنه مدين لصاحب البيت بشيء من المال، ولكنك تفهم أيضًا أنَّ الكاتب إنما أظهر لنا هذا الشخص؛ لأنه سيحتاج إليه بعد حين، ويقبل القوم فإذا «شارلوت» قد تغيرت، فأصبح وجهها شاحبًا ونالها شيء من الضعف كثير، وأخذ زوجها يخشى عليها العلل والأمراض، ذلك أنها مرضت في المصطاف وتعجلت العودة، وكانت تريد أنْ تمكث شهرًا، فلم تمكث إلا أيامًا قصارًا، وهي منذ عادت مضطربة عصبية تألم لأقل شيء، وتظهر عليها آثار حزن عميق، واضطرابها في هذا اليوم شديد بنوع خاص؛ ذلك لأن زوجها تسلم كتابًا من رجل يقال له: «ا. تاميزو» لقيه في المصطاف، وهذا الرجل يريد أنْ يتحدث إلى صاحب البيت حديثًا خاصًّا، وقد قبل الزوج وضرب للرجل موعدًا بعد نصف ساعة، وهذا الرجل هو صاحبنا الذي رأيناه في الفصل الأول عاشقًا محتالًا، عرفت «شارلوت» هذا، فهي تكره هذا اللقاء بين الرجلين، وتريد أنْ تمنعه، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟

لقد عرضت على زوجها أنْ يخرج معها للنزهة، فاعتذر لأنه ضرب موعدًا لهذا الرجل، وهو لا يريد أنْ يخلف هذا الموعد، ثم يئست من إقناعه، فأوحت إلى الخادم أنْ تقبل مسرعة فتنبئ سيدها بأن رجلًا من الذين يعملون في أرضه قد سقط فانكسرت ساقه، وهي تريد أنْ يسرع زوجها ليعود هذا المريض؛ لأنه عود رجاله الرفق بهم والعطف عليهم، فإذا أقبلت الخادم فأنبأت سيدها هذا النبأ أظهر عناية وهو يريد أنْ يعود المريض، فتبتهج زوجه؛ لكن الرجل يذكر الموعد، فيعدل عن الخروج، ويرسل إلى المريض من يسأل عن أنبائه ريثما يستطيع هو أنْ يذهب لعيادته، فتعود «شارلوت» إلى ما كانت فيه من يأس واضطراب، حتى إذا خلت إلى زوجها تلطفت له، وأخذت تداعبه حتى تضطره إلى مكتبه، وتكلفه عملًا من الأعمال فيقبل، وتخرج هي فتغلق المكتب وتحكم إغلاقه، وكل همها أنْ تلقى هذا الزائر لحظة قبل أنْ يرى زوجها، وقد دق الجرس، فاضطربت وأسرعت تريد أنْ تلقى الزائر، وسمع زوجها دقة الجرس، فأسرع يريد أنْ يلقى الزائر ولكن الباب مغلق،

فهو يدعو زوجه ويلح في الدعاء، أما هي فكأنها لا تسمع حتى يدخل الزائر، فإذا هو رجل آخر هو صديق من أصدقاء الأسرة، هو الذي كان يبحث معها ومع زوجها عن الخاتم في الفصل الأول واسمه «جانتييه»، هو طبيب شاب يعمل في المدينة، وقد أقبل يزور أصدقاءه، فتفتح «شارلوت» لزوجها باب المكتب، وتعتذر بأنها أغلقته خطأ ويفهم هو هذا، أليست امرأته مريضة مضطربة منذ عادت من المصطاف، وهو يستشير صديقه الطبيب، وقد دخلوا جميعًا إلى حيث «البيانو»، وأخذت «شارلوت» توقع عليه؛ لتنسي نفسها ما هي فيه من خوف واضطراب، وقد دق الجرس وأقبل الزائر المنتظر، فهي تمعن في الإيقاع على البيانو كأنها لا تريد أنْ يراها، ولكن زوجها يدعوها، فتلتفت فإذا صاحبها يحييها، وإذا هي تحييه وقد انصرف الرجل مع صاحب البيت إلى مكتبه ليتحدثا.

أما هي فقد ظلت مع صديقها «جانتييه»، فلا تكاد تخلو إليه حتى تفقد صبرها واحتياطها، فتقص عليه كل شيء، وتنبئه بأن هذا الرجل المحتال كتب إليها مرات يطلب إليها نقودًا، فأرسلت إليه خوفًا وذعرًا، ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد فقد تسلمت اليوم كتابًا من الصائغ ينبئها بأن هذا الرجل قد طلب منه لحسابها مقدارًا ضخمًا من المال، وهو يطلب هذا المقدار، ولا شك في أنَّ هذا المحتال قد أقبل اليوم ليقص كل شيء على الزوج؛ لأنه يريد أنْ يستفيد من هذه القصة، ويأخذ ما يحتاج من مال، أما صديقها فقد جزع لهذا، ولكنه لا يريد أنْ يضيع الوقت، فهو يريد أنْ يخلص هذه المرأة وشرف الأسرة، وقد أخذ منها الكتب التي تسلمتها من هذا الرجل ومن الصائغ، واستحلفها أنْ تحتفظ بهدوئها، وانصرف إلى وكيل النيابة يريد أنْ يظهر على كل شيء ليأمر بالقبض على هذا المحتال، وهو واثق بأن وكيل النيابة سيحترم سر المهنة وشرف هذه الأسرة، وقد انصرف الشاب وخلت «شارلوت» إلى نفسها، وهي مضطربة أشد الاضطراب لا تستقر في مكان ما تريد أنْ تعلم بم يتحدث الرجلان من وراء هذا الباب، ولا يطول انتظارها، فقد فتح باب المكتب، وخرج الرجلان يتحدثان في هدوء، وصاحب البيت «يقول لزائره: ... إذن فغدًا الساعة الثانية ...» ثم يقبل الزائر إلى «شارلوت» فيحييها وينصرف، أما زوجها فقد جلس مفكرًا، وأخذت هي تسأله والهة متكلفة الهدوء عن هذه الزيارة وما كان فيها من حديث، فيجيبها بصوت فيه شيء من الذهول: إنَّ هذا الرجل قد حدثه في أشياء غريبة جدًّا، فيزداد لذلك اضطرابها، فإذا ألحت على زوجها أنبأها بأن الزائر تحدث إليه في أمور تجارية غريبة فيها أرباح غير مألوفة، فتطمئن، ويخرج زوجها ليعود المريض الذي مر بك ذكره آنفًا.

ولكن هذا الزوج لا يكاد يخرج حتى تدخل الخادم، فتنبئ سيدتها بأن هذا الزائر الذي انصرف منذ حين قد عاد يقول: إنه نسي شيئًا، ويريد أنْ يتحدث به إلى السيدة لتعيده على زوجها متى رجع، فتتردد «شارلوت» ثم تأذن له وهنا موقف مؤثر جدًّا، ذلك أنَّ هذا الرجل المحتال لا يكاد يظهر أمام صاحبته حتى تلقاه لقاء منكرًا، فتسأله أي مقدار من المال يريده هذه المرة، وإذا الرجل لا يريد مقادير من المال قليلة ولا كثيرة، وإذا هو قد تكلف هذه الزيارة وتكلف هذا الحديث التجاري الذي انتحله للزوج ليخلو إلى هذه المرأة لحظة لأنه يريد أنْ يكلمها، وهو يريد أنْ يثبت لها أنه يحبها حقًّا وأنه أحبها حبًّا لا عهد له به من قبل، ولكنه يعلم حق العلم أنها لن تصدقه؛ لأنه جنى جنايات واقترف آثامًا ليس من شأنها أنْ تحمل الناس على تصديقه إذا ذكر الحب وما إلى الحب من أخلاق الرجل ذو الطبع الكريم، أليس قد استفاد من حب هذه المرأة إياه، فتحدث إليها في فقره وبؤسه، وذلك شيء لا يتحدث فيه العاشقون إلى عشيقاتهم! ثم هو لم يكتف بذلك، أليس قد طلب إليها شيئًا من المال! أليس قد أخذ خاتمها ليرتهنه في سبيل المال! أليس قد كتب إليها يقترض منها المال! ثم أليس قد اقترض باسمها مقدارًا ضخمًا! ثم أليس متهمًا الآن بالاحتيال، ويوشك أنْ يقف بين يدي القضاء! وإذا كان قد تلوث بكل هذه المخزيات، فكيف يستطيع أنْ يذكر الحب أو يتحدث فيه! ومع ذلك فقد أحب مخلصًا وما زال يحب مخلصًا، وهو ليس محتالًا ولا محترفًا هذه الصناعة، وإنما هي الحياة وظروفها، تضطر أشد الناس طهارة وأعظمهم من الشرف حظًّا إلى أنْ ينحط من منزلته، ويدنس نفسه قليلًا قليلًا حتى يزول الفرق بينه وبين الذين اتخذوا الاحتيال مهنة، وعاشوا من اقتراف الآثام والدنيات!

نعم! أحب هذه المرأة وهو يحبها، ولم يأتِ ليتحدث إليها في الحب، وإنما أتى لينقذها من خطر يتعرض له شرفها، فقد يقبض عليه من وقت إلى وقت، وقد يوقف أمام القضاء، وعنده كتب من هذه المرأة وعنده صورتها وعنده هدية منها، وهو يريد أنْ يرد إليها هذا كله، وأنْ يرده إليها يدًا بيد، وأنْ يعتذر لها كما يستطيع الإنسان أنْ يعتذر عما جنى عليها من إثم، وقد دفع إليها الكتب والصورة والهدية إلا كتابًا واحدًا هو أول كتبها إليه، فهو يريد أنْ يدفعه إليها، ولكنه يريد أنْ يقرأه للمرة الأخيرة، فهو لم يقرأ في حياته كتاب حب كهذا الكتاب، وربما كان رد هذا الكتاب إلى صاحبته أعظم ضحية ضحى بها في حياته، وهو يقرأ الكتاب ثم يرده، ويسألها أتصدقه الآن! فتجيبه مضطربة أنها تكاد تصدقه، ثم يريد أنْ ينصرف فيسألها: أما تزالين تمقتينني؟ فتجيبه: بل أنا أرثي لك.

ثم يودعها فتبسط يدها له حتى إذا دنا منها مغتبطًا يريد أنْ يقبل هذه اليد المبسوطة، بدا لشارلوت فقبضت يدها، وانصرف الرجل كئيبًا محزونًا على ألا يراها بعد اليوم، وعاد صديقها الذي ذهب إلى وكيل النيابة ينبئها أنَّ الأمر قد تم على ما أراد، فسيقبض على المحتال مساء اليوم، وقد أخذ وكيل النيابة الكتب ووعد باحترام السر، فلا تكاد تسمع هذا حتى يجن جنونها، وكانت قد نسيت هذا كله، وهي الآن لا تريد شرًّا بهذا الرجل، وإنما تشعر بأنها مدينة له، أليس قد رد إليها كتبها وشرفها ففيم القبض عليه؟ وهو معرض للسجن وللقضاء، ولكن من جهة أخرى غير جهتها، فلتسرع إلى وكيل النيابة ترجو منه ألا يعرض لهذا الرجل بالأذى، وهي تسرع فتتخذ معطفها وقلنسوتها، وصاحبها حائر مبهوت لا يسمع إلا هذه الجملة، لقد انتهى كل شيء! لقد انتهى كل شيء!

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضى حين على هذه الحوادث، ونحن في بيت «شارلوت»، وهي تتحدث إلى «باريزو» ذلك الموظف في المحكمة، وقد فهمنا من حديثهما أنَّ صاحبنا المقبوض عليه وهو متهم بالاحتيال والتزوير، اتهمه بذلك الصائغ، وهو بين اثنتين: إما أنْ تذهب «شارلوت» فتؤدي شهادة دعيت إليها، وإذن فالرجل مبرأ، وإما ألا تذهب وإذن فالرجل مقضي عليه، وهي مترددة بين الوفاء لهذا الرجل الذي وفى لها وبين الإشفاق على شرفها، فهي تخشى أنْ تذهب لتأدية الشهادة في باريس أنْ يُعْرف أمرها ويُذْكَر اسمها، وإذن فهي النازلة، وقد جهل زوجها وأبناها كل شيء؛ وهي تخشى أنْ يعلموا، هي مترددة، ولكنها مع ذلك أميل إلى تأدية الشهادة، فقد وعدها وكيل النيابة بأن شهادتها ستكون سرية، قد كتب في ذلك إلى باريس وقُبِلَ طلبه، فهي تستطيع أنْ تشهد آمنة وستشهد، فقد احتالت حتى أرسلت إليها صديقة من باريس رسالة برقية تنبئها فيها بأن أمها مريضة، وإذن فهي مضطرة إلى السفر إلى باريس، وقد أنبأت بذلك زوجها وأسرتها، وستسافر بعد حين، وقد استقر رأيها على ذلك، فتحدثت به إلى وكيل النيابة بالتليفون، ولم تكد تفرغ من حديثها حتى يقبل زوجها، فيتحدث إليها في أمر هذا السفر قليلًا، ثم تتركه مع «باريزو» لتتم استعدادها للسفر، فلا يكاد يخلو الزوج إلى «باريزو» حتى يظهر عليه غضب شديد، فهو يسأل «باريزو» عن معنى هذه الزيارة، ومهما يتكلف «باريزو» من المعاذير فهو لا يصدقه، وهو يعلم أنَّ في الأمر سرًّا، وهو يريد أنْ يعرف هذا السر، وقد أحس هذا منذ أيام، وبحث حتى علم أنَّ شيئًا غريبًا يدبر من حوله، فزوجه كاذبة فيما تنتحل من العذر لسفرها إلى باريس، فليست أمها مريضة، وليست أمها في باريس، وإذن فلا بد من أنْ يعرف هذا السر، وهو يتهم زوجه بالخيانة، ويتهم «باريزو» بالتوسط بينها

وبين من تحب، وما يزال بهذا الرجل ينذره ويوعده حتى يضطره إلى أنْ ينبئه بالحق بعد أنْ أقسم ليحتفظن بالسر، وقد قص عليه «باريزو» كل شيء، فإذا الزوج مجنون أو أكثر من المجنون.

يجب أنْ تذكر ما قلت لك في الفصل الأول عن أخلاق أهل الجنوب من الفرنسيين، فقد بلغت هذه الأخلاق عند هذا الرجل طورها الأقصى في هذه اللحظة، فلم يمتقع وجهه، ولم تظهر عليه آثار الغضب، وإنما اضطرب دمه وغلا حتى يكاد يخرج من عينيه وإذا هو كله متحجر، وإذا لسانه منطلق بأشنع الألفاظ، وإذا صوته قد بلغ أقصى ما يمكن أنْ يبلغ من ارتفاع، وإذا هو يريد أنْ يبطش بمخبره، وإذا هو يريد أنْ يحنث في يمينه، ويقسم ليجمعن أهل البيت جميعًا وفيهم الخدم وفيهم أمه وابناه ثم ليطردن الشقية أمام هؤلاء الناس جميعًا، وقد أسرع إلى الأبواب ففتحها، وأسرع إلى مخبره فدفعه دفعًا، وأخذ يصيح بأعلى صوته يمينًا وشمالًا: «إليَّ إليَّ! تعالوا جميعًا!» فيقبل أهل البيت كافة مذعورين يخشون حدثًا عظيمًا، أيقبلون ويستنبئون فلا يجيبهم، وإنما يدعو، ويدعو وينادي امرأته، فتقبل متباطئة وكأنها قد أحست شيئًا، فإذا نظرت إلى زوجها من أعلى السلم ورأت صورته الغريبة وشكله الجنوني استيقنت أنه قد عرف كل شيء، فانحلت قواها وأصابها يأس ليس بعده يأس، قد قتل نفسها وظهرت آثار ذلك على وجهها، فهي جثة تمشي، وزوجها ينظر إليها فلا يزيده ذلك إلا اضطرابًا وثورة، ثم يهم بالكلام وإذا لسانه يتردد في فيه دون أنْ ينطق، ثم إذا هو مضطرب كله من أسفله إلى أعلاه، فقد أخذت ذراعاه تهتزان في الفضاء اهتزازًا متصلًا، ثم انطلق لسانه بهذه الكلمات يقولها مشيرًا إلى ابنه: «الأمر أنَّ هذا الغلام قد أساء السيرة في المدرسة حتى اضطر ناظرها إلى طرده.»

قال ذلك ثم هدأ، أما ابنه فلم يهدأ وإنما يجهش بالبكاء، بالبكاء لأنه مظلوم، فلم يسئ سيرة، ولم يطرد من المدرسة، ولكن أباه يغلظ له في القول، ويأمر به فيقاد إلى غرفته، ثم يصرف الخدم دهشين، ويرجو أمه أنْ تذهب فتهون على الغلام، وقد هدأ روع امرأته قليلًا، فأخذت تهدئ زوجها، وتنكر عليه اضطرابه لأمر يسير كهذا، وأخذ هو يتعلل ويعتذر بأن القسوة لازمة لتربية هذا الطفل، ثم يذكر سفر امرأته ويلفتها إلى أنَّ موعد القطار قد آن، وتحاول أنْ تبقى لتتخذ قطارًا آخر، ولكنه يأبى وكأنه يدفعها إلى السفر دفعًا، فإذا انصرفت أقبلت أمه تلومه على العنف في غير موضع للعنف، فانظر إلى هذا الرجل القوي العنيف قد ضعف ورقَّ، حتى كأنه طفل في الثانية عشرة قد ألقى بنفسه بين ذراعي أمه وهو يبكي بكاءً شديدًا.

فإذا كان الفصل الرابع فقد مضى يومان على ما ذكرت لك، ونحن في بيت شارلوت وزوجها يستقبل مبتسمًا مبتهجًا أطفال القرية وقد أحيا لهم عيدًا، فهم فرحون وهو يتكلف الفرح، وأمه كذلك والناس من حوله يسألونه عن «شارلوت»، فينبئهم أنها ستصل بعد حين، وقد ذهبت العربة إلى المحطة لتنتظرها، ثم يخلو إلى أمه حينًا فيتحدثان فإذا هو قد فكر وروَّى، وإذا هو قد اقتنع بأن الخير إنما هو في أنْ يظل محتفظًا بسره كأنه قد جهل كل شيء، أما أمه فلا ترى هذا الرأي، وإنما ترى طرد البائسة الشقية، ولكنه يهون عليها ويترضاها، ويذكر أنه في أيام شبابه رأى فتاة بائسة أغواها شاب مفسد ثم تركها، وأنه رق لهذه الفتاة، وأخذ يعزيها، ثم تجاوز العزاء إلى شيء آخر، ثم اجتهد حتى وجد لهذه الفتاة زوجًا، ثم مضى على زواجها سبعة أشهر ورزقت غلامًا، فمن يدري لمن هذا الغلام! وبينما هو يحدث أمه هذا الحديث إذ هي مبتهجة أول الأمر، وأي شيء في هذا؟ أليس يدل على أنَّ ابنها كان جميلًا بارعًا يستطيع أنْ يغري النساء وأنْ يخلبهن، وكيف لا تبتهج أُمٌّ لشيء كهذا؟! فإذا وصل إلى أمر الغلام والشك فيه انتهرته أمه انتهارًا، أليس يسرف في الشك والتحرج؟!

ولكن هذه المرأة البائسة في البيت الآن ومعها طفلها، وقد دعاها الرجل فأقبلت ومعها الغلام في السادسة من عمره، وأخذت العجوز تحدق في الطفل، وكأنها قد رأت فيه ملامح ابنها، فانصرفت مغضبة مسرورة تهمهم، وخلا الرجل إلى صاحبته القديمة، فيكون بينهما حديث مؤلم ولكنه بريء لذيذ، ثم يسمع ضجة وينبئه منبئ أنَّ المدير قد أقبل يزوره، فإذا دخل المدير فهمنا من حديثهما أنَّ الناس قد عرفوا ما كان من أمر امرأته، وأشارت إليه صحف المدينة، وأنَّ الأمر قد أصبح خطرًا فقد ينتج إخفاق صاحبنا في الانتخاب، وقد أقبل المدير يطلب إلى هذا الرجل أنْ يجتهد في إصلاح هذا الأمر، فهو مرشح لمجلس الشيوخ، وهو مرشح من قبل الحزب الجمهوري الذي في يده الحكم، وقد أوصى الوزير بمساعدته، ووعد المدير وعدًا حسنًا إنْ أفلح، ولكن خصومه الملكيين أقوياء، وهم ينتهزون هذه الفضيحة، فالسبيل هو أنْ يبرئ امرأته أو يطردها، ولكن الزوج قد غضب لهذا الحديث، فهو لا يريد أنْ تتدخل السياسة ولا الانتخابات في حياته الخاصة إلى هذا الحد، وهو يجيب المدير جوابًا عنيفًا، ويعلن إليه أنه منسحب من الانتخابات، مستقيل من منصب العمدة ومن مجلس الإقليم.

ثم تقبل امرأته فيتلقاها ابناها لقاءً حسنًا، ويتكلف زوجها وأمه هذا اللقاء، ولكنهما لا يفلحان، ولا تكاد المرأة تخلو إلى زوجها حتى تتبين أنه علم كل شيء، وأنه يحاول

إخفاء الأمر فلا يفلح، وإذن فهي خائنة بين يديه تعترف وتطلب أنْ يقتلها، وهي جزعة قد بلغ الجزع منها أقصاه، ولا سيما وهي متعبة، قد أمضت ليالي ثلاثًا لم تنم، فهي لا تستطيع شيئًا، ولا تحتمل شيئًا، وقد ألقت بنفسها على الوسائد تبكي وتنتحب، وأخذ زوجها يتحدث إليها في عنف ولوم شديدين، ثم أخذ صوته يرق شيئًا فشيئًا، ويذكر ما كان من أمر المدير، وما كان من استقالته وعدوله عن الانتخاب، ويذكر أنه لا يستطيع الآن أنْ يعفو، ولكنه أحبها حبًّا شديدًا، فسيهجرها حتى تسمح الأيام بالعفو والنسيان، ويتحدث إليها بذلك كله في صوت رقيق فيه شيء من الضعف والإشفاق والرحمة، ولكنه ينظر إليها فإذا هي مغرقة في النوم كأن هذا الحديث قد هدأ من لوعتها شيئًا، وغلبها الإعياء فنامت.

وتبين هو ذلك فأخذه غضب شديد، فهو يهجم عليها يريد أنْ يحطمها، ولكن ذراعه تسقط وتمر على وجهه ابتسامة مرة.

«بينما أنا أحلق في الملأ الأعلى أذكر العفو إذا هي نائمة، كذلك تجيب الحياة»، ويدخل الطفلان مبتهجين يدعوان أمهما، يريدان أنْ يشكرا لها ما حملت إليهما من باريس، فيشير إليهما بالصمت أنَّ أمكما نائمة فدعاها تنم.

مارس سنة ١٩٢٤

الإغراء بالرحيل

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «جان جاك برنار»

لست أدري أتعجبك هذه القصة! ولكني أعلم أنها قد أعجبتني، وربما كان لفظ الإعجاب دون ما أريد أنْ أقول، أعلم أني فتنت بها، فقرأتها مرتين، وقلما أقرأ القصة مرتين، أعجبتني هذه القصة، وأنا مع ذلك أشك في أنها ستعجبك، إني لم أعودك تحليل قصص تشبهها، وإنما عودتك ضربًا آخر من القصص، ليس بينه وبينها شبه قليل ولا كثير، ولم أتعمد ذلك تعمدًا، وإنما اضطررت إليه اضطرارًا، فلست أعرف فيما قرأت من القصص التمثيلية على كثرته قصة تشبهها أو تقاربها، وما كنت لأخترع هذه القصص اختراعًا، ولقد كنت أتشوق إلى هذا النحو من القصص التمثيلية، ولكني لا أجد إليه سبيلًا، حتى وصلت هذه القصة في آخر أعداد «الألستراسيون» فقرأتها، وقرأتها مرتاحًا إليها مشغوفًا بها، كما يرتاح الإنسان إلى شيء تمناه وظفر به بعد طول التمني وشدة الرجاء.

على أني بينما كنت أقرأ هذه القصة تذكرت قصة أخرى، حدثتك عنها في السنة الماضية، ولم أتذكرها إلا لأن هناك شيئًا حملني على أنْ أذكرها إلا لأن هناك شبهًا قليلًا بين القصتين، وتذكرت قصة «الحب» للكاتب الفرنسي «بول جيرالدي»، ولكني لم أكد أمعن في الموازنة بين القصتين، حتى وجدت الشبه قليلًا مسرفًا في الضآلة، ففي قصة «الحب» رقة، وفيها رفق، وفيها ثقة متصلة بين الزوجين، ولكن القصة التي نحن بإزائها اليوم ليست إلا رقة ورفقًا وثقة، لا يكاد بل لا يظهر فيها عنف ولا غلظة، ولا يكاد يبدو فيها الشك، في قصة «الحب» رقة ورفق، ولكن فيها عنفًا شديدًا، فيها جهاد بين العواطف، وفيها اصطدام بين الشهوات، وفيها حرب قوية عسيرة بين رجلين، أما هذه القصة التي نحن

بإزائها فلا تكاد ترى فيها شيئًا من هذا، أو قل: إنك ترى فيها هذا كله ولكن من بُعْد، لا تراه بل تلمحه، لا تحسه بل تتخيله تخيلًا، ولعلك تفرضه فرضًا في بعض المواضع، أتشعر الآن بما تمتاز به هذه القصة؟ أتشعر الآن بالسبب الذي يحملني على أنْ أشك في أنَّ هذه سترضيك؟ أشك في ذلك؛ لأن هذه القصة عسيرة صعبة، فيها دقة ليست بعدها دقة، أو هي كلها دقة، فأنت في حاجة حين تقرؤها إلى أنْ تكون فارغ البال، شديد الالتفات إلى الدقائق، حريصًا على أنْ تقرأ بين السطور، وعلى أنْ تفهم من اللفظ أكثر من معناه أحيانًا، وأقل من معناه أحيانًا أخرى.

هذه القصة تمثل الظرف والتأنق في الفن وربما دل لفظ «الظرف» و«التأنق» على شيء أكثر مما أريد، فتصور رجلًا تحضر وأمعن في الحضارة حتى انتهى إلى أقصى ما يمكن أنْ ينتهي إليه من رقة ولين وظرف، كذلك الأمر في هذه القصة، نشعر بأن الفن قد رق فيها ولطف وأسرف في اللطف حتى انتهى إلى أقصى ما يمكن أنْ ينتهي إليه، فالرمز والإيماء فيها أكثر من التصريح، بل لا يكاد التصريح يوجد فيها، ومن هنا قال بعض النقاد: إنَّ هذه القصة لا تصلح للتمثيل، وإنما تصلح للقراءة، لا تصلح للتمثيل؛ لأنها أرق وأدق من أنْ تمثل، وهي أرق وأدق من أنْ تفطن لها جماهير النظارة، وأرى أنا أنها إذا كانت لا تصلح للتمثيل فهي لا تصلح لأن يقرأها الناس جميعًا، وإنما يتاح فهمها وذوقها بنوع خاص لطائفة من المترفين في الفن، ومن هنا تفهم أيضًا قول بعض النقاد: إنَّ الكاتب تجاوز في قصته هذه التمثيل إلى الشعر والموسيقى، فهو لا يتحدث إليه بلغة الملعب، وإنما يتحدث إليك بلغة الشعر والموسيقى، وبلغتهما حين يناغيان النفس ويهمان إلى الضمير، هي على هذا كله قد أعجبت الناس، فنالت فوزًا عظيمًا في باريس، وكاد يجمع النقاد على الثناء عليها، وليس هذا يدل على شيء أقل من رقي الأذواق ورقة العواطف في تلك المدينة، التي يزهو فيها هذا الفن الأدبيُّ على اختلاف ألوانه وضروبه.

نحن في إقليم من أقاليم فرنسا في «الفوج»، يمثل لنا المسرح حجرة تكاد مستديرة ساذجة الأثاث، ولكن نوافذها كثيرة جدًّا، تكاد تشغل كل جدرانها، ومهما تنظر فلن تقع عينك وراء زجاج النوافذ إلا على غابة ضخمة بعيدة المدى يقصر دونها الطرف، أما الغرفة ففيها مكتب، وفيها البيانو، وفيها مائدة صغيرة، وقد نسقت الأزهار على البيانو والمائدة، أما المكتب فقد كثرت عليه الأوراق المختلفة، وفي ناحية من نواحي الحجرة موقد أمامه كراسي ثلاثة، وقد جلست إلى البيانو امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، هي «ماري

لويز» بنت «لاندرو» صاحب هذا البيت وهذه الغابة وهذا المصنع الذي يلمح على بعد، وزوج «أوليڤييه» الذي شارك أباها في الإشراف على هذا المصنع وفي تدبير هذه الثروة الضخمة، جلست إلى البيانو وهي تلعب قطعة موسيقية معروفة، وتلعبها متأثرة تأثرًا شديدًا، ثم يضعف اللعب قليلًا قليلًا قليلًا حتى كأن النغم يموت تحت أصابعها، وقد انقطعت عن اللعب وظلت في مكانها مفكرة كأنها في حلم، وإذا الساعة تدق السادسة، وإذا صفير يسمع على بعد من المصنع مؤذنًا بانصراف العمال، وهي في مكانها مفكرة مغرقة في التفكير، ثم يسمع صوت رجلين يتحدثان، ويرى هذان الرجلان يمران خارج الغرفة كأنهما مقبلان إليها، هذان الرجلان الشيخان هما «لاندرو» صاحب البيت، وصديق له من أصحاب المصانع الكبرى في شمال فرنسا، أقبلا ودخلا الحجرة، وصاحب البيت يظهر صديقه على كل شيء في البيت وفي المصنع وحول البيت والمصنع، وهو بهذا كله فخور معجب، يذكر الأشياء يضيفها إلى نفسه، فيقول: بيتي ومصنعي وحديقتي وغابتي، حتى يصل إلى ابنته فيقول: ابنتي، ويصفها وصف المعجب بها، يقدمها إلى صاحبه فينحني أمامها الشيخ انحناء الإجلال، أما هي فتلقى الرجلين لقاء لا يخلو من أدب، ولكن فيه فتورًا ظاهرًا، وتقبل أختها «جاكلين» فيقدمها أبوها إلى صاحبه على نحو ما قدم أختها، ثم ينصرف الرجلان إلى حيث يتناولان شيئًا من النبيذ قبل أنْ ينصرف الضيف، وتبقى الأختان، وقد فهمنا من حديث القوم أنَّ في البيت ضيفًا آخر شابًّا حسن الطلعة جميلًا غنيًّا، أبوه من كبار التجار في باريس، قد اتصلت المعاملة بينه وبين أصحاب هذا المصنع، وقد أرسل ابنه فيليب ليقيم أشهرًا عند هؤلاء الناس يختلف فيها إلى المصنع ليفهم عمله، وكذلك تعود هذا الرجل أنْ يرسل ابنه في جميع المصانع التي يعاملها، حتى إذا آلت إليه تجارة أبيه كان متقنًا لعمله حسن الفهم لمعامليه.

ولا تكاد الأختان تتحدثان حتى تشعر بأن بينهما فرقًا عظيمًا جدًّا، أما الكبرى فضيقة الصدر بكل شيء، ضيقة الصدر بما ترى، ضيقة الصدر بما تسمع، ضيقة الصدر بما يحس، لا تكاد تسمعها حتى تفهم أنها سجينة تريد أنْ تخلص من سجنها، وقد يئست من الخلاص فهي مستسلمة للحياة في سأم وضجر، وهي لا تذكر أباها دون أنْ يظهر عليها هذا السأم، أليس أبوها قد ذكرها لصاحبه منذ حين بنفس الطريقة التي ذكر بها البيت والمصنع والحديقة، ثم هي تنظر من النافذة فلا ترى إلا شجرًا، فإذا أبعدت طرفها لم ترَ إلا شجرًا، فإذا أدارته لم ترَ إلا شجرًا، فهي تسأم هذا الشجر كما تسأم البيت، وكما تسأم عشرة من فيه، فإذا ذكرت أختها لها زوجها ذكرته في رقة ولين، وشعرت أنها تحبه

حبًّا شديدًا وأنه يحبها حبًّا جمًّا، وأما أختها الفتاة فراضية مطمئنة مبتهجة بالحياة، تعطف على أبيها عطفًا شديدًا، وتبر به وبأمها برًّا عظيمًا، وقد أقبلت تدعو أختها للعب الكرة؛ لأن «فيليب» ينتظرهما في ميدان اللعب، فترفض أختها ضجرة متبرمة، وتسخر من فيليب ومن جماله ومن ظرفه، وتقول: إنها لا ترى في هذا البيت إلا قومًا يصنعون الحديد، ويعكفون على صناعته، فأبوها وزوجها منكبان على صناعة المسامير، وهذا الزائر الذي مر منذ حين عاكف على صناعة كصناعة المسامير، وهذا الشاب فيليب أقبل ليرى كيف تصنع المسامير، وسيعود إلى باريس ليبيع المسامير، وكل شيء في حركاته يذكِّر بالمسامير، فهو إذا أراد أنْ يقذف بالكرة مثل رجل يدق ليصنع المسمار، وهو إذا أنشد الشعر كان صوته وإنشاده كهذا الصوت الذي تسمعه لأداة من أدوات المصانع، وهي ضيقة الصدر بهذا كله، على أنها لا تنكر أنَّ في هذا الشاب رقة وأدبًا وظرفًا، فقد ذهب إلى المدينة منذ أيام وعاد يحمل إليها وإلى أختها هدايا، أهدى إليها مروحة لا تمثل حسن الذوق الفني، ولكنه فكر في أنْ يهدي إليها مروحة، وأهدى إليها كتابًا هو ديوان «بودلير»، وفي الحق أنها لا تحب «بودلير» ولا تفهمه؛ لأن فيه غموضًا وتعمقًا وتعقيدًا، وإنما تؤثر عليه شاعرًا آخر هو «شينيه» غير أنها تعترف بأن هذا الشاب لم يكن يستطيع أنْ يعلم ذلك من نفسه، فيكفي أنه فكر في أنْ يقدم إليها كتابًا، والغريب من أمر هذا الشاب أنه متى انتهى العشاء أقبل مع زوجها إلى هذه الحجرة، فجلسوا جميعًا إلى المواقد وطالت بهم الجلسة، والرجلان يتحدثان ويمزحان حتى يأخذها هي النوم فتستأذن وتنصرف، ولا يفكر زوجها في أنْ يختصر هذه السهرة، وهي كانت تستطيع أنْ تلوم زوجها، ولكن أليس يحسن ألا تفعل والشاب مسافر بعد يومين.

هذا حديث الأختين تشعر منه بسأم «ماري لويز» وضيق صدرها حتى بهذا الشاب الجميل، بل بهذا الشاب الجميل بنوع خاص، ويدخل زوجها فتلقاه لقاء العاشقة الكلفة، ولكن عندما يريد الانصراف ينبئها بأن «فيليب» قد تسلم كتابًا من أبيه، وبأنه مسافر إلى أمريكا الجنوبية، إلى بلاد الأرجنتين، ولا تكاد «ماري لويز» تسمع هذا حتى يظهر عليها الدهش، بل شيء آخر أكبر من الدهش، شيء يشبه الذهول، ثم ينصرف زوجها، وتقبل هي إلى النافذة، ثم تلتفت فإذا شعاع الشمس يضطرب أمامها اضطرابًا شديدًا يكاد يأخذ بصرها، فإذا سألت أختها عن ذلك أنبأتها أنَّ فيليب قد وقف خارج الغرفة، وفي إحدى يديه مرآة، وفي الأخرى أداة لعب الكرة، وهو يشير إليهما بهذه الأداة أمام المرآة، فتغضب «ماري لويز» وتصيح به تأمره أنْ يكف، فإذا مضى في عبثه مضت في صياحها تزجره

زجرًا، وأختها تدعوها إلى أنْ تترك مكانها لتلقى شعاع الشمس، ولكنها لا تحفل بأختها، وإنما تمضي في زجر الشاب وتوبيخه كأنها تجد في ذلك لذة، ويسدل الستار ثم يرفع بعد حين، وقد مضت ستة أسابيع على سفر فيليب، ونحن نرى ماري لويز جالسة في الغرفة نفسها مغرقة في القراءة، حتى إنَّ زوجها يدخل فلا تحسه، فإذا كلمها نهضت مذعورة، فإذا سألها فيم تقرأ أجابته في ديوان «بودلير»، فيلاحظ زوجها أنَّ ذوقها سريع التغير، ألم تكن تكره «بودلير» فهي الآن تحبه، ثم يتحدثان، فتفهم أنَّ فيليب قد سافر ولم يرسل إليهما كتابًا ولا شبه كتاب، وذلك شيء يخالف الذوق، على أنَّ بطاقة قد وصلت اليوم تنبئ بأنه في طريقه إلى «الأرجنتين»، وهما يتحدثان عن هذا السفر، ويصلان إلى شيء من الفلسفة في السفر، وما يترك من ألم في نفس المقيم مهما تكن الصلة بينه وبين المسافر، وتأتي «جاكلين» فيتحدثون في أمر هذا الفتى أيضًا، وتظهر «جاكلين» صورة من صوره الفوتوغرافية فينظرون فيها جميعًا، أما «جاكلين» وأوليڤييه فيريان أنها صادقة مقاربة، وأما ماري لويز فتنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وتلح في إنكارها، وتشدد الخصومة بينها وبينهما في ذلك، وتفهم من هذه الخصومة شيئين: الأول أنَّ شخص فيليب قد اتخذ في نفس «ماري لويز» صورة غير صورته الحقيقية، صورة تقرب من المثل الأعلى؛ ولذلك تنكر الصورة الفوتوغرافية التي تمثل شخصه الحقيقي، الثاني أنها تستبقيه في حجرتها، فتحتفظ بالحجرة كما كانت يوم تركها، فما زالت الكراسي الثلاثة على وضعها أمام الموقد، وما زالت المروحة وديوان «بودلير» في مكانهما، فإذا انصرف أوليڤييه، وبقيت الأختان حاولت الفتاة أنْ تغني عابثة إحدى أغاني الجند وفيها ذكر الأرجنتين، فتغضب أختها غضبًا شديدًا وتزجرها، وتنصرف مغضبة، وقد فهمنا أنَّ سفر فيليب قد غير في نفس ماري لويز كل شيء، وأنَّ سخطها عليه وتبرمها به في أول الفصل لم يكونا إلا مظهرًا من مظاهر الحب.

فإذا كان الفصل الثاني، فقد مضى عام ونصف عام على ما قدمت، ولكن الحجرة على حالها لم يتغير فيها شيء، وقد جلس أوليڤييه إلى مكتبه، وجلست «ماري لويز» إلى عمل يدوي قد عكفت عليه، وكأنها مغرقة في التفكير، وقد سألها زوجها ماذا تصنع، فلم تجب؛ لأنها لم تسمعه، ثم مضى حين فسألت زوجها وكأنها لا تفكر فيما تقول: ماذا يصنع؟ فيجيبها أنه يرتب أوراقه، ولكنها لم تفكر في سؤالها، ولم تنتظر له جوابًا، فهي لم تسمع زوجها حين كان يكلمها، فإذا فرغ زوجها من عمله أقبل إليها يحدثها في لطف ورفق،

ولكنها تجيبه في ضعف وإعياء، وكأنها قد أقبلت من مكان بعيد، وقد ظهرت عليها آثار السأم والتعب، كأن قوى خفية عملت في نفسها منذ حين طويل، فصرفتها عن كل شيء، وزهدتها في كل شيء؛ فكأنها تحيا لأنها لا تستطيع أنْ تموت، وزوجها يرى ذلك ويشعر به، ويحاول أنْ يتبين أسبابه، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلًا، هو رفيق، رقيق العاطفة، شديد الإيمان بزوجه وشرفها، فهو لا يتهمها بشيء بل لا يفرض شيئًا، وهو في الوقت نفسه لا يريد أنْ يسألها مخافة أنْ يثقل عليها أو يؤذيها، ولكنه اليوم يشعر بأنها قد انتهى بها الضعف إلى حد بعيد، ويشعر مع ذلك بأنها مطمئنة إليه واثقة به، فهو يناجيها مناجاة المحب العطوف، وهو يجرؤ فيسألها: ما بالها محزونة؟ ما بالها شقية؟ فتنكر أنْ تكون محزونة أو شقية، ولكن إنكارها نفسه يدل على أنَّ حظها من الحزن والشقاء عظيم، فهي لا تكاد تسمع زوجها، وهي لا تكاد تجيب؛ لأنها لا تفهم ما يقول، ولكنه قد ألح عليها، فجمعت قواها واجتهدت في إقناعه بأنها سعيدة راضية.

أما هو فيريد أنْ يصدقها، ولكنه لا يستطيع، وهو يسألها: أليس قد خاب أملها فيه؟ ألم تكن تنتظر منه غير ما تجد؟ فتلح عليه أنْ يترك هذا الكلام وألا يسرف في مثل هذا السخف، ويذكر هو أنها تغيرت تغيرًا شديدًا، لقد تزوجها طفلة وكانت سعيدة، فظلت طفلة لا تفكر في شيء، ولا تحفل بشيء إلا بالحياة وابتساماتها، أما الآن فقد تغير هذا كله، فإذا هي كئيبة، كاسفة البال، منصرفة عن الحياة ولذاتها، ما أشد حاجتي إلى أنْ أعرف ما يضطرب في هذا الرأس، إني أريد أنْ أجعلك سعيدة ناعمة البال، أريد أنْ أقدم إليك أشياء كثيرة: ثيابًا، فتجيبه في ذهول: نعم! حُليًّا، فتجيبه في ذهول: نعم! سيارة، فتجيبه في ذهول: نعم! ويعرض عليها أشياء كثيرة متباينة، ويعرض عليها الكتب والحفلات والسياحة وزيارة الملاعب في باريس، فتجيبه على هذا كله في ذهول: نعم! لأنها تفكر في غير ما يقول لها زوجها، ولا تسمع إلا لهجة الاستفهام، وينتهي به الأمر إلى أنْ يشعر بهذا فيقول: ولكنك معنية بغير هذا كله، وينتقل الحديث إلى شيء آخر، فأخته قد أقبلت في زيارة، وستمكث أيامًا وهو يطلب إلى زوجه أنْ تتلطف لها، وأنْ تقضي معها مساء اليوم، فتضيق بذلك ثم تستسلم! نعم! سأقضي معها مساء اليوم كما قضيت معها مساء أمس، وكما سأقضي معها مساء غد، فلا يزيده هذا إلا حزنًا وألمًا، وقد ذهبت هي إلى النافذة، فنظرت منها كأنها سجينة تريد أنْ تفر، ولكنها لا تجد أمامها إلا شجرًا وشجرًا وشجرًا، فليس لها مفر من هذا السجن، وهي تنظر من النافذة إذ يقبل ابنها الطفل، وهو في التاسعة من عمره، فترتاع لرؤيته؛ لأنها لم تكن تنتظر أنْ تراه، ثم تتخذه تعلة، فتعتذر إلى زوجها من الذهاب إلى أخته، وتضرع إليه في أنْ يتركها مع ابنها فيفعل كارهًا.

أما هي فقد دعت ابنها فوثب إليها من النافذة وأخذت تسأله، فإذا هو يعيد دروسه في الجغرافيا، وإذا موضوع هذه الدروس أمريكا، فتسأله عن دول أمريكا الجنوبية، فيعدها حتى يصل الأرجنتين، فإذا لهذا اللفظ وقع خاص، وإذا هو قد أذهلها أو كاد، وهي مع ذلك تريد أنْ تسأل ابنها وأنْ تعينه على الإعادة، فهي تسأله عن الأرجنتين، ولكن الطفل لا يعرف أكثر من أنَّ الأرجنتين في أمريكا، وأمه مغضبة، وما فائدة الدرس إذا لم يفهم ما يقرأ، وهي تصف له الأرجنتين لا كما هي في الجغرافيا بل كما هي في خيالها، فالأرجنتين بلاد غريبة في كل شيء، وغريب ما فيها من الأشجار، غريبة سماؤها، غريب ما فيها من نبات، غريبة أنهارها تلك التي تقف على شاطئها فلا ترى شاطئها الآخر، تلك التي تتغير ألوانها بتغير ساعات النهار وبتغير الجو، فهي وردية حينًا، ذهبية حينًا آخر، وهي حينًا زرقاء، وهي حينًا رصاصية، وهي حينًا أنهار من اللبن حين يزحف على سطحها الضباب، وهي تتحدث بهذا كله لا إلى ابنها فقد نسيت مكانه بل إلى نفسها، وقد تركت ابنها وذهبت إلى البيانو، وجلست تلعب عليه قطعة موسيقية شعرها «لبودلير» وعنوانها «الإغراء بالرحيل» وفيها:

أي بنيتي، أي أختي، فكري في اللذة التي نجدها حين نذهب هناك؛ لنعيش معًا،
حين نفرغ للحب حين نحب، ونموت في البلاد التي تشبهك.

وهي تلعب وتغني هذا الشعر، وقد دخل زوجها ولم تشعر به، فإذا أهاب بها نهضت مذعورة وقد أقفلت البيانو، فيسألها: ماذا تصنع؟ فتجيبه مضطربة: كنت أعين الطفل على الدرس ثم يهم أنْ يسألها، ولكنها تنصرف مذعورة مضطربة، فيحاول أنْ يسألها، ولكن جرسًا يدق هو جرس العشاء، وقد جمعت قواها، وأخذت تدفع زوجها أمامها هلم إلى العشاء، كما تعشينا أمس وكما سنتعشى غدًا.

فإذا كان الفصل الثالث فقد مضت دون هذا ثمانية أشهر، ونحن في ديسمبر والحجرة على حالها لم يتغير فيها شيء، فما زالت الكراسي أمام الموقد، وما زالت المروحة وديوان «بودلير» على المائدة، وقد أقبلت «ماري لويز» وأختها «جاكلين» فدخلتا تريدان الخلوة والتحدث بمعزل من الأسرة؛ ذلك أنَّ جاكلين قد تزوجت منذ حين، وأقبلت تزور أسرتها، وقد أرادت أنْ تخلو إلى أختها حينًا؛ لأنها تريد أنْ تحدثها بأمر ذي بال، وأختها تتعجلها وتلح عليها، فتنبئها بأنها رأت فيليب، فلا تكاد ماري لويز تسمع هذا الاسم حتى تضطرب

له اضطرابًا عظيمًا، فتسأل أختها: ماذا تقولين؟ تجيبها دهشة إنها تفهم ما تقول، وهو أنها رأت فيليب، رأته في مدينة «أبينال» التي تقيم فيها، رأته خارجًا من دار البريد فدهشت، وكانت معها صديقة تماشيها، فسألتها: أتعرفينه؟ وكان قد مضى ولم يرها فلم يتكلما، تسمع «ماري لويز» فلا تزداد إلا اضطرابًا، وكأن حياتها كلها قد انقلبت رأسًا على عقب، فهي تسأل نفسها حائرة ماذا أصنع؟ أما أختها فلا تزداد إلا دهشًا، فهي كانت تظن أنَّ ماري لويز تعنى عناية خاصة بفيليب؛ لأنه ترك في نفسها أثرًا قويًّا، ولكنها لم تكن تفرض أنَّ الأمر قد تجاوز هذه العناية إلى الحب، وهي حين كانت تدهش لهذا الحب كانت بعيدة كل البعد عن أنْ تقدر الأمر قدره؛ لأن الأمر لم يكن حبًّا، وإنما كان شيئًا فوق الحب، كان جنونًا واضطرابًا عصبيًّا عظيمًا، فلم تكد «ماري لويز» تشعر بأن فيليب في «أبينال» حتى دار رأسها، وأخذت تفكر في سرعة مدهشة، ففرضت أنه لم يأتِ إلي «أبينال» إلا لأجلها، وأنه مع ذلك تعمد ألا يزورها، وتعمد ألا ينبئها بشيء من نبئه، وهو مع هذا كله ينتظرها في «أبينال» ويريد أنْ تسعى إليه، وكيف يريدك على هذا السعي وهو لم ينبئك بمكانه؟

– وأي شيء يخفي في حياة الأقاليم! فهو يقدر أني أعلم مكانه في أبينال!

– ولم لم ينبئك؟

– لأنه يريد أنْ يمتحنني.

– ولم يريد أنْ يمتحنك وهو لم يعلن إليك حبًّا، ولم يتحدث إليك في غرام؟

– أنت لا تفهمين هذا، فهو يحبني ويحبني، وأنا أحبه، وإنْ كنت قد جنيت جناية فهي أني شعرت بهذا الحب، ولم أشجعه على أنْ يبوح به، يجب أنْ أسعى إليه، يجب أنْ أراه، وأنْ أقول له ما لم أقل، وأنْ أسمع منه ما لم أسمع!

أما أختها فقد رقت لها وكأنها أشفقت عليها من الجنون، فتعرض عليها أنْ تصطحبها إلى «أبينال» لتقضي عندها الليل، ولتراه في بيت أصدقاء لها وهي واثقة بأنها ستراه، فإذا تحدثت إليه عرفت أنه قد تزوج ودبر حياته كما كان يحب، فأقلعت عن هذه الغواية، ولكنها لم تكد تعرض هذا الأمر حتى أشفقت من عاقبته، وخشيت أنْ يجر عليها وعلى الأسرة كلها سوءًا وعارًا، فتراجع أختها وتنصح لها بالبقاء، ولكن هذه تأبى وتلح الإلحاح كله في السفر معها، وتأمرها أنْ تذهب إلى حجرة الاستقبال حيث زوجها لتستأذنه في هذا السفر دون أنْ يعلم بشيء من حقيقة الأمر، وتدفعها خارج الحجرة دفعًا، وتظل وحدها حينًا مضطربة، وقد ذهبت إلى البيانو وإلى حيث المروحة والكتاب، ولكنها تحس

وقع أقدام فتعود، وقد دخلت أختها وزوجها فتم الاتفاق على السفر، فإذا خلت إلى أختها بعد حين أخذت هذه تراجعها وتلح عليها فيه، وتذكرها زوجها وأبويها وابنها والأسرة كلها، فكلما ذكرت لها شيئًا من هذا أمرتها بالصمت أمرًا عنيفًا، وهي في حقيقة الأمر مضطربة مترددة تشعر، ولكن شعورًا ضعيفًا جدًّا؛ لأنها مقدمة على أمر خطير، وتحاول أنْ تَرَوَّى، وأنى لها أنْ تَرَوَّى وقد ملكتها هذه العواطف الثائرة، واستأثر بها هذا الجنون، فلا بد من أنْ تسافر، ومن أنْ تراه، وستسافر وستراه.

ويسدل الستار ثم يرفع، فإذا نحن في غد ذلك اليوم الذي مر فيه ما قدمت لك، والغرفة على حالها، وقد جلس إلى المكتب أبو «ماري لويز» وزوجها يتحدثان في أمر المصنع وتقدمه، ويقدم كل منهما إلى صاحبه التهنئة والثناء، ولكنهما مضطربان اضطرابًا يحاولان كتمانه، أما الشيخ فلا يفهم سفر ابنته إلى «أبينال»، وهو لا يحاول أنْ يفهم، وأين السبيل إلى فهم ما يخطر للنساء، وهو يعلم أنَّ ابنته شديدة التأثر بالشعور، قد ورثت ذلك عن جدتها، ألم تكلف جدتها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها بفتى من الذين يلعبون ليضحكوا الجمهور، على أنَّ هذا الحب لم يكن إلا عرضًا لم يلبث أنْ زال، أما الزوج فاضطرابه أشد ظهورًا وأعظم رسوخًا؛ لأنه قد فهم نفسية زوجه وما يخالجها، وهو مشفق إشفاقًا شديدًا، ولكن هذا الإشفاق يستحيل إلى جزع حين يتناول رسالة، ويقرأ فيها أنَّ فيليب قد وصل إلى «أبينال»، وحين يعلم أنَّ الشيخ قد عرف مكان الشاب في «أبينال»، وإذن فامرأته أيضًا قد عرفت مكانه، وهي قد عرفته قبل أنْ تسافر، وهي لم تسافر إلا لذلك، ولكنه يكتم هذا كله في نفسه، ويتكلف الجلد، والشيخ يفهم كل ما يدور في رأسه، ويتكلف الجهل والغفلة، وهما كذلك إذ يدخل الطفل فيداعب الشيخ حينًا ثم يداعب أباه، وقد انصرف الشيخ، ولكن أباه مشغول، فهو ينظر في الساعة من حين إلى آخر ينتظر أنْ تعود امرأته، والطفل يلح عليه، فيلتفت إلى الطفل حينًا وقد أخذ هذا الطفل يقرأ على أبيه أسطورة حفظها، وهو في ذلك إذ يلتفت فيرى أمه قد أقبلت، أما أبوه فيأمره أمرًا عنيفًا أنْ ينصرف، وتحاول الأم أنْ تمسك ابنها، ولكن الزوج يلح في انصرافه؛ لأنه يريد أنْ يتحدث إليها، ينصرف الطفل، ويخلو الزوجان، فإذا الرجل مغضب غضبًا شديدًا، ولكنه محب حبًّا شديدًا فهو يملك غضبه، ويكتفي بأن ينظر إلى امرأته نظرًا ثقيلًا، ويسألها في صوت المغضب الذي يملك نفسه: ماذا صنعت وماذا رأت وفيم تحدثت؟

أما هي فتتجلد، ولكنها قد فقدت الجَلَد، فلا تستطيع أنْ تثبت فتجلس، وتجيب زوجها مضطربة متثاقلة، فتحدثه أنها رأت فيليب.

– ماذا قال لك؟

– لم يقل لي شيئًا ذا خطر!

– أريد أنْ أعلم!

وهنا تعيد عليه ما قال لها في صوت يدل على خيبة الأمل وعلى حزن شديد، وكأنها قد عادت من رحلة بعيدة جدًّا، وهي متعبة وهي تطمح إلى الراحة وتطمع في استئناف الحياة الهادئة، فقد حدثها بأنه ضخم الثروة في الأرجنتين، وبأنه يشرف على مصنع عظيم ويخرج طائفة ضخمة جدًّا من المسامير في كل يوم، وبأنه يقاوم منافسة الصناع الألمانيين، وبأن شوارع الأرجنتين مستقيمة منظمة كشوارع البلاد الأخرى، وهو إذن رجل كغيره من الناس، هو كزوجها وكابنها وكالشيخ الذي زار البيت في الفصل الأول، منصرف إلى صناعة المسامير وتجارة المسامير، والأرجنتين كغيرها من بلاد الأرض، كانت إذن في حلم وقد أفاقت من هذا الحلم، وهي تذكر أنَّ هذا الشاب قد مات بالقياس إليها، وهي في أثناء هذا الحديث وإذا زوجها قد جلس إلى جانبها يلاطفها ويرفق بها وينهاها عن البكاء، قد رق لها وهو سعيد بعودتها إليه، ولكنه يخفي سعادته كما أخفى شقاءه؛ لأنه لا يفكر أو لا يريد أنْ يفكر إلا فيها، وهو ينظر وهي تتبع نظره، وإذا عينه قد وقعت على المروحة وعلى ديوان «بودلير» وعلى الكراسي المصفوفة أمام الموقد، وهي قد نهضت فأخفت الديوان بين الكتب، وأخفت المروحة في درج من الأدراج، ونقلت أحد الكراسي من مكانه، كل ذلك وزوجها ينظر إليها، حتى إذا وصلت إليه ضمها إلى صدره ضمًّا طويلًا، ثم تتخلص من ذراعيه وتذهب إلى البيانو فتلعب، ولكنها لا تلعب «الإغراء بالرحيل»، ولا تتغنى بشعر لبودلير، وإنما تلعب قطعة أخرى كانت كلفة بها أيام سعادتها، وكانت تلعبها في أول القصة، وإذا هو يميل إليها شاكرًا.

إبريل سنة ١٩٢٤

الحبيب

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «جاك ديفال»

كتب إليَّ أديب من طلاب مدرسة الحقوق الفرنسية لا أسميه؛ لأني لا أدري أيحب أنْ يُسمى أم لا، كتب إليَّ هذا الأديب كتابًا رقيقًا، اضطره فيه حسن ظنه بي إلى ثناء كثير أشكره له شكرًا خالصًا، ولكنه لم يكتب ليثني عليَّ، وإنما كتب إليَّ عاتبًا، وأكاد أنْ أقول: إنه كتب إليَّ لائمًا؛ لأني أهملت قصة «الحبيب» هذه، فلم أشر إليها مع أنها خليقة بالدرس والتحليل، وهو يسألني لم أهملتها؟ ولست أدري لم أهملتها؟ فقد قرأتها فراقتني، وقدرت أني أستطيع أنْ أكتب عنها صفحة من هذه الصفحات التي تنشرها «السياسة» أيام الأحد، وما أحسب أني تعمدت إهمالها، وإنما أعلم أني شغلت عن أن أحدث قرائي في يوم من هذه الأيام، فلما كان يوم الأحد الماضي كنت قد قرأت قصة «الإغراء بالرحيل»، فكتبت عنها لأنها أعجبتني، ونبهني الكاتب الأديب إلى قصة الحبيب فسأتخذها موضوعًا لحديث اليوم، ويسرني أنْ أرضيه، وأنْ أرضي أصحابه الذين يشاركونه في الإلحاح عليَّ في أنْ أتخذها موضوعًا لهذا الحديث، ويسرني أنْ أرضيهم، وأنا في الوقت نفسه أرضي ميولي الخاصة حين ألخص هذه القصة، فأنا عنها راضٍ وإليها مطمئن، وربما قلت إني بها معجب، وإنْ كان فيها موضوع لا يعجبني، وسأدلك عليه.

لاحظ هذا الكاتب الأديب أنَّ قصة «الإغراء بالرحيل»، إذا كانت تذكر بقصة «الحب» فإن هذه القصة التي نحن بإزائها اليوم تذكر بقصة أخرى تناولتها في هذا المكان بالنقد والتحليل، وهي قصة «المتجردة» «لهنري بتايل»، وفي الحق أنَّ في قصة الحبيب شيئًا يذكر بقصة المتجردة، فالبطل في قصة الحبيب مصور نابغ في التصوير، والبطلة في قصة

الحبيب ساذجة مخلصة بعيدة كل البعد عن هذا التعقيد النفسيِّ، الذي يصيب الذين تأثروا بالحياة وبلوا حلوها ومرها! واستفادوا من دروسها القاسية، وهي تشبه من وجه ما بطلة المتجردة في سذاجتها وسلامة قلبها، والبطل في قصة الحبيب يحب امرأة غير زوجه، كما يصنع البطل في قصة المتجردة، ولكن أيكفي هذا لتصح الموازنة بين هاتين القصتين؟ أيكفي هذا ليكون التشابه بين هاتين القصتين قويًّا أخاذًا؟ أعترف بأني قرأت قصة الحبيب معنيًّا بها محققًا في قراءتها فلم أذكر المتجردة، ولم تخطر لي على بالٍ، وما كنت لأذكرها لولا أن لفتني إليها هذا الكاتب الأديب؛ ذلك لأن الفرق بين القصتين عظيم؛ لأن الكاتبين الذين كتبا هاتين القصتين لم يفكرا في شيء بعينه، ولم يقصدا إلى غاية مشتركة ولا متشابهة، وأحسب أنَّ كلًّا منهما أراد أنْ يصور شيئًا لم يفكر فيه الآخر قط، وكان صاحب قصة الحبيب يستطيع أنْ يختار بطله مصورًا، ويستطيع أنْ يختاره مَثَّالًا كما كان يستطيع أنْ يختاره من طبقة أخرى غير هاتين الطبقتين، هو لم يرد أنْ يدرس أخلاق المصورين والمثالين، ولا أنْ يعطي صورة من حياة أولئك أو هؤلاء، وإنما أراد أنْ يدرس شيئًا آخر، أراد أنْ يدرس فكرة فلسفية أو — بعبارة أدق — أراد أنْ يدرس ظاهرة نفسية، فاختار موضوعه وبيئته كما أراد، لا أقول بحكم المصادفة وإنما أقول: إنه تخير من الموضوعات والبيئات أشدها ملاءمة للظاهرة التي يريد أنْ يدرسها ويتحدث فيها إلى الناس، وما هذه الظاهرة النفسية التي لاحظها الكاتب وعني بتمثيلها، وهل هي صحيحة؟ وهل هي عامة طبيعية؟ أما أنها صحيحة فشيء لا شك فيه، وأما أنها عامة مضطردة فذلك ما لا أستطيع الجزم به.

الأمر يسير، هو أنَّ الكاتب يزعم لنا أنَّ حربًا عنيفة قد تنشب بين القلب والذاكرة، وأنَّ الذاكرة تستأثر بعواطف الرجل وأهوائه وتملك عليه رأيه وحياته العملية، حتى تنسيه كل شيء، وتصرفه عن كل شيء لتشغله بالموضوع الذي هي معنية به، وأنَّ النصر في هذه الحرب مقدر للذاكرة إذا لم تعرض ظروف خاصة تنبه العقل والإرادة من نومهما! وتبين لهما أنَّ انتصار الذاكرة هذا إنما هو خطأ لا يعدله خطأ وخطر ليس فوقه خطر، ولست أشك في أنَّ الذاكرة شديدة التأثير في حياتنا الخاصة والعامة، وربما كانت أشد ملكاتنا النفسية تأثيرًا في الحياة، فهي التي تمثل الماضي، وهي من هذه الجهة مرآة لهذا القسم من حياتنا الذي هو كل شيء، وفي الحق أنَّ الماضي هو كل شيء في الحياة، أما المستقبل فنحن نجهله الجهل كله، وأما الحاضر فأي شيء هو؟ أليس أوله متصلًا بالماضي في حين آخره متصل بالمستقبل؟ الذاكرة إذن مرآة الحياة، ومن المعقول أنْ يكون لها في حياتنا

المستقبلة تأثير عظيم جدًّا، فليست حياتنا المستقبلة إلا نتيجة في حقيقة الأمر لحياتنا الماضية، ولكنني مع ذلك أشك في أنْ يكون تأثير الذاكرة وسيطرتها على حياتنا من القوة ومن العموم والاطراد بحيث أراد الكاتب، فإذا كان المستقبل نتيجة الماضي، فنحن نخطئ كل الخطأ إنْ زعمنا أنا نعرف ماضينا حقًّا، ونذكر مع التفصيل كل ما وقع فيه، ولعلنا لا نذكر منه إلا القليل، ولعل أشدَّ الأشياء تأثيرًا في حياتنا المستقبلة هي هذه المؤثرات الخفية، التي تسيطر على عواطفنا وأهوائنا، وتدبر قوانا وملكاتنا دون أنْ نحسها أو نشعر بها، بل دون أنْ نفرض لها وجودًا، ذلك أنا لا نشعر من أنفسنا إلا بالشيء القليل جدًّا، وأنا نجهل منها أكثر مما نعلم، ولو أننا علمنا من أنفسنا كل شيء لما كنا كما نحن الآن، ولو أننا شعرنا من أنفسنا بكل شيء لانصرفنا إلى أنفسنا عما يحيط بنا من الحقائق والحوادث، ولكن العالم الخارجي يشغلنا جدًّا عن أنفسنا، فنحن نعلم من غيرنا أكثر مما نعلم من أنفسنا، وحسبك أنَّ أشد العلوم تأخرًا إلى الآن إنما هو علم النفس، إذن فمن الخطأ أنْ نغلو في تقدير الذاكرة وتأثيرها في الحياة، وإذا بلغ تأثير الذاكرة في الحياة إلى هذا الحد الذي مثله الكاتب فليس من الحق ولا من الصواب في شيء أنْ نتخذ ذلك مثالًا لما يجري في الحياة اليومية، وإنما الحقُّ والصواب أنْ نتخذه مثالًا لهذه الأعراض المرضية، التي تعرض لبعض الأفراد من حين إلى حين.

بطل قصة «الحبيب» إذن مريض، وهو لا يمثل عامة معاصريه ولا الكثرة منهم، وإنما يمثل هؤلاء الأفراد القليلين الذين يعنى بهم أطباء الأعصاب، أكثر مما يعنى بهم علماء الأخلاق والاجتماع، ولكنني أظن أنَّ الوقت قد آن لأحدثك عن هذا البطل وعن قصته، ولأترك لك وحدك الحكم بأني مخطئ في هذا الفهم أو مصيب، أما ما في القصة نفسها من عيب فنِّيٍّ، فأنا أرجو أنْ يمكنك التحليل من أنْ تشعر به دون أنْ أدلك عليه.

«جان أرجديو» مَثَّال نبغ في نحت التماثيل، ونال الوسام، وأصبح نابغة معروفًا يُشار إليه ويُعتدُّ به، ولكنه قبل أنْ يصل إلى ما وصل إليه كان كغيره من إخوانه في هذا الفن مضطربًا مختلط الحياة شاكًّا في نفسه، فقيرًا ضعيف الأمل، فلقي في طريقه امرأة جميلة فنانة قوية عظيمة التأثير، هي «أليس فليزا» أحبها وأحبته، وعاشا معًا أربعة أعوام، وكان لهذه المرأة في هذا الشاب تأثير عظيم جدًّا؛ فقد نظمت حياته بعد اضطراب، وأوضحتها بعد غموض، وحملته على العمل والجد بعد الإسراف في الكسل والخمول، وما زالت به حتى كأنها غيرته تغييرًا تامًّا، ومهما يكن من شيء فقد انتهى إلى الفوز، وأصبح نابغة من نوابغ الفن.

أما هي فقد أصبحت ذات يوم تتفقد خليلها فلا تراه، وتبحث عنه فلا تظفر به، ولم يكن من اليسير أنْ تظفر به فقد فر من باريس فرارًا، حتى وصل إلى فرنسا الوسطى، وهناك لقي صديقًا له، ولقي عند هذا الصديق فتاة من ذوي قرابته هي «ڤيڤيت» في التاسعة عشرة من عمرها، وهي زهرة نضرة كلها شباب وحياة، وكلها طهارة وبراءة، وكلها سذاجة وطيب قلب، أحبها فأحبته، فخطبها وقبلته وتزوجها بعد ثلاثة أسابيع، وعاد بها إلى باريس، ولكنه لم يسكن باريس، وإنما سكن ضاحية من ضواحيها هي «شاڤيل»، وقد استأجر بيتًا متصلًا بمصنع ضخم، يشرف عليه صديق له هو «ميشيل كريفو»، وهذا الصديق رجل ضخم الثروة، قويُّ النفس، مستقيم الخلق، كان عاملًا معدمًا، فجد حتى أصبح غنيًّا ميسورًا.

فإذا كان الفصل الأول، فقد مضت على هذا الزواج أشهر ثمانية، وتغير في أثنائها هذا الشاب المَثَّال، فأخذ يفكر في الماضي ويتأثر بالتفكير فيه، وهو يحب زوجه حبًّا شديدًا، ولكنه عن زوجه مشغول، مشغول بتلك التي أحبها وفر منها قبل الزواج، وهو لا يحدثنا بذلك، ولكننا نفهمه من سياق القصة، نرى هذا الشاب في أول الفصل، وقد خرج من غرفته إلى معمله، وأخذ يستعد للعمل، ولكنه سمع في الحديقة صوت زوجه تدعو الخادم إلى أنْ تحمل إليه القهوة، فلم يكد يسمع هذا الصوت حتى أظهر تبرمًا وملًا، وكتب في ورقة هذه الكلمة «سأعود»، ثم ألصق الورقة إلى الحائط وخرج مسرعًا، تقبل زوجه والخادم، أما الزوج فتحمل أزهارًا، وأما الخادم فتحمل القهوة أو الشاي، فإذا لم تجد زوجها ظهر عليها الأسف وخيبة الأمل، وكان بينها وبين الخادم حديث فهمنا منه أشياء، الأول أنها تحب زوجها حبًّا لا حد له، وتثق به ثقة لا يعرف الشك إليها سبيلًا، والثاني أنَّ هذا الزوج غريب الأطوار، فهو إذا أراد العمل اعتزل الناس جميعًا حتى زوجه، وهو قد اتخذ لنفسه غرفة خاصة بجوار المعمل ينام فيها، وليس لأحد أنْ يدخلها حتى زوجه، الثالث أنَّ زوجه تصدق هذا كله وتذعن له، فلا تدخل الغرفة ولا تغير من أمر المعمل شيئًا؛ لأنها تخاف أنْ تغضبه، وهي حريصة على الطاعة، والرابع أنَّ هذا الرجل يرى زوجه حديثة السن شديدة السذاجة، وكأنه يكره ذلك، فهي تتكلف أنْ تكون كبيرة، وأنْ تكون ماهرة ماكرة، حتى لا تظهر مظهر الطفلة، الخامس أنه يعمل في هذه الأيام، وأنَّ عمله منصرف إلى أنْ يصنع تمثالًا نصفيًا لامرأته، ولكن امرأته ترى هذا العمل دون أنْ تستطيع أنْ تنظر إليه ما لم يكن زوجها حاضرًا، كل هذا يمثل لك حياة هذين الزوجين،

ويحملك على أنْ تفهم من الرجل أكثر مما تفهم منه امرأته، فإذا عاد الزوج وكانت امرأته قد خرجت من المعمل نظر فإذا الشاي، ونظر فإذا الأزهار منثورة في كل مكان، فيميل إلى هذه الأزهار، فإذا ورد جميل، لا يكاد ينظر إليه حتى يغضب غضبًا شديدًا، فيدعو زوجه، فتقبل مسرعة وهي فرحة مبتهجة، ولكنه يلقاها باللوم، أليست قد أساءت حين حملت إليه هذه الأزهار كلها؛ لأن هذه الأزهار إنما هي التي غرسها البستاني أمس، فهي لحمقها قد أفسدت عمل البستاني، وهي تسمع لهذا محزونة كئيبة معتذرة، ولكنها قد أساءت إساءة أخرى، فتركت مظلتها أمس في المعمل، وقد عثر بها زوجها فكاد يسقط، وهي تعتذر، ولكن زوجها يحبها، ولا يكاد يراها كئيبة محزونة تمثل الطفل في كآبتها وحزنها حتى يرق قلبه، فيضمها إليه يريد أنْ يقبلها، ولكنه قد شم منها رائحة أنكرها، فيسأل فإذا هي كانت تعد «الفاصوليا» لطعام الغداء، فيغضب غضبًا شديدًا! لديها خادم، ولديها طباخة، فما لها وللفاصوليا!

– ولكنك لم تنهني عنها، وإنما نهيتني عن تنظيف السمك فأطعت!

يعجبه منها كل هذه السذاجة، فيبسم لها ويقبلها ويمسكها في المعمل يريد أنْ تجلس لينظر إليها، ويمضي في تمثاله وهي بذلك سعيدة جدًّا، ولا يكاد يأخذ في العمل حتى يحس أنَّ أحدًا مقبل، فينظر فإذا امرأة مقبلة، يتلقاها لقاءً حسنًا، وقد استخفت «ڤيڤيت» هذه المرأة المقبلة هي «نيكول بشلان» امرأة جميلة غنية كانت تكره زوجها وقد فقدته، وهي سعيدة بهذا الفقد، ولكنها لبست الحداد عملًا بالأوضاع الاجتماعية، وقد أوشكت أيام الحداد أنْ تنتهي، وهي قد أقبلت تدعو «جان» إلى العشاء عندها بعد أيام، وأقبلت أيضًا تسأل عن عربة لها في مصنع «ميشيل كريفو» الجار الذي وصفته لك آنفًا، ولكن هذه المرأة لا تتحدث في هذه الأشياء وحدها، وإنما تتحدث في أشياء أخرى، تذكر «أليس فليزا» عشيقة «جان»، وما كان من أمرها بعد القطيعة، وأنها مرضت مرضًا أشرف بها على الموت، وقد أخذت تُبِلُّ من هذا المرض، وهي معتزمة السياحة، وهي تمضي في هذا الحديث مفتنة فيه، وصاحبنا يسمع لها كارهًا متألمًا مغتاظًا، ثم يتركها ليمضي في شأن من الشئون، وقد دعا امرأته لتقوم مقامه، فتقبل «ڤيڤيت»، ولا تكاد تتحدث إلى هذه الزائرة حتى تفهم من حديثها أنها سيدة مغتبطة واثقة، وتحاول الزائرة أنْ تفتح عنها، وأنْ تدلها على ماضي زوجها، فلا تظفر منها بشيء، وهما كذلك إذ يدخل «ميشيل كريفو»، فيتحدثون في أمور كثيرة لا قيمة لها، ولكن هذا الرجل تعوَّد أنْ يأتي إلى هذا البيت كل صباح، فيدخن ويشرب كأسًا من نبيذ بوردو ثم ينصرف، وقد ذهبت «ڤيڤيت»

لتحمل إليه نبيذه، فخلا إلى هذه المرأة، وكان بينهما حديث لذيذ، فهمنا منه أنه يخطبها وأنها قابلة، ولكنها مترددة؛ لأنها تحب الرجل ولكنها تكره الزواج، وهي تكره الزواج وتزدري العشق، وإذن فهي تريد أنْ تظل أرملة، وهي تعتقد أنَّ الزواج مصدر شقاء لا مصدر سعادة، وتتحدى صاحبها، وتسأله أنْ يذكر لها زوجين سعيدين، فإذا ذكر لها صاحبَيْ هذا البيت شكَّت في سعادتهما، واتهمت صاحبها بالغفلة، وقد أقبلت «ڤيڤيت» ومعها النبيذ، ومال صاحبها إلى نبيذه يشربه، وأقبل «جان» وأخذ «ميشيل» و«نيكول» يستعدان للانصراف، وأمسك جان امرأته ليمضي في عمله، ولكن الخادم أقبلت فطلبت الإذن لرجل أقبل زائرًا، فيغضب جان ويشير على امرأته أنْ ترافق ميشيل ونيكول ريثما يستقبل هو هذا الزائر.

ويستقبل هذا الزائر، فإذا هو رجل يعمل في مكتب من مكاتب المراقبة المعروفة في باريس وغيرها من المدن الكبرى، وإذا جان كان قد طلب إلى صاحب هذا المكتب أنْ يراقب خليلته القديمة «أليس» وينبئه بأخبارها كل يوم؛ ذلك أنه عرف مرضها ولا يستطيع أنْ يتعرف أنباءها، فقد اعتمد على هذا المكتب في ذلك، وكلف المكتب هذا العمل، وأخذ الرجل يختلف إلى بيتها، ويتعرف أنباءها من خادم لها، ولكن الخادم دلت سيدتها عليه، فبينما هو ينتظر الخادم ذات يوم أقبلت فأنبأته أنها بخير، وأنها نهضت من سريرها، وأنَّ الطبيب يشير عليها برياضات قصيرة في العربة، وقد أخطأ الرجل لأنه دل على نفسه، فأقبل معتذرًا إلى جان، يضرع إليه في ألا ينبئ بهذا الخطأ رئيس المكتب، وأكبر ظنه أنَّ «أليس» هذه تريد أنْ تزور «جان» في بيته، ولكن جان مغضب لخطأ هذا الرجل فيصرفه، ويأخذ في التحدث إلى نحَّاته في أمر من أمور عمله، وما هي إلا أنْ يعود هذا الرجل فينبئ «جان» بأنه رأى «أليس» مقبلة، وقد أقبلت «أليس» بالفعل، فيتلقاها «جان» مضطربًا ذاهلًا، حتى لينسى أنْ يقدم إليها كرسيًّا، فإذا خلا أحدهما إلى الآخر كان موقف هو خير ما في هذا الفصل؛ لأنه يمثل حدة العواطف وقوتها في نفس هذه المرأة المهجورة العاشقة التي تريد أنْ تنتقم لحبها وأنْ تسترد حبيبها، والتي هي واثقة بأن حبيبها لم ينسَها بعد، وبأنه ما زال لها عاشقًا وبها مشغوفًا، وإلا ففيم سؤاله عنها وهي مريضة؟ وهي تريد أنْ تستغل هذا، وتسترد مكانتها كاملة في نفس هذا الشاب.

أما الشاب فمضطرب أشد الاضطراب، هو يحب هذه المرأة، وهو يحب زوجه، وهو يؤثر زوجه على هذه المرأة، وهو يريد أنْ يخفي حبه لعشيقته حتى على نفسه، فهو ينكر هذا الحب ويلح في الإنكار، ولكن إنكاره لا يدل إلا على أنه يحب وعلى أنه يحب جدًّا، يقول

لصاحبته: لا أحبك وما أحببتك قط، فتجيب ساخرة، سعيدة راجية: وستحبني طوال الدهر، ثم تعلن إليه أنها قد دبرت كل شيء لتفر بحبهما، ولتخلصه من هذا المأزق، أمَا كانا قد تحدثا قديمًا عن سياحة بعيدة يسيحانها معًا، فهي قد دبرت هذه السياحة، وسيسافران يوم الجمعة، فإذا أظهر المقاومة أعلنت إليه أنها ستنتظره، فإذا لم يأتِ فهي قاتلة نفسها، وقد مضت وتركته ذاهلًا، ذاهلًا حتى إنه ليختلط حين يسأله نحَّاته عما يعمل، وقد أقبل «ميشيل» سعيدًا مغتبطًا؛ لأن صاحبته قد رضيته لها زوجًا، ولكنه ينظر فإذا جان كئيب، فإذا سأله عن ذلك قص عليه أمره وأنبأه بأنه مجرم لا يحب امرأته، وإنما يحب عشيقته، وهو إنما تزوج ليخلص من هذه العشيقة، فهو قد اتخذ امرأته دريئة، وهو لا يستطيع أنْ يمضي في هذا الكذب والنفاق، وهو يلح في ذلك وصاحبه يهدئه ويعظه، وإذا «ڤيڤيت» تقبل فرحة مبتهجة ساذجة، تريد أنْ تلقي بنفسها بين ذراعي زوجها، وتتأهب لذلك فتعدُّ: واحد، اثنان، وإذا زوجها قد نسي كل شيء ورق لها، وإذا هو قد بسط ذراعيه وإذا هو يقول ثلاثة، ثم يضمها إليه.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في ذلك اليوم الموقوت يوم الجمعة، وقد أخذ الشاب يتردد بين الضاحية وبين المدينة، وهو يخيل إلى امرأته أنه مشغول بعمل تطلبه إليه وزارة الفنون الجميلة، وصدقته امرأته ووثقت به، حتى إنَّ الخادم والنحَّات يسخران منها، ونحن في الساعة الثالثة بعد الظهر، وقد خرج الشاب صباحًا فلم يعد، وانتظرته زوجه إلى الساعة الثانية، ثم تغدت وحدها، والخادم الآن تحمل القهوة، وتحمل قدحين؛ لأن ڤيڤيت تنتظر زوجها، وتعلل نفسها بتناول القهوة معه، وقد أقبلت وإذا جرس التليفون يدق، فتعمد إلى التليفون مبتهجة تحسب أنَّ زوجها هو الذي يتحدث، ولكن الذي يتحدث ميشيل، يسألها: أيستطيع أنْ يزورها ومعه صاحبته «نيكول»؟ فتجيبه: أن نعم! وهي تجيبه إذ يظهر زوجها، فتترك التليفون وتسرع إليه تسأله وتتبين أمره وهو محزون كاسف البال، فيخيل إليها أنه متعب وأنه لم يتغد، ولكن تغدى في باريس وهو يريد شيئًا من القهوة، ولكنها ترى أنَّ هذه القهوة الفرنسية ليست شيئًا، فتصنع له قهوته التركية، وقد انصرفت مسرعة، وظل الشاب والخادم، فيأمرها بأن تعد له حقيبته؛ لأنه قد يسافر الليلة، وينبئها بأنه ينتظر رسالة برقية، فيجب أنْ تحملها إليه حالًا، وتنظر الخادم، ثم تنصرف وتعود بسرعة ومعها سترة تحملها إلى سيدها، فإذا أنكر ذلك لفتته إلى أنَّ سترته في حاجة إلى التنظيف، فينظر فإذا آثار «البدرة» على كتفيه، فيخرج من سترته ويدخل

في الأخرى وقد فهم، لم يكن إذن في وزارة الفنون الجميلة، وإنما كان عند صاحبته، وقد أقبلت زوجه تحمل إليه القهوة، فينبئها بأنه مسافر إلى مارسيليا الليلة وأنه ينتظر رسالة برقية، فإذا سألته عن مصدر هذا السفر أنبأها أنَّ الحكومة تريد أنْ تعهد إليه عملًا في المحطة الجديدة التي تنشأ في مارسيليا، ولذيذ جدًّا هذا الحديث؛ لأنه يمثل هذا التناقض الشنيع بين امرأة خفيفة الروح تثق بزوجها ثقة لا حد لها، فهي تلهو وتمزح في سذاجة واطمئنان، وهو يخدعها ويخونها ويكذب عليها ويمعن في الكذب، ويتكلف مع هذا كله أنْ يلهو ويداعب، ويقبل «ميشيل» وصاحبته، فلا يكادون يتحدثون حتى يكون الكاتب قد نظم لنا طريقة تمكن الرجلين من الخلوة، فيخلوان ويتحدثان، أما «جان» فيقص أمره على صاحبه وينبئه أنه مسافر الليلة، وليس من سبيل إلى تخليه عن هذا السفر، فهو ينكر كل شيء، ولا يعقل شيئًا ولا يرى شيئًا، ولا يفكر في شيء إلا صاحبته، قد فقد كل قواه وأصبح أداة مسخرة، ويحاول صاحبه أنْ يصرفه عن ذلك، فما أسرع ما يشعر بأنه لن يصل منه إلى شيء، وقد كتب جان كتابين يدفعهما إلى «ميشيل»، أحدهما إلى امرأته فيه اعتذار وتسلية، والآخر إلى ميشيل فيه تدبير الأمور المادية، فإذا سأله «ميشيل» وأين أكتب إليك، أجابه: لا تكتب إليَّ، فليس في ذلك فائدة، وقد عادت المرأتان، ونظم لنا الكاتب طريقة أخرى يخلو بها ميشيل إلى ڤيڤيت فيتحدثان، وإذا ڤيڤيت تحس أنَّ في الجو شيئًا لا تفهمه، وأنها تخشى هذا الشيء فينبئها به ميشيل، ويظهرها على كتاب زوجها إليها، فلا تسل عن دهشتها ولا عن ذهولها ولا عن حسرتها وبكائها، ولكن ما أسرع ما تملك نفسها، وقد أخذ صاحبها ينصح لها بالثبات والمهارة، ينصح لها أنْ تملك نفسها وأنْ تضحك، ولا تظهر من اضطرابها شيئًا، وأنْ تلح ضاحكة في مرافقة زوجها إلى مارسيليا.

– فإذا أبى؟

– فاضحكي ورافقيه.

– فإذا غضب؟

– فبالغي في الضحك ورافقيه.

وقد فهمت وقبلت وملكت نفسها، ويقبل جان، فإذا هي مبتسمة هادئة، كأنها لم تعلم بشيء، وكأنها لا تتوقع شيئًا، وتقبل الخادم تحمل الرسالة البرقية فتخطفها ڤيڤيت وتفضها وتحصي ألفاظها، وقد اشترطت على زوجها أنْ يقبلها إنْ تجاوزت الألفاظ عشرة، وقد تجاوزت الألفاظ هذا العدد، فيقبلها وكلاهما متكلف، أما هو فيتكلف الكذب والخديعة، وأما هي فتتكلف الصبر والجلد، وفي الحق أنه لم يكن أقل منها حزنًا، ولكنه عن

حزنه وعن قلبه مشغول، فهو لا يفكر إلا في صاحبته، وأعلنت إليه امرأته أنها سترافقه فجزع، فضحكت وأعلنت إليه أنها سترافقه إلى باب الحديقة! ثم ينهض ليعد أمره، ويخلو إلى مكتبه حينًا وينصرف الزائران، ولا تكاد تخلو ڤيڤيت إلى نفسها حتى يدق جرس التليفون، فتعمد إليه فإذا امرأة تتكلم تسأل عن «جان»، وهل وصلت إليه الرسالة البرقية، فما أسرع ما تفهم ڤيڤيت! وما أسرع ما تجيب! كأنها الخادم، تجيب بأن سيدها يعمل كما يعمل في كل يوم، وبأن رسالة برقية لم تصل، وبأن سيدها لم يذكر السفر ولا يظهر أنه يفكر فيه، وكأن المرأة تنبئها بأنها مقبلة؛ فتجيبها «ڤيڤيت» أن أقبلي، وكأنها تتحداها؛ وقد تركت التليفون ووقفت موقف من يستعد للحرب ويتحدى خصمًا عنيدًا.

وما هي إلا أنْ تقبل «أليس»، فيكون بينهما موقف لا يقل جمالًا عن موقف «أليس» مع صاحبها في الفصل الأول، تضطرب «أليس» حين ترى «ڤيڤيت»، ثم تسرع فتملك نفسها، وتسأل عن «جان» فتجيبها «ڤيڤيت» أنه منصرف إلى عمله، وأنه أمر أنْ لا يدخل عليه أحد، وتلح «أليس»، فتنفجر الخصومة بين المرأتين، وتظهر «ڤيڤيت» قوية عنيفة، فتطرد المرأة طردًا وتزدريها ازدراءً منكرًا، وتعلن إليها أنها قد علمت كل شيء، وأنَّ زوجها ليس بالمسافر ولا بالمفكر في السفر، وتبالغ في ذلك حتى لكأنها لتسحق المرأة سحقًا، وقد انخذلت «أليس» وأخذت تنصرف، وعليها خزي وخجل، ولكنها نظرت إلى وجه صاحبتها، فإذا ابتهاج غريب قد ظهر على وجه «ڤيڤيت» حين رأتها تنصرف، فتفهم «أليس»، وتقدر أنَّ هذا الجلد وهذا العنف ليسا إلا تصنعًا وتكلفًا، فتعود وقد أخذت من القوة والانتصار بحظ عظيم، وإذا هي تهدد! وإذا هي تطالب بصاحبها، وإذا هي تعلن إلى هذه المرأة أنها لا تحب «جان»، وإنما تحبها هي، فهي التي كونت جان وما فيه من خلق وما فيه من خصلة، وهي التي جعلته كما هو ظريفًا وديعًا محببًا نابغة، وإذا هي تعلن إليها أيضًا أنَّ جان لا يحبها، وإنما يحب صاحبته القديمة، وأنَّ كل ما بذل لها من لين ورفق، وكل ما أظهر لها من حب وعشق إنما تعلمه بين ذراعيها، وأما أنت فلم تلهميه شيئًا ولم تثيري في نفسه عاطفة، إنه ليمنحك فضل حبه إياي! وإذا «ڤيڤيت» هي المنخذلة، وإذا هي تجهش بالبكاء حتى يثير في نفس «أليس» عاطفة الرحمة، فتسألها العفو ثم تعرض عليها أنْ تدعو «جان» ليختار هو بينهما، فتقبل وتنهض لتدعو زوجها، ثم يبدو لها فتعود وقد تغير في نفسها كل شيء! هي جزعة، وهي يائسة، وهي قد نزلت عن زوجها، وهي ترده إلى صاحبته، وهي تسألها أنْ تنصرف وتقسم لها لتردنه إليها في عشر دقائق، وقد انصرفت وأقبل جان مستعدًا للسفر وفي يده حقيبته وهو محزون يجاهد حزنه، وهي محزونة

قد كتمت حزنها، وأظهرت الصبر والجلد والابتسام، وكأنها لا تعلم شيئًا، وكأنها تنتظر عودته بعد أيام، وهي مبتسمة وقد عدلت عن مرافقته حتى إلى باب الحديقة وكان يود لو رافقته قليلًا، ولكنها تأبى، وينصرف وقد انحنى ظهره حزنًا وأسفًا، وما كاد ينصرف حتى تجزع «ڤيڤيت» جزعًا شديدًا، وإذا هي قد أخذت قلنسوتها فوضعتها على رأسها في غير نظام، وأسرعت إلى الطريق تدعو زوجها.

فإذا كان الفصل الثالث، فنحن في فندق من فنادق مارسيليا، وبين يدينا فتاة تكتب على الآلة الكاتبة، وقد أقبلت فتاة أخرى تحمل أزهارًا، وتحدثت الفتاتان ثم أقبل «ميشيل»، وقد فهمنا من هذا كله أنَّ «ڤيڤيت» عندما أسرعت إلى الطريق تدعو زوجها قد مضت في سبيلها حتى وصلت إلى المحطة، حتى أخذت القطار، فوصلت إلى باريس وإلى محطة ليون فلم تجد زوجها، فأخذت أول قطار إلى مرسيليا، ووصل «ميشيل» إلى بيت «ڤيڤيت» يتعرف أخبارها، فلما أنبئ بأنها خرجت وحدها صائحة توقع شرًّا، فمضى في طلبها حتى بلغ محطة ليون، وأخذ أول قطار إلى مارسليا، فلم يكد ينزل من القطار حتى رأى «ڤيڤيت»، وكانت قد أخذت القطار نفسه، ولكنها أخذت الدرجة الثالثة؛ لأنها لم تكن تحمل ما يكفي من النقود، وقضت الليلة واقفة في القطار معرضة لبرد الجو وحر قلبها، فلم تصل إلى مارسيليا حتى كانت الحمى قد استأثرت بها، وأدركها ميشيل وهي في خطر شديد فاضطرها إلى هذا الفندق، ودعا طبيبًا وأبرق إلى «نيكول» يستقدمها، وقد عني الطبيب بهذه المريضة منذ أيام، وقد أخذت تفيق وتسترد قواها، حتى إنَّ الطبيب يرى أنَّ ليس بها من حاجة إلى الممرضة.

أما ميشيل فلم يضع وقته، وإنما انصرف في أثناء إقامته في مارسيليا إلى العناية بهذه المريضة من جهة وإلى البحث عن زوجها من جهة أخرى، وقد أقسم ليدركن هذا الزوج الهارب، فأمر بمراقبة السفن المسافرة مراقبة شديدة، ثم كتب إلى «جان» كتبًا أنبأه فيها بأمر «ڤيڤيت»، وأرسلها إلى جميع الفنادق التي يمكن أنْ يئوي إليها جان، وهو الآن ينتظر نتيجة هذا البحث، وانظر إلى هذا الموقف وقد أخذ الطبيب يلاطف المريضة ويهدئها، ثم انصرف وترك معها الممرضة، وأخذت هذه الممرضة تستعد للانصراف، وهي تبحث في حقيبتها، وتظهر ما فيها شيئًا فشيئًا تلتمس منديلًا، وفي أثناء هذا البحث أظهرت مسدسًا، زعمت أنها تحمله لتدفع عن نفسها، فهي تختلف إلى الأحياء البعيدة، وتتعرض لاعتداء المعتدين، ولكنها لم تجد المنديل، فتلح عليها «ڤيڤيت» في أنْ تذهب لتأخذ

أحد مناديلها فتفعل، وإنها لفي ذلك إذ تسرع «ڤيڤيت» إلى المسدس فتختلسه اختلاسًا وتخفيه، وقد أقبلت الممرضة فشكرت وأخذت حقيبتها وانصرفت، ولم تشعر باختلاس المسدس، وفهمنا نحن أنَّ «ڤيڤيت» إنما اختلست المسدس لتقتل نفسها، وهي مع ذلك تظهر هدوءًا واطمئنانًا، حتى إنَّ ميشيل ليأتي فيحدثها فلا تجيبه إلا هادئة مطمئنة، ثم تنصرف إلى غرفتها وكأنها متعبة تريد أنْ تستريح، وتقبل الخادم وتحمل بطاقة، فإذا هي بطاقة جان، فيأذن له ميشيل وينتظر ويفتح الباب، ولكن لا يدخل جان، وإنما تدخل «أليس».

ولست أحدثك عما يدور بينها وبين ميشيل من الحديث، لكن «ڤيڤيت» تسمع ما يدور بينهما، فتخرج إليهما وتلح على ميشيل في أنْ يتركها حينًا فيفعل، ويكون بين المرأتين موقف لا يخلو من جمال ليس فيه أول الأمر جهاد ولا حرب، وإنما فيه استعطاف وتضرع. «ڤيڤيت» يائسة من زوجها لا تطمع منه في شيء، وهي راضية بحظها لا تطلب إلا شيئًا واحدًا، تطلب أنْ يقرأ كلمة موجزة كتبتها إليه، ولكن «أليس» تأبى عليها حتى هذا الطلب، لقد استردت صاحبها ولم يكن هذا يسيرًا، وهي لا تريد أنْ تفقده مرة أخرى، لا تريد أنْ يتصل الأمر بينه وبين ماضيه، هي تكره، بل تخشى أنْ يرى «جان» شيئًا يذكره «ڤيڤيت»، ومهما تستعطفها ڤيڤيت فهي لا تعطف ولا تلين، هي تعلم أنها قاسية، ولكنها تريد هذه القسوة، هي تنتقم لنفسها ولحبها ولحياتها لا من «ڤيڤيت»، بل من الزواج ومن الحياة الشرعية الاجتماعية التي تبيح كل شيء للمتزوجات، وتحظر كل شيء على العاشقات، وقد يئست «ڤيڤيت»، وانتهى بها اليأس إلى أقصاه، وإذا الموقف قد تغير تغيرًا تامًّا، تريد «أليس» أنْ تنصرف فتحول «ڤيڤيت» بينها وبين الباب، وقد صوبت إليها المسدس تريد أنْ تقتلها، وهي لم تكن تريد ذلك، إنما كانت تريد أنْ تقتل نفسها، ولم تكن تطمع إلا في أنْ يعلم جان أنها أحبته، وسعت إليه ثم عفت عنه، فأما هذه المرأة التي تأبى حتى أنْ تنزل لها عن هذا الشيء القليل فستقتلها ثم تقتل نفسها، وهي كذلك إذ يفتح الباب ويدخل ميشيل ومعه جان، ذلك أنَّ ميشيل قد لقي جان في أسفل الفندق، فحدثه بكل شيء، وساقه ليرى هاتين المرأتين معًا، فإذا دخلا ورأى جان زوجه وفي يدها المسدس أقبل إليها مستفسرًا، فنزعه من يدها وقد بلغ به التأثر أقصاه، فجلس وأطرق يبكي، وميشيل يسأله أنْ يفصل في هذه القضية وأنْ يختار بين المرأتين، وهو أضعف من أنْ يختار، فقد أساء إليهما جميعًا وجنى عليهما جميعًا، وهو قد أحب «ڤيڤيت» بكل قلبه، وأحب «أليس» بكل ذاكرته، وهو يقول ذلك ويمضي في البكاء، أما «ڤيڤيت» فقد أقبلت

إليه وجثت أمامه تلاطفه وتلح عليه في أنْ يمضي مع صاحبته، فهي لم تكن تطمع في أكثر مما نالت، أليست قد رأته؟ أليست قد أعلنت إليه حبها وعفوها؟ إنها لتحبه إنْ مضى أكثر مما تحبه إنْ أقام، ولكنه يبكي وهي جاثية بين يديه، والأخرى واقفة ذاهلة أول الأمر، ثم متنبهة شاعرة بأنها قد خسرت الموقعة، فهي تتقهقر قليلًا قليلًا إلى الباب تريد أنْ تنصرف دون أنْ يشعرا بها، ولكنها مع ذلك تحس أنه يراها تنصرف، وأنه يتجاهل ذلك، فتمضي في تقهقرها حتى تخرج، وقد فتح ميشيل لها الباب في هدوء ثم أغلقه من دونها.

أعترف بأن إعجابي بالفصلين الأولين عظيم، ولكني أعترف بأن الفصل الثالث مضطرب مرتبك، فقدْ فقدَ أو كاد يفقد كل دقة وكل جمال فني، وأنه قد حول القصة من نوع فني إلى نوع آخر، ولو أنَّ الكاتب استأنى ولم يتسرع؛ لاستطاع أنْ يختار من كل هذه المناظر المختلفة منظرًا أو منظرين تنتهي بهما القصة انتهاءً حسنًا، كما ابتدأت ابتداءً حسنًا، وما رأي صاحبي الذي كتب إليَّ يوازن بين هذه القصة وبين «المتجردة»؟

ألا يزال حريصًا على هذه الموازنة؟

إبريل سنة ١٩٢٤

المصابيح

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «هنري بتايل»

وكذلك يجب أنْ أقدم شكرًا خالصًا إلى طالب أديب من طلاب مدرسة الحقوق الملكية، كتب إليَّ كتابًا رقيقًا، يسألني فيه أسئلةً أريد أنْ أجيب عليها، ولكن في إيجاز شديد؛ يسألني: ما بال كُتَّاب التمثيل من الفرنسيين يضعون قصصهم كلها أو أكثرها فيما يمس خيانة العلاقات الزوجية؟! ثم ما بالهم يميلون في الانتهاء بهذه القصص إلى العفو عن الخائن أو العطف عليه؟! ثم ما بالي أنا لا أكاد أختار أو لا أختار من هذه القصص إلا ما يمس هذا الموضوع؟!

أمَّا أنَّ الكُتَّاب الممثلين من الفرنسيين وغير الفرنسيين يؤثرون هذا النحو من القصص التمثيلي على غيره فحقيقة واقعة، ولكن لا إلى الحد الذي يتصوره السائل الأديب، ففي ملاعب التمثيل قصص كثيرة لا تعرض لخيانة الزوجية، ولا تميل إلى العطف على الخائنين، وإنما تعرض لأشياء أخرى من فروع الحياة التي تتصل بالعواطف والأهواء، وليس من الحق أيضًا أني لم أختر من هذه القصص البعيدة عن خيانة الزوجية شيئًا، فقد اخترت قصصًا لم يعرض فيها كتَّابها للزواج ولا لخيانته، ويكفي أنْ ألفت السائل الأديب إلى «الدمية الجديدة» و«نشوة الحكيم» «لفرنسوا دي كوريل» و«شأو القبس» «لبول هرڤيو»، وإلى قصص أخرى عرضت لها ولا أذكرها الآن، فإذا أردنا أنْ نتبين السبب الذي من أجله يعرض الكتاب الممثلون لصلات الزوجية وخيانتها فهو يسير؛ ذلك أنَّ الحياة الجنسية، أو — بعبارة أوضح — الصلة بين الرجل والمرأة هي أهم فروع الحياة وأشدها تأثيرًا في

نفوسنا وسيطرة على أهوائنا وعواطفنا، أردنا ذلك أو لم نرد، ولست في حاجة إلى تعليل ذلك، فهو شيء قد فرغ الناس منه، وإذا كانت الصلة بين الرجل والمرأة من الخطر بهذه المنزلة، فليس عجبًا أنْ يعرض لها الكتاب، فيدرسوها ويحللوها، ولكن ماذا ينبغي أنْ يدرسوا ويحللوا من هذه الصلة؟ أيدرسون الصلة الهادئة المطمئنة التي ليس فيها عوج، ولم تعترضها أزمة قوية ولا ضعيفة، وإنما تمضي مع الزمان في هدوء واطمئنان! وماذا يدرسون من هذه الصلة وماذا يحللون؟ وأي شيء فيها يستحق أنْ يدرس أو يحلل! بل أي شيء فيها يستحق أنْ يقال! ومن الذي قد وهبه الله الصحة والعافية فهو يعنى بتحليل هذه الصحة والعافية والبحث عن أسبابها ونتائجها؟ إنما يعنى الإنسان بمرضه وأعراض مرضه وأسباب هذا المرض ونتائجه؛ لأن هذا المرض خليق أنْ يدرس ليتقي، وهو خليق أنْ يدرس لتتقي نتائجه إذا لم يكن إلى اتقائه سبيل، والأمر على هذا النحو في صلات الزوجية إذا درست وحللت، تدرس وتحلل حتى تستحق الدرس والتحليل؛ أي حين تنشأ فيها الأزمات، وحين تتعرض للأخطار.

وأما أنَّ الكتَّاب يميلون إلى العفو عن الخائن أو العطف عليه، فليس هذا صحيحًا دائمًا، وهو صحيح في كثير من الأحيان، وإلى من يريد السائل الأديب أنْ يميل الكاتب؟ وعلى من يريد السائل الأديب أنْ يعطف الكاتب؟ أعلى الصحيح؟ ولِمَ نميل إليه ولِمَ نعطف عليه؟ أم على المريض؟ أليس المريض خليقًا أنْ نميل إليه ونعطف عليه ونُعنى به ونطب لأدوائه وعلله؟ وهل خيانة الزوجية وغيرها من الآثام والنقائص التي يتورط فيها الناس إلا ضروب من العلل وألوان من الضعف؟! لم يقصد إليها الإنسان عمدًا ولم يختر التورط فيها، وإنما اضطر إليها اضطرارًا، واضطرته إليها أسباب قاهرة لم يجد إلى التخلص منها سبيلًا؟ أخشى أنْ يظن السائل أنَّ العطف على الخائنين والآثمين تشجيع للخيانة والإثم، فذلك بعيد كل البعد عن الحق والصواب، ليس هذا العطف تشجيعًا للآثم، وإنما هو فهم له وإدراك لأسبابه، وإذا كان الذين يدعون إلى أنْ يلغى القضاء بالموت على القتلة والمجرمين لا يشجعون القاتل ولا يؤيدون المجرم، وإنما يعتقدون أنه إلى المرض والضعف أقرب منه إلى تعمد الإثم والقتل، وهو إذن بالعناية والعلاج أحق منه بالقصاص، أقول: إذا كانت هذه حال الذين يلغون القضاء بالموت على القتلة، فقريب منها حال الذين يعرفون الضعف الإنساني وأسبابه، فيعطفون على الضعفاء، ويعملون لإصلاحهم لا للانتقام منهم.

ولو أني ذهبت أفصل للسائل الأديب وجوه هذه المسألة، وما ينشأ عنها من بحث متشعب دقيق لأسرفت في الإطالة، ولتجاوزت القصد، وأنا إلى هذا القصد شديد الحاجة،

فأمامي قصة أريد أنْ أحللها، وأحسب أنَّ السائل الأديب سيجد من قراءتها شيئًا من الجواب على أسئلته.

نعم! سيرى أنَّ بطل هذه القصة خليق بعطفنا كله، وإنْ لم تعطف عليه الطبيعة ولم يرفق به هذا العدل الخفي الذي يظهر أنه يسيطر على هذه الحياة، هو خليق بعطفنا كله، وهو مع ذلك قد خان صلة الزوجية، واضطر إلى خيانة الصداقة والإساءة إلى الصديق، ولكنه لم يتعمد ذلك تعمدًا، وإنما تورط فيه تورطًا، واضطرته إليه هذه الأسباب الخفية التي أشرت إليها آنفًا، والتي يخيل إلينا أنها ليست في حقيقة الأمر إلا طائفة من الشياطين، قد استخفت في طريق الإنسان تتربص به الدوائر، وتنتهز له الفرص، وتضطره إلى السوء اضطرارًا، وإنْ كان من أشد الناس طهرًا، وأعظمهم ميلًا إلى الخير وبعدًا عن الإثم، ولست أريد أنْ أقدم المقدمات الطوال ولا القصار في شرح هذه القصة وتفسيرها، وإنما أريد أنْ تفسر القصة نفسها، فآخذ منذ الآن في التحليل.

«لوران بوچيه» عالم فرنسي بعيد الصوت رفيع المنزلة، قد وقف جهوده على علم الحياة، فوصل بالبحث إلى نتائج عظيمة الخطر جعلته موضع الإجلال لا في فرنسا وحدها، بل في العالم كله، وهو لا يعمل وحده، وإنما يستعين على عمله الجليل بزوجه «جان»، وهي أجنبية أحبت زوجها، وأحبها هذا الحب العقلي الذي ينشأ بين شخصين ممتازين، وهما يعملان معًا متحابين متعاونين، ولئن كان الزوج نابغة فليس حظ امرأته من الذكاء والتفوق بقليل، ويعينهما قوم كثيرون، منهم الطلاب ومنهم الأساتذة، ولكن من بينهم جميعًا رجلًا قد تفوق عليهم حتى التحق أو كاد يلتحق بالزوجين، وحتى أصبح لهما صديقًا حميمًا، وحتى تعوَّد الأستاذ «بوچيه» أنْ يطلق لفظ الثالوث على هذه الجماعة التي تتألف منه ومن امرأته ومن صديقهما «بلونديل»، وقد عهدت الدولة إلى هذا الأستاذ في الإشراف على معهد علميٍّ جليل هو معهد «كلودبرنار»، فاتخذه مكانًا لهذه المباحث العلمية التي أخذت تثمر، وتظهر النتائج الهامة منذ عشرين عامًا متصلة، ولهذا الأستاذ ابنة هي «مارسيل»، قد أحبت العلم ومالت إليه وتقدمت فيه تقدمًا حسنًا، درست في فرنسا ثم ذهبت تتم درسها في ألمانيا، فلقيت في أثناء ذلك فتاة مجرية كأنها عطفت عليها ورقت لها، واصطحبتها إلى باريس؛ لأنها شقية بائسة لقيت في حياتها ألوانًا من الأذى، وأحبت في حياتها ضابطًا رافقها حينًا ثم خدعها ومضى لوجهه، فلما أقبلت هذه الفتاة، واسمها «أدويج» إلى باريس مع صديقتها «مارسيل» تلقاها الزوجان لقاءً حسنًا، وكلفاها

شيئًا من العمل سهلًا في المعهد، ولكنها لم تلبث أنْ أظهرت ميلًا شديدًا إلى مباحث الأستاذ، فاختلفت إلى المعمل، وأخذت تشترك هي أيضًا في البحث العمليِّ الخالص.

ونحن في الفصل الأول وقد دعا الأستاذ إلى مائدته نفرًا من أصدقائه العلماء، فتغدوا ثم أقبلوا إلى المكتب لتناول القهوة، والأستاذ يحدثهم بأن بحثه قد انتهى به إلى استكشاف جليل الخطر جدًّا، فقد استكشف ميكروب السرطان، وقد أخفى استكشافه هذا ليمتحنه ويحققه، وهو الآن مستوثق من النتيجة لا يشك فيها، وقد اعتزم أنْ يعرضها بعد أيام على المجتمع العلميِّ، ولكنه أراد أنْ يظهر أصدقاءه عليها قبل أنْ يعلنها إلى الناس جميعًا، وأصدقاؤه دهشون معجبون، يملؤهم الأمل في المستقبل، أليس هذا الاستكشاف هو الخطوة الأولى القيمة في سبيل استكشاف آخر، سيكون له الأثر العظيم في حياة الإنسان، وهو الوصول إلى شفاء السرطان! هم إذن يثنون عليه وعلى زوجه ويبالغون في إجلالهما، وهو يريد أنْ يظهرهم على هذا الميكروب الذي استكشفه، فيريد أنْ يكلف أحد أعوانه الذهاب إلى المعمل ليحضر نموذجًا من هذه النماذج، ولكن الفتاة الغريبة «أدويج» قد ندبت نفسها متطوعة لهذا الأمر، وأسرعت إلى المعمل، وعادت ومعها ما طلب إليها، فأخذته «جان» ووضعته في الميكروسكوب، وأقبل أحد العلماء ينظر، ولكنه دهش؛ لأنه لا يرى ما تحدث به إليه الأستاذ، وإنما يرى شيئًا آخر، يرى بعض هذه الميكروبات التي يعرفها الناس جميعًا فتقبل «جان» وتنظر وإذا هي ساخطة مغضبة؛ لأن الفتاة قد أخطأت، وحملت شيئًا غير ما طلب إليها.

أما الفتاة فخجلة مضطربة قد انتهى بها الخجل إلى البكاء، وأخذ بعض الحاضرين يرثي لها، وأخذ بعضهم يسخر منها همسًا، وأشد الناس جميعًا غضبًا وحنقًا إنما هي «مارسيل» ابنة الأستاذ؛ لأنها سمعت شيئًا من سخرية الساخرين، على أنَّ الأستاذ قد انصرف مع أصحابه إلى المعمل ليظهرهم بنفسه على هذا الميكروب، ثم ليظهرهم على النتائج العملية لبحثه، وتهم زوجه أنْ تتبعه، ولكن ابنتها تمسكها تريد أنْ تتحدث إليها، فإذا خلت إلى أمها كان بينهما حديث، فهمنا منه أنَّ هذه المرأة العالمة قد انصرفت إلى علمها انصرافًا تامًّا حتى أنساها كل شيء، وألهاها عن حياتها الزوجية وعن أشياء كثيرة تقع في البيت وهي لا تشعر بها، وابنتها هي التي تنبئها بذلك في شيء من السخرية التي يملؤها الحنان والإكبار، والأم دهشة مغضبة، تنكر على ابنتها لهجتها هذه، وتدخلها فيما لا ينبغي أنْ تتدخل فيه الفتيات، ولكن الفتاة لم تتدخل في هذا الأمر إلا لأنها مضطرة إلى ذلك، فقد سمعت أشياء لا ينبغي أنْ تسكت عليها، وهي خطيرة جدًّا، الطلاب وغير

الطلاب يتحدثون بأن الأستاذ يتعشق هذه الفتاة ويتخذها له خليلة، وهم يتخذون هذا الأمر موضوع مزحهم، وهي تكره أنْ يتعرض أبوها لمثل هذا الهزؤ، ولكنها مع الأسف لا تشك في أنَّ الأمر حقيق بالعناية، فهي أيضًا تتهم أباها أو تتهم الفتاة بخديعة أبيها، هي تعلل ذلك وتفهمه، فقد انصرفت أمها إلى العلم حتى فقدت أو كادت تفقد صفات المرأة، ولم يفقد أبوها صفات الرجل، ولهذا الكلام الذي أوجزه إيجازًا مُخِلًّا تأثيرٌ شديد في نفس الأم، فقد اضطرت له وتنبهت في نفسها عواطف كانت مهملة، وأخذت تمقت الالتفات والتنبيه، وتحمد الغفلة والإغضاء، ولكنها قد تنبهت وأخذ الشك يعمل في نفسها، وأخذت نار الغيرة تضطرم في قلبها اضطرامًا، وقد اقترحت عليها ابنتها إحدى اثنتين: فإما أنْ تسافر هذه الفتاة وإما أنْ تتزوج، ليس تزويجها بالأمر العسير، فقد استكشفت الفتاة نفسها أنَّ «بلونديل» يحبها حبًّا شديدًا، وأنه أسعد الناس إذا استطاع أنْ يتخذها له زوجًا، ولم يكن دهش الأم لهذا الاستكشاف بأقل من دهشها لاستكشافها الأول، فهي لم ترَ شيئًا ولم تشعر بشيء، ثم تنصرف الفتاة إلى درس لها في «السربون»، ويأتي الأستاذ فيخلو إلى زوجه يريد أنْ يتحدث إليها في أمر علمي، ويريد أنْ يصطحبها إلى المعمل لاستئناف البحث، ولكنها تمسكه وتلح عليه في المسألة، ويظهر الرجل دهشًا شديدًا لهذه المسائل التي تلقيها عليه زوجه؛ لأنها لم تتعود ذلك؛ ولأنه أبعد الناس عن أنْ يفكر في مثل هذا السخف، وهو بطبيعة الحال ينكر كل ما يضاف إليه إنكارًا شديدًا، تظهر عليه لهجة الصدق فتصدقه امرأته وتطمئن إليه، بل تعتذر إليه من سؤاله عن مثل هذه الأشياء، ولكنها تريد أنْ تقطع ألسنة الناس، فهي تريد أنْ تزوج هذه الفتاة، وأنْ تزوجها من «بلونديل»؛ لأنها تعلم أنَّ «بلونديل» يحب الفتاة ويكلف بها، ويسعده أنْ يتخذها له زوجًا، أما الأستاذ فدهش لهذا كله، ضيق الذرع به، يريد أنْ ينصرف إلى بحثه، وأنْ يرجئ هذا الكلام إلى فرصة أخرى، وهو في هذا كله صادق غير متكلف، ولكن امرأته تلح وتريد أنْ تفرغ من هذا الأمر الآن، وزوجها مضطر إلى أنْ يذعن لها، وقد دعيت الفتاة، وحاول الرجل أنْ ينصرف، ولكن امرأته أكرهته على البقاء، فجلس ونظر في كتاب يتشاغل به عن هذا الحديث.

وتقبل الفتاة خائفة مضطربة تقدر أنها ستسمع تأنيبًا ولومًا على ما كان من خطئها، ولكنها لا تسمع لومًا ولا تأنيبًا، وإنما تسمع حديثًا في الزواج، فتأبى وتنفر من الزواج نفورًا شديدًا، وتلاطفها «جان» حينًا وتثقل عليها حينًا آخر، ولكنها لا تجد منها إلا إباءً ورفضًا، فتنذرها بالطرد والإقصاء، فتجزع لذلك، ولكنها لا تغير رأيها في الزواج، فهي

تأباه كل الإباء وقد غضبت جان غضبًا شديدًا لهذا العناد وانصرفت، وقد كلفت زوجها أنْ يجتهد في إقناعها، وأعلنت إلى الفتاة أنها ستترك الدار إذا لم تذعن للأمر.

ويخلو الأستاذ إلى الفتاة، فإذا موقف من أشد المواقف تأثيرًا في النفس، ذلك أنَّ هذه التهمة ليست متكلفة ولا منتحلة، وإنما كان بين الأستاذ وهذه الفتاة شيء، ولكن رأي الأستاذ والفتاة يختلف اختلافًا عظيمًا جدًّا في هذا الشيء.

أما الفتاة فقد أحبت أستاذها وكلفت به وقدسته أو كادت تتجاوز التقديس إلى الجنون، وعلى هذا النحو فهمت الصلة التي كانت بينها وبينه، وأما الأستاذ فلم يحب الفتاة ولم يكلف بها، لم تقع الفتاة من نفسه موقعًا، وهو لا يحب إلا امرأته ولا يكبر إلا إياها، وهو إنما تأثر في لحظة من اللحظات بمؤثرات حسية خالصة ليس بينها وبين القلب والعاطفة صلة، فاسترسل مع حبه، ولم ينظر إلى ما كان بينه وبين الفتاة من صلة في ساعة أو بعض ساعة، إلا كما ينظر إلى متعة عارضة لا قيمة لها، ولذلك نسي الأمر ونسيه نسيانًا تامًّا صادقًا، وكان مخلصًا حينما أنكر وقد سألته زوجه، وكان مخلصًا حينما كان يزدري هذه الأشياء ويضيق بها، ويريد أنْ يعود إلى العمل والبحث العلميِّ، وهو الآن صادق حين ينصح للفتاة بأن تتزوج، والفتاة صادقة حين تكره الزواج وتأباه، كلاهما صادق، ولكن رأيهما مختلف، هي تحبه وقد وقفت نفسها عليه، وهو لا يحبها وهو لا يريد أنْ يضيع مستقبلها، وهو يعلم حق العلم أنها لن تظفر منه بشيء، وأنه لن يفكر فيها إلا كما يفكر في تلميذة بائسة تحتاج إلى شيء من العطف والمعونة، وهي تنكر عليه قسوته وتلومه على هذه الغلظة، وتذم هذا العلم وهذه الفلسفة اللذين يرتفعان بالعالم والفيلسوف عن الحياة العادية وعن العواطف والأهواء التي يخضع الناس لها ويتأثرون بها، ولكنها مهما تلح في اللوم وتسرف في الاستعطاف فهو لا يرق ولا يعطف، وإنما يمضي في نصحه للفتاة بأن تتزوج مزدريًا أشد الازدراء هذه الصلات المادية الخالصة، التي تجمع أحيانًا بين المرأة والرجل دون أنْ يكون هنالك سبب آخر من عقل أو شعور.

غير أنَّ الفتاة قد وجدت سلاحًا قويًّا ماضيًا أصابت به الأستاذ، فملأته رعبًا واضطرابًا، فللأستاذ أنْ يقول: إنه لم يحب هذه الفتاة، وإنه يزدري هذه الصلة التي كانت بينهما، وله أنْ يقسو عليها ويزدري حبها، ويضحي بعواطفها في سبيل هدوئه وطمأنينته في حياته الزوجية الخاصة، ولكن ليس له إذا استباح خيانة الفتاة في حبها أنْ يخون صديقه «بلونديل» في صداقته، فهو يعرض عليها أنْ تكون زوجًا لهذا الصديق، وليس لهذا العرض معنى إلا أنه يضحي بها وبصديقه ليسعد هو ويطمئن، أليس يقدم

عشيقته إلى صديقه لتكون زوجًا له؟ أليس يضطر هذه العشيقة إلى أنْ تخفي ما كان بينه وبينها، وإلى أنْ تؤسس حياتها الزوجية على الكذب والنفاق؟ هو إذن يخون صديقه ويضحي به، وكل ما انتهت إليه فلسفته إنما هو أنْ جعلته أَثِرًا مسرفًا في الأثرة.

وجدت هذه الحجة منفذًا لا إلى عقل الأستاذ بل إلى قلبه وضميره، فقد يكون فيلسوفًا، وقد يكون هو مزدريًا للصلات الجنسية، وقد يكون مزدريًا لما توارث الناس من عادة وخلق، ولكن من يدري؟! أيشاركه صديقه في هذه الآراء أم يخالفه فيها؟ أليس من الحق عليه قبل أنْ ينصح بهذا الزواج أنْ يتبين رأي صديقه في مثل هذه الأشياء، فإن كان هذا الصديق كغيره من الناس يقدر الشرف — كما يقدره الناس — ضن به على الزواج القائم على الخيانة والكذب، وإنْ كان مثله لا يحفل بالصلات الجنسية المادية، وإنما يقدر العقل والقلب أولًا، مضى في النصح بهذا الزواج والحث عليه، بلى! هذا حق عليه، وقد اعتزم أنْ يستشير صديقه ويظهره على جلية الأمر، وهو الآن متوجع يألم أشد الألم لهذا العمل اليسير في نفسه الذي جعلت له الأوضاع الاجتماعية هذا الخطر العظيم، وهو يألم لأن هذا الأمر قد يتكشف عن كوارث، فقد ينغص الحياة على زوجه التي يحبها، وقد تضطر هذه الفتاة التي يعطف عليها إلى أنْ تستأنف حياة البؤس والفاقة، والفتاة تنظر إليه وتسمع له، وما كانت تظن أنه سيضعف إلى هذا الحد، وإذا هي كلها إشفاق ورحمة، وإذا هي تكره أنْ يألم حبيبها وأستاذها هذا الألم الثقيل، وإذا هي تعتذر إليه وتعلن أنها قد قبلت الزواج وتلح عليه في ألا يكاشف صديقه بشيء، ولكن الرجل قد اعتزم — وهو لا يعرف التردد إذا اعتزم — وقد دعا صديقه ويتدرج به في الحديث وإلى الحب والزواج، ثم ينتهي به إلى ذكر الفتاة، إلى أنه يعلم ما يضمر لها من حب، فيجتهد الصديق في أنْ يخفي ذلك، ولكن الأستاذ قد ألح ومهر في الإلحاح حتى انتهى صديقه فاعترف بهذا الحب وقوته وسلطانه على نفسه، وأخذ صاحبه يتحدث إليه فيذكر له أنَّ هذه الفتاة ليست كما يقدر وأن قد كان لها ماض في ألمانيا، فيجيب بأنه لا يحفل بذلك ولا يلتفت إليه وإنما يعنيه أنْ تميل الفتاة إليه، وترغب في أنْ تكون زوجًا له، وقد أخذ الأستاذ يبتهج؛ لأن المسافة بينه وبين صديقه أخذت تظهر قريبة، فصديقه مثله يزدري هذه الصلات المادية التي لم تقم على الشعور ولا على العقل، غير أنَّ صديقه مضطرب متردد يسأله سؤالًا يترك في نفسه أثرًا قويًّا، يذكر له أنَّ الناس يتحدثون في المعهد بصلة كانت بينه وبين الفتاة، وهو يريد أنْ يتبين حقيقة هذا الأمر، فإذا أنكر الأستاذ ذلك لم يعرف الصديق حدًّا لابتهاجه ولا لغبطته، فهو يستطيع إذن أنْ يقترن بالفتاة.

– ولو كان بيني وبينها شيء كهذا؟

– إذن لكان الزواج مستحيلًا.

– ولكني قد أكون شديد التأثير في نفس هذه الفتاة، فهي تجلني وتكبرني إجلال الأستاذ وإكباره.

– ذلك شيء أحبه ولا أكرهه، وإنما الذي أكرهه هو الصلة المادية، وقد بعثت في نفسي الطمأنينة من هذه الناحية فأنا سعيد.

وقد استيقن الأستاذ إذن أنه يخون صديقه إنْ نصح بهذا الزواج ويعرضه للشقاء، فأخذ يجتهد في أنْ يهدئ من صديقه ويدعوه إلى الأناة، ولكن الباب قد فتح وأقبلوا ينبئون الأستاذ بأن كاتبًا بلجيكيًّا كبيرًا تنحى له عن جائزة «نوبل»، ثم أقبلوا ينبئونه بأنه قد منح الجائزة، ثم أقبلوا يهنئونه، وانصرف عما كان فيه إلى جائزة «نوبل»، وأقبلت الفتاة واعتزمت الزواج، وأعلن هذا الزواج إلى الطلاب، ولم يستطع الأستاذ أنْ يؤجل هذا الإعلان.

فإذا كان الفصل الثاني، فقد مضى حين على هذا كله، وتم الزواج رغم ما بذل الأستاذ من جهد لإلغائه، وأصبحت الخيانة أمرًا واقعًا، ولكن الزوج يجهلها، وكذلك تجهلها «جان»، وليس يعلم بها إلا الأستاذ وتلميذته، وقد أخذت التلميذة العهد على نفسها أن تجتهد في نسيان هذا الحب القديم وفي البر بزوجها والتلطف له، وأخذ الأستاذ نفسه بأن يكون محتشمًا متحفظًا كلما لقي تلميذته أو تحدث إليها.

ونحن في هذا الفصل الثاني نشهد احتفالًا رائعًا؛ لأن وسامًا قدم إلى الأستاذ، وأقبل الناس يهنئونه ويحتفلون به، والمعهد قائم قاعد في استقبال الوفود وتحياتها، والناس يترددون بين الحديقة وحجر المعهد، وكثيرة جدًّا مناظر هذا الفصل، ولكني مضطر إلى أنْ أحذف منها الشيء الكثير، ومهما أحذف فلن أستطيع أنْ أهمل موقفًا بين الأستاذ وبين هذا الكاتب البلجيكي الذي تنحى له عن جائزة «نوبل»، فقد أقبل هذا الكاتب يهنئ الأستاذ ولم يكونا قد تعارفا من قبل، فخلا كل منهما إلى صاحبه في الحديقة وأخذا يتحدثان، وأخذ الأستاذ يسأل الكاتب: لماذا تنحى له عن الجائزة وهو لا يعرفه؟ فيجيبه بأنه إنما فعل ذلك؛ لأنه مدين له بشيء كثير، كان هذا الكاتب قد فرغ للقصص التمثيلية يكتبها حتى نبغ فيها، ثم نالته أزمة من هذه الأزمات الغرامية التي تنتهي بالناس أحيانًا إلى الموت، فخرج من بيته إلى حديقته ومعه المسدس يريد أنْ يقتل نفسه، واضطجع إلى شجرة وقد صوب المسدس إلى مقتله، وكانت الليلة جميلة والنجوم ساطعة، وإذا نظره قد

ارتفع إلى السماء، وإذا منظر النجوم التي علقت في السماء كأنها مصابيح قد أثر في نفسه المضطربة تأثيرًا شديدًا، وإذا هو يرى إلى جانب هذه المصابيح مصابيح أخرى ليست أقل منها جمالًا وبهجةً، هي هذه الحقائق العلمية الفلسفية التي تسيطر على حياة الناس وتهديهم في سبيل الرقي والكمال، وإذا عزمه على الموت قد فتر، وإذا هو مشوق إلى أنْ يعلم، وإلى أنْ يدرس هذه الحقائق العلمية الفلسفية، فلما أصبح نظر في الكتب فوقعت إليه كتب الأستاذ، فكان تأثيرها في نفسه شديدًا، صرفه عن التمثيل وحياة الكتاب إلى الفلسفة وحياة الفلاسفة، وإذا هو قد سلك سبيله متأثرًا بالحس ثم بالعاطفة، ثم انتهى إلى الحياة العقلية الخالصة، كذلك يتحدث الكاتب إلى العالم فيجيبه العالم — مضطربًا متأثرًا — بأنه قد سلك الطريق المضادة لطريقه، بدأ بالحياة العقلية الفلسفية، ثم هو الآن وقد جاوز الخمسين قد أخذ يتعرض للشك وآثاره، فهو يترك الفلسفة قليلًا قليلًا، يترك حياة العقل إلى حياة الشعور، ومن يدري إلى أين ينتهي؟ هو شاك في علمه وفلسفته، وفي تلك الحقائق التي تشبه مصابيح السماء.

وكل شيء في حقيقة الأمر يدعو هذا الأستاذ إلى أنْ يضطرب ويشك، فهو يعاني آلامًا شدادًا منذ كان هذا الزواج، هو لا يحب الفتاة، ولكنه يعلم أنَّ الفتاة تحبه حبًّا شديدًا مسرفًا في الشدة ينغص عليها حياتها، ويوشك أنْ ينغص على صديقه حياته ويوشك أنْ يفسد كل شيء، فالفتاة تتجلد وتجاهد، ولكنها لا تظفر من هذا الجهاد بطائل، وإذا افتضح هذا الأمر — ولا بد من أنْ يفتضح — فما مصير صديقه؟ وما مصير بحثهم العلمي؟ أضف إلى هذا أنَّ هذا الأستاذ الذي لم يتعود الكذب قط يعيش الآن عيشة قائمة كلها على الكذب، يكذب على امرأته، ويكذب على صديقه، ويحمل صديقه على حياة كلها نفاق، وليس هذا الفصل إلا إثباتًا لهذا كله، فنحن نرى الفتاة بعد قليل قد أقبلت مع زوجها شاحبة ممتقعة شديدة الضعف، وزوجها يتلطف لها، ويرفق بها، بل يغازلها فلا يجد منها إلا فتورًا يشبه النفور، وهو يعلل ذلك بالمرض واضطراب الأعصاب، وبينا هما كذلك إذ يظهر الأستاذ ومعه امرأته فينتحيان في الحديقة ناحية كأنهما يطلبان العزلة حتى إذا ظفرا بها تعانقا فرحين مبتهجين بهذا الفوز والفتاة تراهما، فيقع ذلك من نفسها موقعًا مؤلمًا جدًّا، ثم يمر الأستاذ وحده بالفتاة، وهي تستريح في مجلسها هذا فيكون بينه وبينها حديث نفهم منه كل ما قدمت.

نفهم أنَّ الفتاة قد انتهت من الصبر إلى أقصاه، وهي لا تستطيع أنْ تنسى هذا الحب ولا أنْ تبرأ منه، وهي لا تستطيع أنْ تحمل جفوة الأستاذ واحتشامه، وإنما تريد أنْ يرق

لها، ويمنحها من حين إلى حين ابتسامة بريئة أو قبلة طاهرة على جبهتها، هي لا تطمع في أكثر من هذا، وهو يضن عليها بهذا احترامًا لصديقه وإنكارًا لهذا الحب الآثم، ولكنها تلح وتسرف في الإلحاح، تريد أنْ تخلو إليه لحظة؛ لتظفر منه ببعض هذا أو بكلمات رقيقة، وقد انتهى هذا الإلحاح إلى أن أثر في نفس الأستاذ، وكأنه قد قبل ما تريد، ويمضي الاحتفال كما بدأ، يذهب الناس فيه ويجيئون، وقد اعتذرت الفتاة فصعدت إلى منزلها بالحديقة لأنها مريضة، وما هي إلا لحظات حتى يمر الأستاذ متجهًا إلى هذا البيت وقد رأته زوجه فأنكرت اتجاهه هذا الوجه، ولكنه زعم لها أنه منصرف إلى مكتبه ليقفل درجًا من الأدراج يحرص على أنْ يظل مقفلًا، وآمنت له زوجه ومضت إلى ما كانت فيه من استقبال وتوديع، وإذا «بلونديل» يمر بنفس المكان بعد حين، ويلقاه أحد المدعوين منصرفًا، فيدهش للقائه وينبئه بأنه كان قد دخل بيته يأخذ معطفه، وهو في ذلك إذ انطفأ النور فجأة وخرج، فخيل إليه أنَّ رجلًا يدخل البيت فظنه إياه.

أما «بلونديل» فقد تنبه في نفسه شك مؤلم حاول كتمانه، ولكن أخذ يستوثق حتى استيقن أنَّ زوجه ليست نائمة، وأنها ليست وحدها، وإذا هو يطلب «جان» زوج صديقه الأستاذ، فإذا أقبلت توسل إليها أنْ تصعد لترى امرأته، فقد تركها مريضة فتصعد «جان»، وتعود مضطربة مخلوعة القلب؛ لأنها رأت زوجها عند الفتاة، أما «بلونديل» فقد فهم واستوثق، وأمسك زوج صديقه، وجلسا يرقبان عودة الأستاذ، ويعود الأستاذ بعد حين، فيلقاه «بلونديل» بكلام عنيف ثقيل، ولكن «جان» تأمره أنْ يتركهما وحدهما، فإذا خلا الأستاذ إلى زوجه حاول أنْ يعتذر، وأنْ يذكر الحق فلم يكن عند الفتاة في إثم، وإنما كان عندها يهدئ من ثورتها ويقدم لها النصح، ولكن زوجه تأبى عليه أنْ يتكلم، فهي مشغولة عن الكلام، بين يديها مسودات لمقال كتبته لصحيفة من الصحف، وفي هذا المقال حديث عما كان بينها وبين زوجها من حب وتعاون على البحث العلمي، وهي تقرأ هذا المقال متأثرة محزونة؛ لأنها تحس أنها مخطئة فيما زعمت فيه، أليس زوجها قد خانها؟ أليس حبها قد خدع وازدري؟! أما زوجها فليس أقل منها اضطرابًا، لا لأنه خانها؛ بل لأنه يشعر بأنها تعتقد ذلك، ويريد أنْ يغير رأيها، وكيف السبيل إلى ذلك دون الاعتراف بالحق؟ على أنَّ «بلونديل» قد أقبل وطلب الخلوة إلى صديقه، وأخذ يزجره ويعنفه ويتهمه بخيانته، ويجتهد الأستاذ مخلصًا في أنْ يثبت له أنه لم يخنه ولم يسئ إليه، ثم ينتهي به الأمر إلى التصريح بالحق، فإذا الغضب قد بلغ من صديقه أقصاه، أليس صديقه قد كذب عليه، وما له لم ينبئه بالحق قبل الزواج؟ وقد أسرف «بلونديل» في الغضب حتى

اتهم صاحبه بأنه أول من اتصل بالفتاة، وأنه اخترع قصة الضابط الألماني، وأنه كان عشيق زوجه قبل الزواج وبعد الزواج، وهو يزدري الصداقة الآن، ويزدري العلم ويزدري الفلسفة، ولا يفكر إلا في شيء واحد هو الانتقام، وسينتقم.

وهما كذلك إذ تقبل الفتاة وقد سمعت صياح زوجها، فإذا أقبلت اجتهد الأستاذ في أنْ يستعين بها على إقناع زوجها لبراءته فيسألها: أليس من الحق أنك تحبين زوجك؟ وإذا هي تجيب في صراحة وعنف: كلا، لا أحبه ولم أحببه ولن أحبه وما أحببت ولن أحب غيرك! انتهى الحب بها إلى الجنون فهي لا تخفي من أمرها شيئًا، وانتهت الغيرة بزوجها إلى الجنون، فهو لا يملك من نفسه شيئًا، وقد تركهما وعاد ومعه كتاب هو ثمرة الحياة العلمية للأستاذ، فيه فلسفته وخلاصة مباحثه، وهو مخطوط كتبته الفتاة بإملاء الأستاذ حين كانت تعمل في المعهد، أقبل يحمل هذا الكتاب، وهو يعلم أنه أعز شيء على الأستاذ، ولكنه يريد أنْ ينتقم، وبم يبدأ الانتقام؟ خانه الأستاذ في امرأته، فهو يسيئه في فلسفته، وإذا هو يمزق الكتاب، ويفرق أوراقه المقطعة في الهواء، والأستاذ صعق يتوجع لكتابه، والفتاة والهة تجمع هذه القطع المفرقة، وقد انضمت إليها زوج الأستاذ فهي تعينها على هذا الجمع.

فإذا كان الفصل الثالث، فقد مضت أيام على هذه القصة ونحن في غرفة «جان» زوج الأستاذ، وفي المعهد اضطراب شديد؛ لأن حادثًا حدث، وأخذت الصحف تذيعه، وتخوض فيه، وظهر أعداء الأستاذ فأسرفوا في التشهير به والتشنيع عليه، كان الأستاذ في المجمع العلمي، وبينما هو خارج بعد انتهاء الجلسة لقيه صديقه «بلونديل» في أروقة المجمع فلطمه بمشهد من أصحابه وزملائه، وأعلن الأمر إلى الناس، فلجَّت فيه الصحف، وأصبح حديث باريس، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، ولكن ناسًا نصحوا للأستاذ بأن يثأر لنفسه من صديقه بالمبارزة، وكاد الأستاذ يقبل هذا النصح لولا أنْ ألحت عليه زوجه في أنْ يربأ بنفسه عن هذا الأمر الذي لا يليق بالعلماء، ولا سيما إذا بلغوا منزلته من المجد والرفعة، كذلك تتحدث زوجه إلى صديق حميم هو هذا الكاتب البلجيكي الذي رأيناه في الفصل الثاني، ولكن هذه المرأة مخدوعة تجهل كل شيء، فإذا زوجها قد قبل النصح وقبل المبارزة وأخفى عليها الأمر، وقد بارز صاحبه، ونالته الرصاصة، وحمل إلى المعهد وهو في غرفة مجاورة يقدم إليه الطبيب الإسعافات الأولى، ثم هو يريد أنْ يرى زوجه وابنته، وقد اعتزم الطبيب أنْ ينقله إلى هذه الغرفة، وألح هو في أنْ يدخلها ماشيًا لا محمولًا حتى لا ترتاع

زوجه، وها هو ذا يقبل وقد أخذ أصحابه يسندونه وفي فمه لفافة التبغ ليظهر لامرأته أنْ ليس عليه بأس، فإذا رأته جزعت، ولكن الطبيب والأصدقاء يهدئون من روعها، ويؤكدون لها أنْ ليس عليه من بأس، وأنَّ الرصاصة قد أصابت الكتف ولم تبلغ الرئة، وهم يمدون الأستاذ على مضجعه، وقد خلا إليه الطبيب لحظة، فإذا الأستاذ يسأله ملحًّا ويطالبه بالصراحة المطلقة: ما أمره؟ وهل هو معرض للخطر؟ وهو لا يريد في ذلك تلميحًا ولا مراوغة؛ لأنه في حاجة إلى أنْ يوصي بأمور هامة جدًّا، فينبئه الطبيب أنه ليس عليه من بأس إلا أنْ يبصق دمًا، فإن فعل فليس هو معرضًا، ولكن حاله تحتاج إلى احتياط شديد.

– إِذَنْ فَأْذَنْ لي أنْ أخلو إلى زوجي حينًا ما، قبل أنْ تبدأ في عملك لكشف مكان الرصاصة.

فيأذن له الطبيب، ولكن على ألا يتحرك ولا يسرف في الكلام، وهذه زوجه قد دخلت عليه جزعة، فما هي إلا أنْ هدأها، فأظهرت الهدوء ونسيت كل شيء إلا زوجها، لكن زوجها سيكلفها أشياء ثقالًا، وليس يطلب إليها إلا أنْ يرى الفتاة التي كانت مصدر كل هذه النكبات، ومهما تَأْبَ زوجه فهو متشدد في ذلك، وهو يريد أنْ يراها، وامرأته لا تأبى غيرةً، وإنما تأبى إشفاقًا على زوجها، ولكن زوجها ملح ولا بد من الإذعان، وقد كتبت «جان» كلمة وبعثت بها إلى هذه الفتاة، فأقبلت وانصرفت «جان» ليخلو زوجها إلى هذه الفتاة، كما أراد على أنْ يدعوها إذا فرغ من ذلك.

وانظر إلى هذه الفتاة قد أقبلت، وهي لم تكن تقدر من هذا كله شيئًا، وانظر إليها جزعة والهة حين رأته طريحًا جريحًا، فهي تتكلم كلامًا متصل اللفظ غير متصل المعنى، قد فقدت رشدها أو كادت، والأستاذ يجتهد في أنْ يظفر منها بالصمت، فلا يكاد يبلغ ذلك إلا بمشقة شديدة، يعلن إليها إرادته وهي أنْ تترك باريس ولا ترى زوجها ولا امرأته، حتى ولو ألح زوجها في طلبها، وقد ضمن لها الحياة وخصص لها مقدارًا من المال، أما هي فلا تسمع لشيء من هذا، وإنما هي منصرفة إلى جزعها، فهي تتكلم، وهي تبكي، وهي تضحك، وهي تقبل يد الأستاذ ومضجعه وكل ما ظفرت به شفتاها، فهي شخص لا يستطيع تصوره ولا تصويره إلا «هنري بتايل»، وقد صرف الأستاذ هذه الفتاة بعد أنْ رق لها وبارك عليها كما يفعل القسيس، أكان يحبها؟ أم كان يعطف عليها ويرثي لها؟ أليست خليقة بالعطف والرثاء؟ انظر إليها تخرج طائعة جزعة مذعنة للقضاء ثائرة عليه، وانظر إلى الزوج قد عادت إلى زوجها يلاطفها ويرق لها ويكاد يغازلها، ولكن سيكلفها شيئًا ثقيلًا، أليس يطلب إليها أنْ تدعو صديقه وقاتله «بلونديل»! وهي ثائرة

تأبى ذلك كل الإباء، ولكنه يريد ويلح ويعزم عليها ولا بد من الإذعان لما أراد، وقد أقبل هذا الصديق، فلم يكد يرى صاحبه طريحًا حتى أخذ منه الجزع، وإذا هو يستغفر ويضرع ويبكي ممعنًا في البكاء، وإذا الزوج تلقاه لقاءً عنيفًا كله بغض وموجدة، وأما الأستاذ فرقيق رفيق قد قبل العذر وغفر الذنب وعرف للصداقة والعلم حقهما، وهو سعيد؛ لأن صديقه قد آب إلى رشده، وهو يصافح صديقه ولكن يريد أنْ يكلف زوجه شيئًا ثقيلًا، يريدها لا على أنْ تصافح هذا القاتل بل هو أشد من هذا، فإلى أي حال ستئول هذه المباحث العلمية إذا مات هو ولم يتعاون «بلونديل» و«جان» على المضي فيها؟ يجب إذن أنْ يتعاونا، وقد كتب ذلك في وصيته، وهو يريد أنْ يقسما له على الإذعان بهذه الوصية، أما «بلونديل» فيقسم وأما «جان» فتأبى، وهو يلح وقد ظهر عليه الجهد والإعياء، وأخذت الحمى تظهر عليه، والرجل عالم بأنه ميت؛ لأنه قد بصق الدم، وأخفى ذلك على طبيبه وعلى من حوله، وهو يلح وزوجه تأبى، وهي مطمئنة إلى أنه سيحيا؛ لأن الطبيب قد أكد لها ذلك، وهو يلح وهي تأبى، وقد اضطرب لسانه وحركاته وقال غير الصواب، وإذا النزيف، وإذا زوجه صارخة تدعو الطبيب وقد أقبل الطبيب وإذا الأستاذ قد مات، فانظر إلى صديقه جاثيًا يبكي، وانظر إلى امرأته ملقاة كأن قد أغمي عليها، وقد أقبل الطلاب من كل مكان فملئوا الحجرة وهو يبكون، ونظروا فإذا القاتل بينهم يبكي، فهموا به يدفعونه دفعًا، ولكن، انظر إلى هذه المرأة قد نهضت مستجمعة كل قوتها وشجاعتها فأعلنت إلى الطلبة أن دعوه، فقد أراد أستاذكم كذا وكذا وطلب منا أنْ نقسم، فأما هو فأقسم، وأما أنا فلم أتمكن من القسم قبل أنْ يموت، وإذا هما يقسمان على تنفيذ ما أراد.

إبريل ١٩٢٤

القبر تحت قوس النصر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «پول رينال»

ومع ذلك فلا بد من أنْ أحدثك عنها، ويخيل إليَّ أني أسيء إليك وإلى صناعتي إذا لم أحدثك عنها، ولكن ما هي؟! وما معنى هذه الجملة الغامضة؟! أما هي فالقصة التي نحن بإزائها والتي مثلت في باريس وفي بيت موليير منذ ثلاثة أشهر، وأما هذه الجملة الغامضة فستفهمها حين تعلم أني حائر في أمر هذه القصة لا أدري أأرضى عنها أم أمقتها، وحين تعلم أني لم أنفرد بهذه الحيرة، وإنما شاركني فيها النظارة الذين سمعوها وشهدوها مرات في بيت موليير، وشاركني فيها النقاد الذين جمعوا فيما كتبوا عن هذه القصة بين الرضا والسخط، وبين المقت والإعجاب.

وأحسب أني سأرضى عن هذه القصة، وسأسخط عليها معًا، ففيها ما هو خليق بالرضا، وفيها ما هو خليق بالسخط، فأما شكلها فحسن رائع، وأما لفظها فجميل منتقى، وأما أسلوبها فآية بين الأساليب، وأما حوارها فقصير سريع خفيف الحركة مملوء بالمعنى كأنه جوامع الكلم، وأما الشعور الذي انبعثت عنه فقويٌّ عنيف صادق أخاذ للنفوس، كل هذا حق، ولكن هناك حقًّا آخر لا يمكن الإعراض عنه، وهو أنَّ هذه القصة الرائعة تقوم على أساس واه لا ملاك له ولا نصيب للصحة فيه، فإن يكن له نصيب من الصحة فضئيل شديد الضآلة، لا يكاد يحس ولا ينبغي أنْ يعتد به ولا أنْ يؤبه له، ومن هنا نفهم استحقاق هذه القصة للرضا عنها والسخط عليها، واختلاف الناس فيها اختلافًا شديدًا حتى تجاوزوا الحوار والجدال إلى الاصطدام والتضارب، فقد اصطدم الناس وتضاربوا في بيت موليير عندما سمعوا هذه القصة، اصطدموا وتضاربوا وأنكروا

واحتجوا، ونقلت الصحف ذلك وعللته وأكثرت في تعليله، ذلك أنَّ القصة تقوم على أساسين، أحدهما قد يفهم وقد يتصور وقد يعتذر عنه، وهو أنَّ فتاة تحب خطيبها ويحبها هذا الخطيب حبًّا لا حد له، حبًّا الأمل فيه قليل؛ لأن الحرب قائمة؛ ولأن هذا الخطيب معرض لأخطارها؛ ولأن الزواج لم يتح لهذين العاشقين، فليس غريبًا أنْ تعلم الفتاة نفسها راضية مبتهجة مضحية بما ورثت من خلق وعادة ودين في سبيل هذا الشاب الذي يضحي بنفسه في سبيل الوطن، وليس غريبًا أنْ يتردد هذا الفتى، ثم يقبل التضحية، فهو يحب وهو واثق أنه سيموت، كل ذلك يمكن فهمه وتصوره والاعتذار عنه؛ لأنه لا يخرج عن طور الإنسان وما فطر عليه من ضعف وأثرة.

أما الأساس الآخر فغريب حقًّا متجاوز لطور الإنسانية المتحضرة المهذبة، التي تأثرت بالدين والأخلاق والنظم الاجتماعية والسياسية آلاف السنين، وهو أنَّ أباه يتعشق خطيبة ابنه ويهواها غير شاعر بذلك، إذا ظهر الأمر له ولابنه كانت بينهما خصومة عنيفة أنكر فيها الأب أبوته، والابن بنوته وتمنى فيها كلاهما لصاحبه الموت، ثم لا تلبث الخصومة أنْ تتغير، فإذا الأب قد عرف خطأه، وإذا هو جاث أمام ابنه باسطًا يديه يتضرع ويستعطف يلتمس العفو، وإذا الابن يعفو ويشفق ويتلطف بأبيه، كل هذا غريب غير مفهوم ولا ملائم لما ألف الناس ولا فطروا عليه، ومع ذلك فقد اختصرت لك القصة اختصارًا، وأحسب أنك تفهم الآن تردد الناس في الحكم عليها، وأحسب أنك تعذر أيضًا ترددي في أنْ أحدثك عنها، فقد كنت أريد أنْ أعرض عن ذلك إعراضًا، ولكن ظهور هذه القصة وما دار حول تمثيلها حادث أدبي عظيم الخطر، لا ينبغي أنْ أهمله، ولا أنْ أتعمد طيه عن القرَّاء، على أني مهما أفعل، ومهما أبذل من قوة وجهد، فلن أستطيع أنْ أعطيك من هذه القصة صورة صادقة ولا مقاربة، فهي ليست من القصص التي يمكن تلخيصها وتحليلها في سهولة ويسر، وإنما هي من القصص التي يجب أنْ تقرأ كلها أو تشهد كلها ليمكن الحكم عليها حكمًا صحيحًا، فقد حدثتك عن هذا الحوار القصير السريع الجامع، ولم أحدثك عن حوار آخر طويل بطيء ملتو غامض، فيه فلسفة عميقة قوية ترقى بك حتى يكاد الدوار يأخذك، وإذا كان من العسير تلخيص هذا الحوار القصير فأعسر منه تفسير ذلك الحوار الطويل، فلتجتزئ من هذا كله بما أستطيع أنْ أقدم إليك في هذا الفصل، وأَحْبِبْ إليَّ بأن تقرأها وتحكم عليها بدون وساطة ولا معونة.

أشخاص هذه القصة ثلاثة لا يزيدون، بل لا يُسَمَّوْنَ إلا الشخص الثالث فهو وحده المسمى، وهم لا يُسَمَّوْنَ؛ لأن الكاتب تعمد ألا يسميهم، وهذا التعمد هو نتيجة خطأ عظيم،

فقد خيل إلى الكاتب أو خيل إلى الناس أنَّ الكاتب حين تعمد ألا يسمي هذين الشخصين، تجنب أنْ تكون قصته شخصية، وقصد إلى أنْ يكون هؤلاء الأشخاص ممثلين لأنواعهم من أفراد الناس.

في القصة شيخ أقام ولم يشترك في الحرب، وفيها جندي مقاتل، وفيها فتاة بينها وبين هذا الجندي حب وخطبة، وقد سمى الكاتب الفتاة، فدل بهذه التسمية على أنه لا يريد أنْ يجعل الفتاة مثالًا لغيرها من الفتيات، ولم يسم الشيخ ولا ابنه، فدل بذلك على أنه يريد أنْ يقول: إنَّ موقف هذين الرجلين إنْ لم يكن موقف الناس جميعًا في أثناء الحرب فبينه وبين موقف الناس جميعًا شبه قليل أو كثير، وهذا هو الخطأ، فلو أنَّ الكاتب سمى هذين الرجلين وشخصهما كما سمى الفتاة وشخصها؛ لأمكن أنْ تقبل القصة لاستطعنا أنْ نفرض أنَّ الكاتب يمثل حالًا عارضة مرضية عرضت لأسرة بعينها في ظروف خاصة، فهي تمثل الشاذ ولا تمثل المطرد، ومن الذي يستطيع أنْ ينكر أنَّ الشاذ موجود، وأنَّ وجوده لازم لوجود المطرد! لو فعل الكاتب هذا لكان له وجهه وتأويله، ولكنه لم يفعله فأنكر الناس عليه هذه الجرأة في التعميم؛ لأنها تخالف العقل والحق؛ ولأنها تخالف البر الذي يدين به الأبناء للآباء، والعطف الذي يضمره الآباء للأبناء.

هذا الشيخ الذي اتخذه الكاتب مثالًا للمقيمين الذين لم يشتركوا في الحرب رجل في الستين من عمره، غنيٌّ وادع، يظهر من القصة أنه أَثِر، يسرف في حب نفسه، وأنَّ حظه من الحنان قليل، أما ابنه فشاب غنيٌّ، ورث عن جده لأمه ثروة ضخمة كان يدبرها، ثم كانت الحرب فترك تدبيرها لأبيه، وهو ذكيٌّ شديد الذكاء، عظيم الحظ من التعليم، ملم إلمامًا متينًا بالشيء الكثير من الفلسفة وآراء الفلاسفة، فليس هو إذن بالشاب العاديِّ، أتم دروسه في باريس ثم عاد إلى مدينته وانصرف إلى ثروته يدبرها، ولكنه كان يتردد على باريس فيقضي فيها فصل الشتاء، وقد لقي فيها في غرفة من غرف الاستقبال عند أسرة صديقة له فتاة جميلة ذكية حساسة، أحبها وأحبته، ثم خطبها وقبلته، وهي يتيمة ليس لها أب ولا أم، وإنما كانت تعيش مع عمة لها أو خالة، ثم أعلنت الحرب ومضت أشهر، وماتت هذه العمة أو الخالة، فأصبحت الفتاة وحيدة في باريس، ولم تطق هذه الوحدة، فجاءت إلى الشيخ أبى خطيبها وأقامت عنده، فاتصلت بين الشيخ وبينها علاقة قوية رقيقة تكاد تكون حبًّا لولا أنَّ الفتاة تنظر إلى الشيخ كأنه أبوها، ولولا أنَّ الشيخ ينظر إلى الفتاة كأنها ابنته، وأنهما جميعًا يفكران في هذا الجندي الذي ألف بينهما، وقد مضت على الحرب سنة وبعض سنة، ولم يستطع هذا الشاب أنْ يظفر بإجازة يرى فيها

خطبه وأباه، ثم أتيحت له هذه الإجازة فهو مقبل، وهما ينتظرانه، ويجب أنْ تعلم أنه ظفر بهذه الإجازة بعد أنْ جرح مرة في الميدان، ثم برئ من جراحته، ثم اشترك في هجوم عنيف قام به الجيش الفرنسي في شمبانيا، ونشرت البلاغات الرسمية أنه انتهى بانتصار عظيم، وظل الناس مقتنعين بأن الحرب مشرفة بعده على الانتهاء.

وهما ينتظرانه وقد انتصف الليل، وأقبلت الساعة الثانية من الصباح، الشيخ جالس صامت كأنه يفكر، وهو ينتظر والفتاة غير مستقرة تجلس ثم تنهض ثم تجلس ثم تصغي ثم تذهب للنافذة ثم تعود، وهما الآن يصغيان، وهما يضطربان؛ لأنهما سمعا إغلاق الباب، وقد خرجت الفتاة وعادت، ومعها صاحبها الجندي تقبله ثم يتحدثون، ولست أستطيع أنْ ألخص لك هذا الحديث، فهو أشد دقة من أنْ يلخص، ولكنه يدور حول صحة الجندي وسفره، وحول الحرب وحول الانتصار، وحول ما يأمل الناس، وتفهم من هذا الحديث أنَّ الشيخ والفتاة مؤمنان بانتصار الجيش الفرنسي وقرب انتهاء الحرب، وأنَّ الفتى يؤكد لهما هذا، ولكنه يتكلف هذا التأكيد، كأنه لا يريد أنْ يخيب رجاءهما، وهو يسألهما: ألم تصل إليهما رسالة؟ فيتكلفان الإنكار، ألم يصل إليهما نبأ برقي! فيظهران الدهش، وتحس أنت هذا التكلف، أما الشاب فلا يشعر به، وإذن فهو فرح مغتبط إلى غير حد، كان يخشى أنْ تصل إليه رسالة برقية تدعوه أنْ يعود أدراجه إلى الميدان، فأما وهذه الرسالة لم تصل فهو سعيد؛ لأنه سيمكث أربعة أيام وسيستطيع أنْ يتزوج قبل سفره، وقد أعد الشيخ كل شيء، فتمت الإجراءات الرسمية، وسيتم الزواج غدًا أو اليوم متى أشرق الصبح، فنحن في الساعة الثانية وهو يتحدثون عن الحرب وعن أهوالها، وهم يذكرون أسماء الأصدقاء الذين سافروا إلى الميدان، ويسألون عن أنبائهم والفتى يجيب، ثم يذكر الفتى أمه التي ماتت قبل أنْ تعلن الحرب، وتنصرف الفتاة فيخلو الشاب إلى أبيه، ومؤثرة جدًّا هذه الأحاديث التي يتبادلها الرجلان، مؤثرة؛ لأنها تمثل نفس الشيخ وتمثل نفس الفتى وتمثل حبهما للفتاة تمثيلًا صحيحًا.

فأما الشيخ فسعيد مطمئن إلى الحياة منذ أقامت معه الفتاة، كان قبل ذلك وحيدًا مضطربًا معنيًّا بعمله الكثير، ثم أقبلت هذه الفتاة فأزالت الوحدة، وقامت مقامها مودة حلوة هادئة حببت الحياة إلى الشيخ فهو يحيا سعيدًا، وهو يشعر بأن الحرب ثقيلة الوطأة على الجند، ولكنه يشعر أيضًا أنَّ هذه الحرب ثقيلة الوطأة على المقيمين؛ فإذا كان الجند يؤدون واجبهم في الميدان فالمقيمون يؤدون واجبهم دون الميدان، وهل كان الجند يستطيعون أنْ يثبتوا لو لم يثبت المقيمون في حياتهم الهادئة فيدبروا للحرب

حاجاتها، والشيخ مع هذا مضطرب لقرب انتهاء الحرب؛ مضطرب لأن ابنه سيعود ويتزوج وسيستأثر بالفتاة، وسيبقى هو وحيدًا كما كان، وسيخلو إلى شيخوخته، ينم حديثه بذلك في غير تصريح، ويكاد الفتى يفهم ولكنه بعيد عن تصوره، فهذا الفتى جنديٌّ حقًّا فيه مزايا الجند وفيه عيوبهم أيضًا، ولكن من الذي يجرؤ على أنْ يقول: إنَّ للجند أثناء الحرب عيبًا! أليسوا يدافعون عن الوطن! أليسوا يحمونه ويحمون أهله! أليست الأمة كلها مدينة لهم بالحياة والحرية! في هذا الفتى كل مزايا الجنديِّ الفرنسي أثناء الحرب، فهو شجاع، ولكن شجاعته هادئة متواضعة لا تفاخر ولا تعلن عن نفسها، وهو مطمئن إلى الألم يحارب لا لأنه يحب الحرب؛ بل لأنه مضطر إلى هذه الحرب، ويطيع لا لأنه مفطور على الطاعة؛ بل لأنه يطيع نفسه وكيف لا! أليس فرنسيًّا يستمتع بما يستمتع به الفرنسيون من الحقوق! وإذن فمن الحق عليه أنْ يدافع عن هذه الحقوق، وهو يفعل هذا مختارًا؛ لأنه كان يعلم أنَّ الحرب ناشبة، فكان يستطيع أنْ يغير وطنه ليفر منها، وإذا لم يغير هذا الوطن فليؤد واجباته الوطنية، ثم عمَّ يدافع في الميدان؟ عن الأرض؛ فهو يملك منها جزءًا، عن العقل الفرنسي؛ فقد غذته ثمار هذا العقل، فهو إذن لا يفعل شيئًا استثنائيًّا، ولكنه في الوقت نفسه يألم آلامًا لا حد لها، ولا يقدرها إلا الذين يشعرون بها، وربما خطر له في الميدان أو في الخندق أنَّ أهله هادئون مطمئنون، وأنهم قد يبتهجون حينًا، وقد يضحكون حينًا، فيغيظه ذلك ويحنقه، ويود لو شاركه أهله في الألم فلم يفكروا إلا فيه ولم يتحدثوا إلا عنه ولم يحيوا إلا له، وهو يعلم أنَّ هذا جور، ولكن من الذي يستطيع أنْ يدفع الخاطر إذا خطر! ثم لا يكاد يسأل أباه عن الفتاة حتى يكثر الشيخ من الثناء والإعجاب وقد سبقه هو، فأثنى وغلا في الثناء، وفهمنا أنَّ الرجلين يحبانها، وأنَّ الشيخ نقم من الفتى شبابه وأنها تحبه، وربما نقم من الفتى إجازته التي غيرت نظام حياته ولو إلى حين.

وينتهي الحديث بهما إلى ذكر الحرب ومتى تنتهي، فيكاد الفتى يفهم من صوت أبيه وحديثه ما يخفيه، وقد أقبلت الفتاة فهو يسألها وهي تدفع إليه الرسالة البرقية، ذلك أنَّ هذه الرسالة كانت قد وصلت قبل الفتى، فأخفاها الشيخ والفتاة حتى لا ينغصا عليه ساعة اللقاء، أما الآن فليس بد من إظهاره عليها، وفي الرسالة أمر بالعودة حالًا، وقد نظر الفتى في الرسالة فناله شيء من الذهول، كأنه كان يقاوم مقاومة شديدة، وقد انتصر في هذه المقاومة فلم يجزع ولم يظهر عليه اضطراب ولا إنكار، وهو يضحك ولكن ضحك المحزون، يجب إذن أنْ يسافر بعد أربع ساعات، ولكن أربع ساعات! هذا وقت

طويل يستطيع فيه أنْ يكون سعيدًا، وسيكون سعيدًا! نعم! إن يتزوج فقد أبت الفتاة هذا الزواج في هذا الوقت القصير، ولكنه مع ذلك سيكون سعيدًا، أربع ساعات يستمتع فيها بحريته كاملة، ويستخدم فيها ذاكرته ليذكر أيام السعادة والنعمة، ويستخدم فيها خياله ليتمثل ما يحب من سعادة ونعمة، وذاكرة الجندي قوية إذا تعرض للخطر، وخيال الجنديِّ قوي إذا تعرض للخطر! سيكون سعيدًا، وهو يتركهما لحظة ليصلح من أمره، فيخلو الشيخ إلى الفتاة ويتحدثان، فإذا هما يعطفان على هذا الشاب، ولكن الفتاة أشدهما عطفًا وحزنًا، والشيخ يسليها ويذكرها بحياتها الهادئة كأنه يأسف على ما فات منها، ويتعجل منها ما بقي، أليسا سيستأنفان هذه السعادة بعد ساعات متى سافر الشاب، والشيخ يلاطف الفتاة في حنان، ولكنه حنان يشبه الغزل، ويعود الفتى وقد لبس ثياب الزينة والعرس، فإذا أنكرا منه ذلك أجاب أنه يريد أنْ يكون سعيدًا، ويستطيع أنْ يكون سعيدًا، وسيكون سعيدًا! ودعاهما إلى أنْ ينصرفا ليستريحا، أما الشيخ فلا يأبى وهو متعب، وقد تقدم الليل، والفتاة متعبة أيضًا، فالشيخ يدعوها إلى الراحة ويلح في ذلك، ولكنها تتلكأ تريد أنْ تبقى حينًا مع خطيبها، وقد فهم الشيخ ذلك وقبله وألح في ألا تمكث الفتاة كثيرًا، فوعدته الفتاة، وانصرف الشيخ فيخلو العاشقان، ولا يكادان يتحدثان حتى تشعر بأن الساعة رهيبة مملوءة بالتأثر والعزم والجهاد العنيف بين العواطف المختلفة، أو قل بين عواطف السلم وعواطف الحرب؛ ذلك أنَّ الفتاة تعلن إلى صاحبها في تردد وخبل أنها تريد أنْ تكون له، فيتغابى، وكلما تغابى ازدادت هي تصريحًا وإقدامًا، حتى يضطر إلى أنْ يفهم أو يظهر أنه يفهم، فينكر عليها ذلك ولكن في رفق ورغبة، وكيف يقبل وهذا القبول إغواء! فليس للفتاة أحد ينصحها، ولو أنَّ لها من ينصحها لما فكرت في ذلك، على أنها متأثرة بالموقف، وهو لا يريد أنْ يستغل هذا الموقف، ولكن الفتاة قد فكرت وأكثرت التفكير، واعتزمت بعد بحث وتمحيص واقتناع.

والدين، هي واثقة من أنَّ الدين لا ينكر عليها ذلك ولا يأخذها به، فهي لا تعصي ولا تأثم، وإنما تقدم على شيء من البر قليل، وهو قد قبل، وهو سعيد مبتهج، بل هو يتجاوز السعادة والابتهاج إلى شيء من الذهول غريب، وهنا موقف من أجمل ما كتب الكاتبون، فيه شعر وفيه قوة، وفيه صدق إذا نظر إلى هذا الفتى وقد قبل ما عرضته عليه الفتاة، ولكنه يريد الزواج وقد أخطأه الزواج المدني، أخطأه الشهود، وأخطأه الممثل للحكومة، وأخطأته الكنيسة، ولكنه يستطيع أنْ يطلب هذا كله إلى الخيال، وخيال الجنديِّ قويٌّ إذا تعرض للخطر، فهو يريد أنْ يتزوج، وأنْ يستشهد أصدقاءه الذين ماتوا في الميدان على هذا

الزواج، وهو يتحدث بذلك مقتنعًا إلى صاحبته، فتخاف وتضطرب، ثم تذهل وقد فقدت الرشد واقتنعت مثله، وهو يدعو أصدقاءه الموتى واحدًا واحدًا، ويراهم يحضرون وهو يتحدث إليهم ويستمع نجواهم، يستشهدهم فيشهدون، ويستشيرهم فيشيرون ويهنئون، وهو يشرب الشمبانيا له ولهم وكأنه يراهم يشربون معه، يجب أنْ تقرأ هذه القطعة لتشعر بما فيها من جمال ينسيك كل شيء حتى نفسك.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في غرفة الزوجية، والفتاة غافلة في سريرها كأن قد أخذتها سنة من النوم، والفتى جالس إلى الموقد كأنه يصطلي، ثم تفيق الفتاة فتنكر هذه السنة التي أخذتها حين لم يكن يجب أنْ تنام، ثم تنهض من سريرها وتدنو من صاحبها ويتحدثان، وقد كان الزواج وهما سعيدان، وهي لا تنكر شيئًا مما فعلت، وهو لا ينكر شيئًا مما فعل، ولكنهما يمضيان في الحديث حتى يصلا إلى حيث يجب أنْ يتكشف كل منهما لصاحبه عن دخيلة نفسه، فبعد أنْ وصلا إلى ما وصلا إليه، لا ينبغي أنْ يكون بينهما كذب ولا سر ولا مراوغة، وهي في حاجة إلى تعرف الحقيقة، وهي تسأل وتلح، وهو يأبى ويحتال، ولكن لا سبيل إلى الفرار، يجب أنْ يجيب وإلا فهو لا يحبها، وهو يحذرها عاقبة هذا الجواب، ولكنها تكره الكذب وتؤثر عليه كل شيء، يجب إذن أنْ يجيب!

– ما أمد الحرب؟

– بعيد جدًّا.

– وهذا الانتصار؟

– قد استطاع العدو أنْ يتقي آثاره وإذن، فكأننا لم نفعل شيئًا.

– كم ينتظر أنْ تدوم الحرب؟

– أعوامًا.

وإذا هي مضطربة اضطرابًا لا حدَّ له، وإذا هي نادمة أشد الندم على ما فعلت، وإذا هي تلومه؛ لأنه أنبأها بالحق وتؤنبه؛ لأنه يمضي في الكذب، وإذا هي تعلن إليه أنها لا تحبه، ذلك أنها كانت تحبه حبًّا شديدًا، ثم كانت الحرب وكانت الغيبة، فأحست أثر هذه الغيبة في الحب، وأحست أنها لن تستطيع أنْ تحتفظ بحبها إذا طالت هذه الغيبة، وقد قاومت وجاهدت، ولكنها لم تفلح، وأقبل هو في إجازته، ففعلت ما فعلت لتحيي هذا الحب، وهي مقتنعة بأن الحرب قد انقضت أو كادت، أما الآن وسيستأنف الغيبة وستطول هذه الغيبة، فهي واثقة بموت هذا الحب، وهي آسفة نادمة على ما قدمت من نفسها.

أما هو فقد تلقى هذه الصاعقة في جلد وشجاعة، وما الذي يمنعه أنْ يكون شجاعًا، وهو يعيش مع الموت، وهو مسافر غدًا إلى الموت! نعم! هو مسافر غدًا إلى الموت حقًّا، فقد كان أخفى على صاحبته كل شيء حتى سر هذه الإجازة، وهو الآن يظهرها على كل شيء، نعم! إنه وعد بأن يموت، فقد كانت الإجازات ألغيت؛ لأن فرقته ستهاجم، وكانت قيادة الفرقة قد طلبت متطوعين يتقدمون بين يدي الجيش يوم الهجوم، يحملون قنابل ليضعوها دون خطوط العدو، ومن تطوع لهذه المهمة فهو ميت لا محالة، ولذلك أبى الناس جميعًا أنْ يتطوعوا، وأقبل هو إلى رئيسه، فطلب إليه الإذن له بالسفر على أنْ يعود متى تقرر الهجوم، وعلى أنْ يتطوع لهذه المهمة، فلما سأله الرئيس عن هذه المخاطرة، أجابه بأنه يحب فتاة، وبأن هذه الفتاة تلح عليه في أنْ يراها، وبأنه يخشى إذا لم يرها الآن أنْ يموت ولما يظفر بذلك ولما يتزوجها ولما يعطها اسمه، وقبل الرئيس وسافر الفتى، وهو الآن مدعو إلى العودة، وإذن فقد تقرر الهجوم، وإذن فهو مقتول يوم الجمعة، وقد ذهلت هي وأصابها شيء من الجنون، فأخذت تتهم نفسها بأنها قاتلة، وأخذ يدافعها عن هذه التهمة، ولكنها تمضي في الاتهام، ثم في الإعجاب بهذا البطل وأمثاله، ثم في شيء يشبه العبادة، وهنا حوار يمثل قوة الشاب، فصاحبته مسيحية مؤمنة، وهو ملحد مسرف في الإلحاد، وهي تذكره بالله وهو ينكره، وهي تذكره بالموت، فلا يزداد إلا إنكارًا لوجوده، ثم ازدراء له، ثم يتحداه إنْ كان موجودًا، وماذا يخشى؟! سيموت، فإن كان الإله موجودًا حقًّا فلن ينكر عليه إلحاده، أليس قد اجتهد وفكر فلم يهده عقله إلى شيء، ولكنه منصرف عن الدين والإله والموت إلى هذا الحب الذي لم يظفر به إلا حينًا، وهي تعطف عليه، وهو يسألها قبلة فتستدنيه وتستدنيه وتستدنيه أيضًا، وقد أطفئ المصباح حينًا، ثم نهض الفتى، وظلت هي في سريرها وأخذا يتحدثان، وأخذ هو يسليها ويخادعها عن الفجر ويقص عليها أحاديث تلهيها، وهي الآن مغرقة في نوم هادئ، وقد أشرق الصبح، فوضع الفتى رأسه بين يديه وأغرق في البكاء.

أعترف بأن هذا الفصل جميل لذيذ مؤثر، ولكني أعترف بأنه غامض، وبأنه غير مفهوم، وبأن فيه فلسفة تحتاج إلى شيء من الوضوح وإلى أنْ تقرب من الناس، ولكن الفصل الثالث هو شر ما في القصة وأبعده عن الحق.

نحن في الغرفة التي كنا فيها في الفصل الأول، وقد وقف الفتى وصاحبته، وأقبل الشيخ فلم يلتفت إلى ابنه ولم يشعر بوجوده، وإنما أقبل إلى الفتاة يحييها ويلاطفها ويسألها عن

ليلتها، ثم تنبه إلى وجود ابنه، فسأله عن صحته وعن ليلته، وأحس الفتى هذا وأنكره على أبيه في لطف، وأخذوا يتحدثون، وأخذ الشيخ يسأل الفتاة ما بالها لم تضئ غرفتها، وما يزال بها يسألها، وهي متلعثمة مضطربة حتى يتدخل الفتى، فيزجر أباه زجرًا عن هذا السؤال، ويتضح للشيخ ما كان بين العاشقين، فإذا هو ثائر مغضب يلعن ابنه ويزدريه، أليس قد اقترف إثمًا عظيمًا؟! أليس قد أغوى فتاة طاهرة؟! ويشتد الخصام بين الرجلين، وإذا الشيخ ينكر الحرب، ويلعنها لما أفسدت من نفوس الشبان وأخلاقهم، ولما ملأت قلوبهم بالغرور حتى خيل إليهم أنَّ الناس مدينون لهم بكل شيء، والفتى مغضب أيضًا يزجر أباه ويسبه، فلا يزداد الشيخ إلا حنقًا، أليس الفتى يضيف إثمًا إلى إثم؟! أغوى الفتاة وهو الآن ينهر أباه، وهل أبقت الحرب من شيء؟! وفيم هذا الغرور؟! إنَّ الجندي لا يزيد على أنه يؤدي واجبًا كغيره من الناس، ثم يشتد الخصام بين الرجلين، وإذا الشاب يتهم أباه بأنه كان يحب الفتاة، وأنه كان يغويها في غير شعور منه، وأنه الآن غيران غيرة العاشق لا غيرة الرجل الشريف، وتحاول الفتاة أنْ تصلح بينهما، وتحاول أنْ تظهر الشيخ على ما يخفي ابنه من إشرافه على الموت، ولكن الفتى يمنعها، والخصام محتدم بين الرجلين حتى تنقطع الصلة بينهما، فيعلن الفتى أنه منصرف، وأنه لا يعرف أباه ولا يحبه ولا يقدره، ويعلن إليه أبوه أنه يستطيع أنْ ينصرف، وأنه يتمنى له سفرًا حسنًا، وتقبل الفتاة إلى الشيخ تريد أنْ تهمس إليه، فلا ترى منه إلا حقدًا على ابنه واستخفافًا به، وإذا هي مغضبة كصاحبها تريد أنْ تتبعه، وهي تزدري الشيخ وتتهمه بكل ما كان يتهمه به الفتى، وقد كان الشيخ ثابتًا يقاوم ابنه مقاومة حسنة، فانظر إليه قد اضطرب أمام الفتاة، فهو لا يقاوم ولا يدفع عن نفسه، وإنما هو يستعطف ويترضى، ولا تزيد الفتاة إلا سخطًا وحنقًا وازدراء للشيخ.

والآن قد فهم الشيخ كل شيء، وأحس أنه مجرم، وأنه أساء إلى ابنه، وأنه كان يحب الفتاة حقًّا، هو إذن يقر على نفسه بكل سيئة، وهو يستعطف ابنه ويترضاه جاثيًا بين يديه، وقد رق الفتى لأبيه، فأخذ يعفو عنه ويعطف عليه ويتلطف له، ثم أخذ يترضى الفتاة على أبيه، ويطلب إليها أنْ تبقى، والفتاة تأبى، والشيخ يشاركها في هذا الإباء، فهو مقتنع حقًّا بأنه مجرم، وهو يريد أنْ يطهر من هذا الجرم، وأي شيء يطهره من هذا الجرم إلا الألم والوحدة والتفكير في هذا الخزي الذي كان فيه! ولكن الفتى قد رق لأبيه رقة لا حد لها، فهو يستعطف الفتاة، وقد ظفر منها بما كان يريد، وقد رضي الآن عن أبيه وعن الفتاة، وإذا هو ينصح لهما ويلقي إليهما الحِكَم كأنها وحي ينطق به ملك

مقدس، وهم جميعًا مسحورون بهذا الموقف، أما الفتى فينصح ويعظ ويلح على الفتاة حتى تقسم له بأنها تموت إذا مات، ولن تعيش أرملة، ولن تنصرف عن الزواج، ولكن، يجب ألا تتزوج جبانًا ولا مغرورًا، ثم يسأل الفتى صاحبته عن هذا الحب الذي مات: ألا يزال ميتًا!

فإذًا هذا الحب حي، وإذا الفتاة تحبه حبًّا لا يعدله حب.

وهو ينصرف سعيدًا، وكلما خطا خطوة هتفت به الفتاة: إني أحبك!

وهتف به أبوه: عد إليَّ سالمًا، إني لا أريدك نائمًا إلى سرير الموتى، إني أريد أنْ تغمض يداك عيني.

وقد خرج الفتى، وخلا الشيخ إلى الفتاة، ولكن الشيخ ذاهل يذكر ابنه ويتبعه بنفسه وقلبه، والفتاة ذاهلة مستندة إلى الحائط كأنها قد فقدت الرشد والحياة.

كل هذا الفصل جميل إذا قرأته، ولكن على ألا يكون حقًّا ولا ممثلًا للحق، على أنْ يكون خيال شاعر، وما الذي يمنع أنْ تقرأ خيال الشاعر وتجد فيه لذة؟ ثم في هذا الفصل تجاوز للحق وتجاوز للعدل، ولكن من الذي قال: إنَّ الظلم والباطل يخلوان من الجمال الفني دائمًا!

مايو سنة ١٩٢٤

عشاق

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «موريس دونيه»

ما رأيك في كاتب يعلمك ولا يؤلمك؟ يبعث في نفسك العواطف المختلفة قوة وضعفًا المتباينة قسوة ولينًا دون أنْ يشتد لذلك اضطرابك أو يعظم له تأثرك، ما رأيك في كاتب يبسط لك آلام النفس الإنسانية، وما يعبث بها من حسرات دون أنْ يضطر عينيك إلى أنْ تدمعا ودون أنْ يضطر قلبك إلى أنْ يخفق؟ وهو مع ذلك يبلغ منك ما يبلغه الكاتب المؤثر الذي يعبث بالقلب ويستبيح العبرات، هذا الكاتب الهادئ المبتسم الذي يمر بك على ألوان العواطف وضروب التأثر، ويشعرك بها وأنت مثله هادئ مبتسم هو «موريس دونيه» الذي أريد أنْ أحدثك اليوم عن قصة من قصصه.

كاتب مبتسم أبدًا، ولكنه متأثر ومؤثر أبدًا، ولقد تأخذني الحيرة، وما أشك في أنها تأخذك أيضًا حينما أريد أو تريد أنْ نتفهم كيف يستطيع هذا الكاتب أنْ يجمع بين هاتين الخصلتين، فيحزنك ويسرك في وقت واحد، أو هو يستطيع خيرًا من ذلك، فلا يحزنك ولا يسرك، وإنما يعلقك بين الحزن والسرور، فيرسم على وجهك ابتسامة خالصة صريحة مضيئة، ويلقي على نفسك ستارًا من الكآبة مؤثرًا أشد التأثير، ولكنه في الوقت نفسه خفيف لطيف شفاف.

كنت في هذه الحال وأنا أقرأ هذه القصة، ولست أخفي عليك أني ترددت ترددًا شديدًا في اتخاذها موضوعًا لحديث اليوم، فهي تخالف ما ألفنا من الأخلاق والعادات والأوضاع والأحاديث مخالفة شديدة، وكنت أخشى أنْ أوذي غير واحد من القرَّاء إنْ عرضت لها فلخصتها وفصلت ما فيها، ولكنها في الوقت نفسه غنية، خصبة، دقيقة، رقيقة، تستحق

العناية وتصلح موضوعًا للحديث، هي تخالف ما ألفنا، وأي قصة من قصص التمثيل لا تخالف ما ألفنا على نحو من الأنحاء! وأي لون من ألوان الأدب الأجنبيِّ يلائم من كل وجه ما ألفنا من ألوان الأدب العربي وما ورثنا من خلق وعادة! نحن بين اثنتين؛ إما أنْ نتشجع ونقبل الأدب الأجنبي على علاته فندرسه، لا لأنه يلائم آدابنا وعاداتنا وأخلاقنا؛ بل لأنه جدير بالقياس إلينا مخالف لما ألفنا ولما ورثنا، وإما أنْ نكتفي بما عندنا فلا ننفع ولا ننتفع، وأنا أعترف بأني أؤثر الأولى على الثانية، وأحتمل في غير ضعف ولا وهن تبعات اللوم الذي وجهه ويوجهه وسيوجهه إليَّ كثير من الناس، وربما وجدت في هذا اللوم البريء لذة ليست أقل أثرًا في نفسي من لذة الثناء والتشجيع.

هذه القصة مخالفة — كما قلت — لما ألفا ولما ورثنا؛ لأن موضوعها في نفسه غريب بالقياس إلينا كما سترى، وهي في الوقت نفسه مخالفة لما عودتك من القصص إلى الآن، فليس فيها عاطفة عنيفة تهزك هزًّا، وليس فيها تأثير قوي، وهي لا تنتهي بموت محزن، ولا بانتصار سارٍّ، وإنما تجري من أولها إلى آخرها هادئة مطردة، كما يجري النهر الذي لا تعبث به الزوابع ولا الأنواء، وربما اضطرب النسيم من حين إلى حين، فظهرت على صفحته موجات صغار لا يلحظها إلا الملتفت المتأمل، كذلك تقع هذه القصة ولا يكاد يشعر بها أحد من الذين يحيطون بأبطالها إلا فردًا واحدًا ملتفتًا شديد الالتفات، متأملًا قوي التأمل، ولا يفرض إنسان أنه أهل للالتفات أو التأمل؛ لأنه طفل لم يبلغ العاشرة من عمره بعد.

ولكنه يحب أمه، فهو يلتفت إلى حياتها ويتأمل في وقائعها، ويشعر من تفصيلها بما لا يشعر به أحد غيره.

ولأعرض عليك موضوع القصة في أول هذا البحث، وإنْ كان الكاتب لم يعرضه إلا في آخر القصة؛ لأني أحرص أشد الحرص على أنْ تتجنب التعميم والخطأ في الحكم، وعلى ألا تتورط في هذا الخطأ الشائع، فتحكم على الصحيح بأعراض المريض، وعلى المطرد بخصائص الشيء النادر.

نساء هذه القصة جميعًا لسن من النساء الشريفات اللاتي تمنحهن القوانين والأخلاق هذا اللقب، وهن لسن من المومسات اللاتي تعود الناس أنْ يسموهن كذلك، وإنما هن في منزلة بين بين، تعرفها البلاد المتحضرة المتأثرة بضروب الترف وألوان اللذة، والمضطربة بين المحافظة على القديم والاندفاع في سبيل الجديد، هن في منزلة بين بين؛ لسن زوجات،

ولكنهن مستهترات، قد اتخذن الأخلاء والأخدان، وعشن معهم عيشة الزوجات مع الأزواج، واجتهدن الاجتهاد كله في ألا يعلم الناس من سيرتهن الحقيقية شيئًا، فهن يتجنبن الأسر الشرعية حتى لا يظهر عليهن فضل الزوجات الشرعيات، ولا يعرف الناس مكانهن من مخالفة الخلق والقانون، وهن يتجنبن فتيات العبث واللذة مخافة أنْ يختلطن بهن فينالهن ما يتجنبن من سوء، لسن زوجات، ولكنهن أمهات، لهن أبناء وبنات، لم يولدوا لآباء شرعيين، ولكن أمهاتهم يحرصن كل الحرص على ألا ينالهم من ذلك ضرر ولا مشقة، يردن أنْ يربينهم كما تربي الأم الشرعية ابنها الشرعي، ويردن أنْ يزوجنهم ويشيدن مستقبلهم، كما تفعل الأسر الشرعية بأبنائها، فهن مضطرات إلى ضروب من الحياة فيها شدة وعنف، وفيها ضيق واحتمال للمكروه، وهن يتعارفن ويتآلفن ويتواضعن على شيء من النظام الخلقي يمتاز من أخلاق غيرهن من النساء، ويسيطر عليه حب الأبناء والبنات والتضحية بكل شيء في سبيله.

لن ترى في هذه القصة امرأة إلا وهي من هذه الطبقة، فأما الرجال فهم بين اثنين: شاب يلهو ولما يبلغ من السن ولا من المركز ما يمكن من الاستقرار إلى الحياة الشرعية واتخاذ الأسرة، ورجل اتخذ لنفسه أسرة، ولكنه لم يوفق في حياته المنزلية لما كان يرجو من سعادة وطمأنينة، وكلا الرجلين لا يعبث إيثارًا للعبث، ولا يلذ حرصًا على اللذة، وإنما التمس السعادة من طريقها المشروعة فلم يوفق لها، فهو يلتمسها من طرق أخرى ملتوية، وإذن ففيه شيء من الجد، وفيه شيء من الوفاء، فهو يحب صاحبته ويفي لها، وهو في الوقت نفسه يعترف بابنه أو بنته ويلحق نسبهما به.

أظنك الآن قد استطعت أنْ تتبين هذه الطبقة التي أراد الكاتب أنْ يبحث من بين أفرادها عن أبطال قصته، وأظنك توافقني على أنَّ البحث عن هذه الطبقة وما لها من خلق وعادة ممتع، لا يخلو من لذة ونفع، فلنتجاوز هذه الطبقة من وجهتها العامة لنبحث مع الكاتب عن أبطال هذه القصة الذين هم من أفراد هذه الطبقة.

ولست أقدم إليك من أبطال هذه القصة إلا أربعة، رجلين وامرأتين، فأما أول الرجلين فشيخ متقدم في السن هو «الكونت رويزو» من أشراف الفرنسيين، وأشدهم حرصًا على مذهب المحافظين في السياسة وفي الدين وفي الأخلاق والعادات، وهو ملكي مسرف في الملكية، يأتمر من حين إلى حين لإعادة الملك إلى عرش فرنسا، وهو متشدد فيما توارث الناس من خلق ودين، يكره الطلاق وينفر منه نفورًا شديدًا، ويحتمل من زوجه ما لا يحتمل الرجل الكريم دون أنْ يفكر في الطلاق أو يميل إليه، وهو على محافظته هذه رجل

ذكيٌّ قوي الذكاء، وهو مع هذا فيلسوف، قد فهم الحياة فاطمأن إليها، ولم ينكر من أمرها شيئًا، واجتهد في أنْ يوفق بين فلسفته وبين مذهبه في المحافظة، هو مثلًا مقتنع بأن امرأته تكرهه وتخونه، وتسرف في خيانته وتجعله هزؤًا بين الناس، ولكنه يكره الطلاق، وهو في الوقت نفسه يكره أنْ يفرض الناس أنه مغفل، وإذن فهو لا يتكلف أنْ يجهل سيرة امرأته، وإنما يتحدث عنها وعن عشاقها وعن مجونها في هدوء وسخرية مبتسمًا، لا يتحدث بذلك إلى الناس جميعًا، وإنما يتحدث به إلى أخصائه حتى لا يفرضوا فيه الغفلة، وربما اشترك مع أحد أصدقائه في شعر يهزأ فيه بخليل من أخلاء امرأته، ثم روى هذا الشعر لصديق آخر من أصدقائه مبتسمًا مزدريًا، ثم هو يعلم أنَّ القضاء قد كتب عليه أنْ يكون مخدوعًا طول حياته، ولا شك في أنه قد ألم لذلك وشقي به، ولكنه يعرف كيف يحتمل الألم ويبسم للشقاء، فهو يتحدث عن ذلك في لهجة الساخر المزدري دون غلوٍّ ولا إسراف، فيقول إنه كان شابًّا جميل الطلعة، حسن الخلق، وكان يحب فتاة، وكانت هذه الفتاة تحبه، ولكنها مع ذلك خانته وخانته، حين كان يكتسب في الحرب وسام الأبطال، حين كان يعالج في المستشفى، وقد أصابت ذراعه رصاصة، وأصابت ساقه ضربة السيف، ثم تزوج، وكان جميلًا، عظيم الثروة، عظيم الاسم، رفيع المكانة، فخانته زوجته وما زالت تخونه شابًّا وكهلًا وشيخًا، وهو يتحدث إلى صاحبته، فينبئها بأنه يثق بها الثقة كلها، فإذا أظهرت صاحبته اغتباطها لذلك أظهر لها أنه ليس مغفلًا، وقال: إنه يثق بأنها إذا أرادت أنْ تخونه فلن تجعله هزؤًا بين الناس، بل هي ستتستر وتتكتم حتى لا يظهر الناس من خيانتها على شيء، ثم هو إلى هذا كله يسخر من قوانين الاجتماع وأخلاق الناس، ويرى أنَّ الحق على كل إنسان أنْ يؤمن بأن خيانة المرأة للرجل هي القانون الطبيعي، وأنَّ الناس يجب أنْ يستعدوا لها كما يستعدون للموت، وربما كان من الحق على المدارس أنْ تأخذ الشبان بالتفكير في ذلك وتوطين النفس عليه، كما تأخذهم بالتفكير في الموت ورياضة النفس على انتظاره، وهو على هذا كله طيب القلب، ذكي النفس، وَوَفِيٌّ إذا أحب، رفيق بمن يحب.

أما الرجل الثاني فهو «فيتويل» شاب في الثالثة أو الرابعة والثلاثين من عمره، ليس عظيم الثروة، ولكن له من المال ما يمكنه من الحياة الرقيقة المستقلة، وهو قوي الشعور دقيقه، حاد الحس مترفه، يميل إلى اللذة ميلًا شديدًا، ولكنه في الوقت نفسه يطمح إلى الحب القويِّ الصحيح، وقد ذاق ألوان اللذة حتى سئمها، ولكن سأمه هذا لا يمنعه أنْ يطلب المزيد منها، وهو لا يريد أنْ يتزوج؛ لأنه جرب كثيرًا من النساء فلم تشجعه التجربة

على أنْ يفكر في الزواج، فإذا نصح له ناصح بأن يقصر عن العبث أجاب: كلا؛ إنَّ قلبي فارغ، ولكنه غير متعب، فهو إذن لا يكره اللذة، وإنما يريد أنْ يبحث عن المثل الأعلى فيها، وهو شديد الغيرة، ولكنه يخفي ذلك حتى على نفسه، وهو ذكيٌّ واسع العقل، ولولا اشتغاله باللذات لاستطاع أنْ يكون رجلًا ذا خطر في الحياة العلمية العملية.

أما المرأتان فإحداهما «كلودين» قد توسطت في عمرها لم تبلغ الأربعين ولكنها تجاوزت الثلاثين، كانت في أول أمرها تلعب في دور التمثيل، ثم كرهت هذه الحياة فانقطعت إلى حياة منظمة، وهي قوية الإرادة جدًّا، لا تذعن للأمر ولا تخضع للسلطة، وهي قوية العواطف جدًّا، إذا أحبت لم تحتمل شريكًا في الحب، كما أنها لا تقنع من الحب بالشيء القليل، وهي جميلة ساحرة ذكية، ولكن حظها من التعليم قليل، وهي فوق هذا كله أُمٌّ، تحب ابنتها، وتؤثرها على كل شيء وعلى كل إنسان.

وأما المرأة الأخرى فهي «هنرييت جامين» دون الثلاثين، جميلة خلابة، ولكنها ساذجة، خفيفة الروح، حلوة النفس، تخلب بسذاجتها وجهلها أكثر مما تخلب بجمالها وسحر عينيها، فقدت صديقها الذي كانت تحبه حبًّا شديدًا، وفقدته بعد أنْ أضاع ثروته وثروتها فقتل نفسه، وأخذت تختلف إلى قبره كل أسبوع تحمل الأزهار، فلقيت عند القبور رجلًا شديد الحزن، يحمل الأزهار إلى قبر امرأة، ويبكي عند هذا القبر بكاء الجزع، فسألت عنه حارسًا من الحرس، فأنبأها بأنه من أغنياء باريس، فقد امرأته فهو يزور قبرها ويحمل إليه الأزهار في كل يوم، فلما أصبحت لم تنتظر الأسبوع كما كانت تفعل، وإنما غدت إلى قبر صاحبها في الميعاد الذي يغدو فيه الرجل إلى قبر امرأته، فبكت وبكى الرجل، ثم عرضت له فتحدثت إليه، فاطمأن إليها، فعزته عن امرأته وعزاها عن صاحبها، وكانت بينهما صلة، فهما يعيشان معًا، وهي تقص ذلك على صاحبتها «كلودين» في سذاجة، كما تقص عليها سقوط المطر بعد أنْ كان الجو صحوًا، فإذا رأت شيئًا من الإنكار أو الميل إلى الضحك، فسرت موقفها هذا، وعللته بأنها أم تحب ابنتها وتريد أنْ تنشئها تنشيئًا حسنًا، وأنْ تجمع لها مهرًا صالحًا لتستطيع الفتاة أنْ تختار زوجها كما تهوى، وهي تريد أنْ تكون ابنتها سعيدة في الزواج، وويل لزوج ابنتها إنْ خان امرأته! إذن لأقتلنه! فإذا سئلت ماذا تصنع إذا كانت ابنتها هي الخائنة! أجابت مبتسمة: هذا شيء آخر! إذن فسأعينها على الخيانة.

هؤلاء هم الأشخاص الذين أردت أنْ أقدمهم إليك من أشخاص هذه القصة، وقد أطلت في تصويرهم وتعمدت الإطالة؛ لأن صورهم هي أشد ما في القصة نفعًا، وليس من

سبيل إلى فهم هذه القصة إذا لم تتبين هؤلاء الأشخاص على هذا الوجه، على أن تحليل القصة بعد ذلك لن يكون طويلًا.

نحن في الفصل الأول، في مدينة باريس، في قصر فخم يقوم في ميدان الولايات المتحدة، وتقيم في هذا القصر «كلودين» التي قدمت لك وصفها، وهي صديقة «للكونت دي رويزي»، وقد أنزلها في هذا القصر وضمن لها فيه حياة سعيدة مترفة، وهي في هذا اليوم قد دعت إلى هذا القصر طائفة من صديقاتها، وأقامت فيه عيدًا للأطفال، فأقبل صديقاتها ومعهن أبناؤهن وبناتهن، وأقبل معهن نفر من الرجال والشبان، وانقضى العيد وأخذ المدعوون ينصرفون حتى لم يبقَ إلا «هنرييت جامين»، وما كادت تبدأ في الحديث معها حتى أقبل «فيتويل» فيستمر الحديث حينًا، وتفهم منه ما قدمت لك من أمر «هنرييت»، ثم تنصرف وتخلو«كلودين» إلى «فيتويل»، فيتحدثان، فإذا هي حديثة العهد بهذا الشاب، عرفته منذ حين قصير، وأقبل هذا الشاب يزورها لأول مرة، فتفهم من حديثهما ما قدمت لك من أخلاقهما، ولكنك لا تلبث أنْ تفهم شيئًا آخر، وهو أنَّ «فيتويل» يشعر بشيء من الحب لكلودين، فيتلطف لها، ويتوسل إليها في رفق وفي تلميح، وهي تشعر بشيء من الميل إليه، ولكنها تخفيه وتدافعه عن نفسها، والفتى يتكلف ضروبًا من الفتنة ليكسب عطف هذه المرأة؛ فهو يفلسف ويعرض خواطر غريبة في أخلاقه وفي أخلاق النساء، وفيما كان بينه وبينهن من صلة، وكلما عرض خاطرًا من خواطره أو رأيًا من آرائه ظهر بينه وبين هذه المرأة اتفاق غريب في طريقة الفهم والتفكير والحكم، وقد قرب بينهما كل شيء، ولم يبقَ إلا الاعتراف، وهو يلح، وهي تفر أمام هذا الإلحاح، على أنَّ دفاعها قد أخذ يضعف ويلين، ولكن «الكونت دي رويزي» قد أقبل، فتقدم إليه الشاب ويتعارف الرجلان.

ثم ينصرف الشاب، ويخلو الكونت إلى صاحبته، فإذا تحدثا فهمت من حديثهما كل ما قدمت لك في وصف هذا الشيخ، وفهمت أنَّ الشيخ قد أحب هذا الشاب ومال إليه؛ لأنه محافظ؛ ولأنه سجن في سبيل المحافظة، ثم ينصرف الكونت، ويترك صاحبته وحدها، ولا تكاد تخلو إلى نفسها حتى يدخل الخادم يحمل إليها كتابًا، فضته ونظرت فيه علمت أنَّ «فيتويل» قد كتب إليها لمجرد انصرافه من عندها يبعث إليها تذكرة للأوبرا، ويعرض عليها أنْ تصطحبه إنْ أرادت، فتغضب؛ لأنه أسرع وأسرف في الإلحاح، ثم تجيب بالرفض وترد التذكرة إلى صاحبها، وقد انتهى هذا الفصل، وعرفنا منه الأخلاق التي تميز هؤلاء الأشخاص جميعًا، وعرفنا منه أيضًا أنَّ بين «كلودين» و«فيتويل» حبًّا ناشئًا لا يمكن أنْ يضيع.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن في القصر نفسه، ولكن في غرفة النوم، وقد انتصف الليل ودقت الساعة الثانية من الصباح، ونحن في آخر السنة وفي فصل الشتاء، والثلج يتساقط من وراء النافذة، و«كلودين» قد خلت إلى صديقها الشيخ، وهما يتحدثان عن عشاء كانت «كلودين» قد قدمته إلى طائفة من أصدقائها، والكونت يثني على هذا العشاء ويثني على صاحبته، وهما يذكران المدعوين، فيذكر الكونت أنَّ «فيتويل» كان مشغولًا «بهنرييت جامين» التي كانت جارته على المائدة وتتكلف «كلودين» الإعراض عن ذلك، ثم تريد كلودين أنْ تتجرد من ثيابها لتستريح، ويعينها الشيخ على ذلك في حب وغزل، ولكنه لا يوفَّق لجهله بثياب النساء وفنون البدع في ذلك، فتدعو خادمها لتعينها، حتى إذا فرغت من ذلك أظهرت الاستعداد للنوم، وأظهر الشيخ الطمع فيما يطمع فيه في مثل هذه الساعة وهذا الحال، ولا سيما أنه مسافر غدًا إلى إيطاليا ليأتمر والجو بارد والثلج يتساقط، ولكنه لا يرى منها إلا فتورًا ونفورًا، وهو يحبها، وهو طيب القلب، فيذعن لما تريد ويقبلها لينصرف، فلا تكاد تطمئن إلى قبلته، ثم تحس أنَّ نفورها قد آذاه فترقُّ له وتعطف عليه وتودعه وداعًا حسنًا، وينصرف راضيًا محزونًا.

ولا يكاد ينصرف حتى تسرع إلى النافذة، فتفتحها وتقدم منها المصباح كأنها تشير إلى إنسان، وهي في الحق تشير إلى إنسان، فلم تكد تمضي لحظة حتى يقبل «فيتويل»، وكان ينتظر أمام الباب أنْ ينصرف الشيخ ليصعد هو إلى القصر، فتتلقاه ويكون بينهما خصام طويل لذيذ، ذلك أنَّ الحب الناشئ قد انتهى إلى غايته بعد ثلاثة أشهر، مضت على ذلك أشهر أخرى عاش فيها العاشقان عيشة لذيذة ولكنها مختلسة، فهما ينكران ويتكتمان، لا يريدان أنْ يظهر الشيخ على ما بينهما، فهما يحبان الشيخ والشيخ يحبهما، وهما لا يريدان أنْ يسيئا إليه، وهي بعد تذكر أنَّ الشيخ يثق بها ويثق بأنها لن تعرضه للعار، وهي لا تريد أنْ تعرضه للعار ولا للألم؛ لأنها تحبه وتشكر له جميله، ثم هو أبو ابنتها التي بلغت الثامنة من عمرها، تعيش مع صاحبها الشاب عيشة لذيذة مختلسة، ولكنها منغصة أيضًا، فهي شديدة الغيرة، تراقب صاحبها مراقبة شديدة، تسأله في كل يوم أنْ يقص عليها سيرته حين كان بعيدًا عنها، وهو يفعل فلا يهمل من حياته شيئًا مهما يكن تافهًا، وهو ليس أقل منها غيرة، فهو يكره أنْ تظهر الظرف للناس، وهو يكره بنوع خاص هذه الصلة بينها وبين الشيخ، ويؤذيه أنْ يختلس اللذة والحب، وألا يظهر في القصر في مثل هذه الساعة إلا إذا انصرف الشيخ، كلاهما شديد الغيرة، ولكن كليهما شديد الحب، وهل توجد الغيرة بدون الحب؟ يختصمان ثم يرضيان، وقد أحسا الجوع؛

لأنها لم تأكل حين كانت على المائدة، وإنما اشتغلت بمراقبة صاحبها، وهو لم يأكل وإنما اشتغل بمراقبتها، فليأكلا الآن، وهي تذهب فتحضر ما تجد من بقايا الطعام، فيأكلان ويشربان، ولكنهما لا يتجاوزان هذا إلى شيء آخر؛ لأنها متعبة، ولأنها — وذلك شيء نفهمه نحن — لا تستبيح لنفسها أنْ ترضى للشاب بما أبت على الشيخ منذ حين قصير، ينصرف الشاب، وقد اتفقا على أنْ يسافرا غدًا من باريس ليقضيا في الريف أيامًا ينتهزان فيها غياب الشيخ في إيطاليا.

فإذا كان الفصل الثالث، فقد مضت أشهر ونحن في بيت الشاب، وهو يتحدث إلى صديق له يزدري الحب والمحبين والنساء، ويعنى بالبحث عن الظواهر النفسية، وقد أقبل الشيخ فعاتب الشاب في رفق؛ لأنه وعده ووعد «كلودين» أنْ يلتقوا أمس ليتعشوا معًا، ثم يذهبوا إلى ملعب من ملاعب التمثيل ثم أخلف الوعد، فيعتذر الشاب بالنسيان ويطلب إليه الشيخ في رفق وسذاجة أنْ يزور «كلودين» وينصرف، فيتحدث الشاب إلى صديقه، وقد فهمنا من هذا الحديث أنه مغاضب لكلودين، يريد أنْ يسلو عنها، ويريد أنْ يسافر مساء اليوم ليغيب حينًا عن باريس، أما صاحبه فلا يصدقه بل يكذبه ويسخر منه، فعزمه على السلو ليس صادقًا، إذ لو كان صادقًا لما احتاج إلى الهرب، ولما امتنع من أنْ يرى صاحبته ويعلن إليها القطيعة، وتدخل «هنرييت جامين» فتخلو إلى الشاب، وتنبئه بأنها أقبلت من عند «كلودين» وأنَّ كلودين محزونة، وأنها في حال سيئة، وتتوسل إلى الشاب أنْ يزورها ويراضيها، فيظهر الشاب سخطًا شديدًا؛ لأن «كلودين» تُضيِّق عليه وتسرف في الغيرة، وتعتدي على حريته اعتداء متصلًا لا يطاق، ويعلن أنه مسافر، ولكنه سيكتب إلى كلودين كتابًا رقيقًا، فلا تكاد تنصرف هذه المرأة، ولا يكاد هو يأخذ في الكتابة حتى تدخل «كلودين»؛ لأنها كانت تنتظر صاحبتها أمام الباب، فلما علمت بعزمه على السفر لم تستطع صبرًا فصعدت إليه تترضاه، ولم يكد يراها حتى كان عتاب شديد، وحتى أخذ يطلب إليها مُلِحًّا عليها أنْ تترك الشيخ وتخلص له هو، وهنا موقف يبين لك عن خُلق هذه المرأة وعن خُلق أمثالها من أفراد هذه الطبقة، التي قدمت وصفها لك، ما لم أذكره في أول هذا الفصل هذا الخلق، هو شيء من الوفاء غريب لا عهد لك به، هي تحب الشاب وتؤثره على كل إنسان إلا ابنتها، وهي مستعدة للتضحية في سبيل هذا الحب بكل شيء إلا بهذا الشيخ، لا لأنه أبو ابنتها فحسب؛ بل لأنه رجل ضعيف قد وثق بها واطمأن إليها، وقد وجد عندها سعادة أعانته على احتمال الحياة، وهي لا تريد ولا تستطيع أنْ تسلبه

هذه السعادة، هي تخونه، ولكنه يجهل هذه الخيانة، وإذن فهو لا يألم لها، وهي تكره أنْ يألم، وتعلم أنه سيموت يوم تقطعه، وهي مستعدة لكل شيء إلا الجبن والنذالة، ومن الجبن والنذالة أنْ تتعمد الإساءة إلى هذا الشيخ الذي لم تلقَ منه إلا خيرًا.

أتعلم أنك إنْ أساء إليك إنسان لم تحجم عن الموت لتنتقم لنفسك متأثرًا بعاطفة الشرف التي تسيطر على الرجال؟ فاعلم أنَّ عندنا نحن النساء عاطفة تشبه عاطفة الشرف هذه وتحول بيننا وبين التورط في مثل هذه الدنية، أنا أضحي في سبيلك بكل شيء إلا هذا الشيخ! ويطمئن الفتى إلى ذلك، فهو يحبها ويحب منها هذا الوفاء، وهو ليس كغيره من العشاق الذين يأبون إلا الاستئثار السخيف بكل شيء، وإنما يكفيه أنْ يستأثر من صاحبته بحبها وحنانها وقدرتها على اللذة، وإذن فلن يسافر، وإذن فسيتصل ما بينهما من حب، وسينافقان إبقاء على هذا الشيخ.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في مدينة من مدن إيطاليا، وقد أقبل الليل وخلا العاشقان، وهما يتحدثان متأثرين تأثرًا شديدًا، يتجلدان ويتكلفان القوة والحزم؛ لأنهما قد أزمعا أمرًا عظيمًا، ذلك أنَّ أشهرًا قد مضت، فلم تزدد الغيرة بينهما إلا شدة، وأصبح الشاب لا يستطيع أنْ يحتمل هذا النفاق، ولا يرضى إلا أنْ تنقطع الصلة بين صاحبته وبين الشيخ، وهي لا تريد ذلك ولا تقبله، وإذن فقد اتفقا على أنْ يقطعا ما بينهما من حب، واستأذنت الشيخ في شهر تغيبه عنه فأذن لها، ومكثت هذا الشهر مع صاحبها خالصة له، ثم انقضى الشهر، ويريد الشاب أنْ يسافر إلى أقصى الأرض مع بعثة جغرافية، وستأتي العربة لتقله إلى المحطة بعد دقائق، فهما متأثران محزونان لهذا الفراق، وهي قد فقدت قوتها، وخيل إليها أنها لن تستطيع أنْ تحتمل هذا الفراق، وأنها تستطيع أنْ تهجر الشيخ لتبقى مع صاحبها، فتعرض عليه ذلك فيأبى؛ لأنه يعلم من أمرها عجزها عن الإساءة إلى هذا الرجل، وهي إنما تخطئ الآن حين تقدر أنها تستطيع هذه الإساءة، فلينقطع الحب بينهما، وحسبهما من هذه السعادة القوية التي ظفرا بها كل هذه الأشهر، وهو يعلم أنَّ هذا الفراق مؤلم، أليس يشعر بهذا الألم! أليس سيشعر به في أثناء سفره! ولكن لا بد من احتمال هذا الألم إذ لم يكن عنه منصرف، وهنا حوار قصير، ولكنه آية في الدقة والتعمق، هي جزعة ولكنها مقتنعة بأنها لن تستطيع أنْ تسيء إلى هذا الشيخ، وهي في الوقت نفسه لا تريد أنْ تنقطع الصلة بينها وبين الشاب، تريد أنْ تذكره أبدًا وأنْ يذكرها أبدًا، وأنْ يكون بينهما شيء مشترك في كل يوم؛ فتعرض عليه عهدًا وهو أنْ ينظر كل منهما إلى

نجم بعينه في ساعة بعينها من الليل، فهي ستجد في ذلك شيئًا من العزاء، وستعلم أنه ينظر إلى ما تنظر إليه في نفس الوقت الذي تنظر فيه إلى هذا النجم، فيجيبها: ولكن الليل سيظلك حينما يظلني النهار! فليس من الممكن أنْ ينظر أهل الأرض جميعًا في وقت بعينه إلى مكان بعينه من السماء.

وإذا هي دهشة؛ لأنها علمت ما لم تكن تعلم، وإذا هي تشعر بشيء من خيبة الأمل عظيم، وتلوم على أنه أظهرها على هذه الحقيقة العلمية القاسية، وقد أقبلت العربة وافترق العاشقان بعد حزن ولوعة.

فإذا كان الفصل الخامس، فقد مضى عام ونصف عام على هذا الفراق، ونحن في باريس في القصر الذي كنا فيه في الفصل الأول، وفي نفس المكان الذي كنا فيه في الفصل الأول من القصر، ولكن أشياء كثيرة قد تغيرت، فليس القصر قصر «كلودين»؛ لأنها باعته، وباعته لصديقتها «هنرييت جامين»، التي اشتدت الصلة بينها وبين صاحبها الذي لقيته عند القبر حتى اشترى لها هذا القصر وأنزلها فيه، وهي اليوم تحتفل أول مرة في قصرها الجديد، وقد دعت أصدقاءها وصديقاتها الذين رأيناهم في الفصل الأول، وهم جميعًا يعبثون ويلهون ويتبادلون أحاديث كلها مجون وعبث وتلميح إلى ما لا يصرح به، وهم جميعًا سعداء، إما بما يلقون في الحاضر، وإما بما يأملون في المستقبل، وقد انتحى اثنان ناحية من المكان، فهما هادئان يتحدثان في حزن مبتسم، وهما الشيخ وصاحبته «كلودين» يذكران هؤلاء الناس وسرورهم وابتهاجهم وما هم فيه مما يشبه الجنون، ثم تنظر فإذا «فيتويل» بين القوم، وإذا هو يقبل ليحيي «كلودين»، فيخلو إليها حينًا والقوم لاهون في الرقص والعبث، ويتحدث العاشقان فيما كان من أمرهما منذ ذلك الفراق، أما هو فلم ينسَ ولم ينقطع عن التفكير في صاحبته والحنان عليها، ولكنه مع ذلك تعزى، وتعزى بهذا البحث العلمي وبما اعترضه في طريقه من الأشياء والمناظر المختلفة، ومهما يكن عزاؤه فلن يستطيع أنْ يمحو من قلبه ذكرى يملؤها الحنان على تلك الأيام الماضية، وأما هي فقد تألمت وكأن ألمها شديدًا، فأصابها علل وأمراض عصبية، وأدركها الشيب كما أدركه، ولكنها تخفي شيبها في حين هو لا يخفيه، وقد جهل الناس جميعًا قصتها، ولم يشعروا منها بشيء إلا ابنتها الطفلة، فقد فطنت للقصة وعرفت دخيلتها، وأرادت أنْ تنتقم لأمها ففقأت عيني «فيتويل» في صورة كانت عندها، ثم يمضيان في الحديث.

أما هو فقد تعزى وما يزال يذكر صاحبته، ويحتفظ بهذه الفكرة، ولكنه سيتزوج، سيتزوج أختًا لرفيق له في البعثة الجغرافية لقيها في الهند الصينية، ورافقها في الطريق إلى باريس فرضيها زوجًا له.

ليست جميلة ولا خلابة ككلودين، ولكنها رءوم، وفيها قوة وإرادة وميل إلى العلم، فإذا نظرت كلودين إلى صورة الفتاة ابتسمت لها وأحبتها وهنأت صديقها في حزن ولكن في إخلاص، وتأثر هو بهذا الإخلاص وبهذا النوع من التضحية وأخذ يثني عليها ويرق لها، ولكنها هي أيضًا تعلن إليه أيضًا أنها ستتزوج، نعم ستتزوج ويكون الشيخ زوجها، فقد فرت امرأة الشيخ مع ضابط شاب، وأصبح الشيخ يستطيع الطلاق دون أنْ يخرج عن عاداته وآرائه، وقد فعل وعرض على «كلودين» أنْ تكون زوجه الشرعية، فترددت ثم قبلت، أليست تفكر في ابنتها! أليست تعطف على الشيخ في آخر أيامه! وقد باعت هذا القصر، وستترك باريس مع زوجها وابنتها، وسيخلون إلى حياة هادئة منظمة طاهرة في أعماق الريف، وهما في هذا الحديث إذ يقبل الراقصون اللاهون في ضجيجهم وعجيجهم، فيخفون علينا صوت هذين العاشقين اللذين يذكران الماضي ويتحدثان عن المستقبل، يخفون صوتهما فيغرق هذا الصوت، ويغرق صاحباه في ضجيج الحياة اللاهية العابثة، كما يغرق في هذا الضجيج كل شيء في كل يوم.

وكم من دون لهو الحياة وعبثها من أحاديث ليست أقل تأثيرًا ولا صدقًا من هذا الحديث!

مايو سنة ١٩٢٤

الخطر الآخر

قصة تمثيلية للكاتب الفرنسي «موريس دونيه»

ليست كالقصة التي حدثتك عنها في الأسبوع الماضي، أو هي لا تشبهها من وجوه كثيرة، فهي لا تدرس أشخاصًا، ولا تعطي منهم صورًا بينة تمثل طبقات مختلفة من الناس، أو هي إنْ درست هؤلاء الأشخاص ومثلتهم تمثيلًا قويًّا، فليست تتخذ من هؤلاء الأشخاص غرضها الأول، وليست تدرسهم لأنفسهم، وليست تريد أنْ تتخذهم عناوين لطبقات من الناس، وإنما تتخذهم وسائل وطرقًا للغرض الذي تقصد إليه والغاية التي تريد أنْ تبلغها، هي لا تدرس شخصًا ولا أشخاصًا، وإنما تصور عاطفة أو عواطف، بل يجب أنْ نكون أدق من هذا وأكثر وضوحًا، فهي لا تدرس العواطف ولا تتصورها من حيث هي، وإنما تدرس الجهاد بين العواطف وتصوره، وهي تعنى عناية خاصة بالجهاد بين عاطفتين لهما في حياتنا الأثر كله، ولهما عليها السيطرة كلها، أريد عاطفة الحب وعاطفة الأمومة.

القصة جهاد بين هاتين العاطفتين، بل ربما لم يكن هذا التعبير صحيحًا، فالقصة تاريخ لهاتين العاطفتين: تدرسهما حين تنشآن، وتدرسهما وهما تنموان، ثم تدرسهما حين تصطدمان، ثم تسجل انتصار إحداهما على الأخرى، أو — بعبارة أصح وأدق — تسجل انتصار كلتيهما على الأخرى، فكلتا العاطفتين منتصرة، وكلتاهما منهزمة، والأشخاص في هذا كله وسائل وسبل لا أغراض ولا غايات، فلو استطاع الكاتب أنْ ينطق هذه العواطف ويحملها على الحركة والاضطراب؛ لأعرض عن الأشخاص إعراضًا، ولكن ذلك غير ميسور، فليس للعواطف من حيث هي وجود مستقل، وإنما توجد في الناس،

فلا بد لإحيائها وتحريكها وتصوير الجهاد بينها من أنْ يحيا الناس ويتحركوا، ويجاهد بعضهم بعضًا، ولو أنَّ الكاتب عدل عن الأشخاص، واكتفى بالعواطف في أنفسها لما كان كاتبًا ممثلًا، ولكان فيلسوفًا أو أحد الباحثين عن ظواهر علم النفس.

هو إذن مضطر إلى الأشخاص، يتخذهم وسيلة إلى درس العواطف، وما الأشخاص بدون العواطف؟! وإذا كانت العواطف لا تستطيع أنْ توجد وحدها، ولا أنْ تتحرك وتضطرب فالإنسان كذلك لا يستطيع أنْ يوجد وحده ولا أنْ يتحرك ويضطرب، وإنما هو محتاج في وجوده وحركته واضطرابه إلى هذه العواطف التي تفيض عليه الوجود وتبعث فيه الحركة والحياة، لا وجود للإنسان بدون العاطفة، ولا وجود للعاطفة بدون الإنسان، وإذن فمن درس الإنسان فقد درس عواطف الإنسان، وإذن فليس كاتبنا مسرفًا ولا متجاوزًا القصد ولا ممعنًا فيما بعد الطبيعة إذا هو لم يتثاقل في درس الأشخاص وتصويرهم تصويرًا بينًا واضحًا، وإنما قصد إلى ناحية من نواحي الفن فأتقنها وبرع فيها.

ليس الأشخاص غرضًا من أغراضه، وهم مع ذلك أحياء في قصته، أحياء موفورو الحظ من الحياة، فهم يتحركون ويعملون في خفة ونشاط لا تجدهما إلا عند المهرة من كتاب هذا الفن، وأنت تقرأ القصة أو تشهدها فلا تشعر فيها بتكلف ولا تصنع، وإنما يخدعك الكاتب عن نفسك، فيخيل إليك أنك تشهد فصولًا من فصول هذه الحياة التي يحياها الناس في كل يوم، لولا أنك مضطر إلى أنْ تلاحظ أشياء قليلة تكلفها الكاتب تكلفًا؛ لأنه لا يستطيع إلا تكلفها.

قلت: إنَّ القصة جهاد بين عاطفتي الحب والأمومة، ولكني أعود اليوم فألفتك إلى ما لفتُّك إليه في حديث الأحد الماضي من أنَّ كاتبنا رشيق خفيف الحركة سريعها، دقيق كل الدقة في تصوره وتعبيره عما يتصور، فهو يعرض لأشد ألوان الجهاد عنفًا فيمثله أصدق تمثيل، ويترك في نفسك أشد الآثار وأعمقها وأبقاها، دون أنْ يتكلف لذلك العبارات الضخمة أو الجهد الشديد، بل دون أن يتكلف لذلك شيئًا، هو كالموسيقيِّ الماهر الذي لا يحتاج إلى أنْ يثقل على أداة من أدواته الموسيقية؛ ليستخرج منها أعذب النغم وأمرَّه وأشده استثارة للعواطف في نفسك، وإنما يكفيه أنْ يلمسها لمسًا خفيفًا، فإذا هي تخرج الآيات البينات، وكذلك كاتبنا، يلمس الموضوعات لمسًا خفيفًا، أو قل يلمس قلبك لمسًا رقيقًا، فإذا هو قد أحيا فيه العواطف بما يشخصها ويمنحها القوة والحياة، ويخلق بينها ألوان الجهاد، لن تجد في قصصه هذه الألفاظ الضخمة العنيفة التي يسحرك عنفها وضخامتها،

وإنما تجد فيها الألفاظ العادية المألوفة التي يستطيع الكاتب بفنه أنْ يمنحها حياة ليست عادية ولا مألوفة، ومن هنا كان تأثرك بقصص هذا الكاتب صادقًا طبيعيًّا من جهة، وهادئًا وديعًا من جهة أخرى، يحزنك دون أنْ يحول بينك وبين الابتسام، ويضحكك دون أنْ يعصمك من الحزن والاكتئاب، بل ربما لم تجد فيه حزنًا خالصًا ولا سرورًا خالصًا، وإنما هو في جميع أطواره مزاج من الحزن والسرور، ولنترك القصة نفسها لنثبت لك صدق ما نقول.

نحن في قصر من قصور باريس فخم يدل أثاثه على أنَّ الذين يسكنونه قوم مثرون ضخام الثروة، وهم في الحق كذلك، فصاحب القصر رجل يشرف على طائفة من المصانع تغل عليه أمولًا كثيرة، فهو في الوقت نفسه من رجال الصناعة ومن رجال المال، وهو يعيش عيشة ملائمة لمكانته وثروته، فينفق عن سعة وفي غير تقتير، وزوجه تتحدث عن شجرة غرسها في حديقته، وبدأت تؤتي شيئًا من الثمر، فإذا كل ثمرة من هذا الثمر القليل الذي آتته قد كلفت صاحب القصر آلافًا من الفرنكات، هو غني، وهو مترف، وهو مطلق اليد في المال، وزوجه جميلة فاتنة عذبة الصوت خلابته، ليست أقل من زوجها ترفًا ولا عبثًا بالمال، ولعلها أشد منه إمعانًا في الترف والعبث، وقد دعا صاحب القصر إلى العشاء في هذه الليلة نفرًا من أصحابه وأصدقائه، يعنينا منهم رجل متوسط السن هو «أتيين جادان» كان رفيقًا لصاحب القصر في المدرسة، ثم افترقا بعد أنْ أتما الدراسة، فسعد أحدهما وعاش الآخر عيشة كد وعناء في مدينة من مدن الأقاليم، واقترن بفتاة هي آية في الجمال والسحر، هي «كلير» زوجه التي تحضر معه هذا العشاء، وكانا قد أقبلا إلى باريس يقضيان فيها أيامًا فلقيهما صاحب القصر فدعاهما إلى قصره مغتبطًا بلقائهما، ودعا معهما قومًا آخرين، منهم رجل لا بد من أنْ نذكره وهو «فريديير»، وهو المحامي الذي بَعُدَ صوته في المحاماة حتى أصبح علمًا من أعلامها ولما يجاوز الخامسة والثلاثين، ولم يكد هؤلاء القوم جميعًا يلتفون إلى المائدة حتى كان فيهم دهش وعجب؛ لأنهم جميعًا كانوا أصدقاء، ثم فرقت بينهم أحداث الحياة حتى نسي بعضهم بعضًا نسيانًا قويًّا أو ضعيفًا، وقد ذكرنا أنَّ «أتيين جادان» كان رفيقًا في المدرسة لصاحب القصر، ونذكر الآن أنَّ «فريديير» كان صديق الطفولة والصبا والشباب لـ «كلير» قرينة «أتيين جادان» هذا، ولم يكن الأمر قد وقف بينهما عند الصداقة، بل كان قد تجاوزها إلى الحب، وإلى الحب الشديد القوي ثم حيل بينهما وبين الزواج، فانصرف المحامي إلى باريس وأقام فيها،

وتزوجت صاحبته من زوجها هذا وأقامت في مدينة من مدن الأقاليم، والتقى هؤلاء الناس جميعًا بعد فرقة اتصلت اثني عشر عامًا، فهم دهشون، وهم مغتبطون، ونحن نشهدهم وقد انصرفوا عن المائدة، وأقبلوا إلى الحديقة يتحدثون ويتناولون القهوة وما إليها، وليس من شك في أنَّ أحاديثهم إنما تدور حول الماضي الذي عرفوه واشتركوا فيه، وحول ما كان لكل منهم من سيرة وحظ أيام هذه الفرقة الطويلة.

وفي هذا الحديث لذة تضحك ولكنها تحزن أيضًا؛ فقد كان هذان الصديقان رفيقين في المدرسة خرجا منها في سنة واحدة، وكان أحدهما أول الفائزين في الامتحان، وكان الثاني آخرهم، ثم لم يتح له الفوز إلا لأن صديقه أعانه وأتاح له هذا الفوز، فلما استقبلا حياتهما العملية انعكست بينهما آية الفوز، فأما آخر الفائزين فهو صاحب القصر الذي أتيحت له الثروة الضخمة والمكانة العالية، وأما أول الفائزين فهو صديقه هذا الذي يعيش عيشة كد وعناء، ويكسب رزقه بالعمل في شركة من شركات السكك الحديدية، وهما يتحدثان في ذلك، يغتبط أحدهما بأنه كان في المدرسة غبيًّا بليد الذهن، ويندب الآخر حظه بأنه كان في المدرسة ذكيًّا حاد الذكاء، وهما يعممان ويتخذان من هذا قاعدة هي أنَّ أشد الناس ذكاء في المدرسة أسوؤهم حظًّا في الحياة العملية، وأنَّ الفوز مقدور للأغبياء الذين لا يذوقون العلم ولا يميلون إليه، وهما يضربان لذلك الأمثال، ويكثران منها حتى يصلا إلى اسم من الأسماء كان صاحبه ذكيًّا نابهًا، وأتيح له شيء من الفوز كان ينقض القاعدة لولا أنَّ سوء الحظ أقبل فردَّ الأمر إلى نصابه، واضطر هذا الرجل إلى الإفلاس، وإلى أنْ يعرض مصنعه للبيع، فاشتراه صاحب القصر وهو يعيد تنظيمه وينتظر من ورائه ربحًا كثيرًا، وهنا تعرض لصاحب القصر فكرة وهي أنْ يستعين بصديقه «أتيين جادان» فيما يعد من عمل، فيعرض عليه ذلك ويرغبه فيه، ويؤكد له أنه كان دائمًا مصدر الخير والثروة لشركائه والذين اتصلوا به، فإذا أظهر شيئًا من التردد ألح عليه ودعاه إلى مكتبه؛ ليظهره على الصور والأوراق فيذهبان، ولا يكادان يذهبان حتى تستأذن صاحبة القصر في أنْ تترك أضيافها حينًا؛ لأنها ستغني بعد أيام في حفلة من الحفلات، وهي مضطرة إلى أنْ تعد نفسها لهذا الغناء، ولن تغني وحدها بل سيشاركها «ميان» أحد الأضياف، وإذن فسيذهب معها أيضًا إلى غرفة الاستقبال حيث البيانو ليجربا صوتيهما وغناءهما، وإذن فلم يبقَ أمامنا إلا «كلير» وصديقها القديم «فريدير»، فهما يتحدثان حديثًا عاديًّا هادئًا في أول الأمر، يذكران صاحبة القصر وانصرافها عنهما في غير كلفة ولا أدب.

ونفهم من الحديث الذين يقصه «فريدير» على صاحبته أنَّ صاحبة القصر لم تتركهما للغناء، وإنما تركتهما للحب، فهي مشغوفة بصاحبها الموسيقي وهو مشغوف

بها، وهما لا يتكلفان إخفاء هذا الشغف، وإنما يرسلانه على طبيعته، فإذا حاولت «كلير» أنْ تنكر على صديقها هذه الغيبة أجابها: إني لم أقل شيئًا غريبًا، وإنما حدثتك بما يتحدث به الناس، على أني لا ألوم صاحبة القصر فقد خانها زوجها وأعرض عنها، فأخذت تتعزى وتسلي عن نفسها ولجأت إلى الموسيقى، كما كان يلجأ النساء إذا خانهن الحظ إلى الدير، وهما في هذا الحديث إذ تدعوهما صاحبة القصر من النافذة: «أين أنتما؛ فأنا لا أراكما» فيجيبها «فريديير» نحن حيث تركتنا لم نبرح مكاننا، وإنما تحجبنا عنك الأشجار، فتسأل: «وهل تريانني؟» فيجيب: «كلا! لأن الأشجار التي تحجبنا عنك تحجبك عنا»، وهو كاذب، فهما يريانها وهي لا تراهما، فإذا سألته صاحبته عن هذا الكذب ولامته فيه أجابها: «إنما أحسنت إليها لأني هونت عليها أمرًا تطمع فيه وتستصعبه، انظري» وينظران فإذا صاحبة القصر وصديقها الموسيقي متعانقان يتلاثمان، فتخجل «كلير» لذلك، ثم تسأل: أليس لها ولد؟

فيجيبها: «كلا، هل تظنين أنها كانت تعرض عن الحب لو أنَّ لها ولدًا؟»

فتجيب: «أحسب أنَّ الولد يعصم أمه من الهفوات.»

«أعتقد أنك مخطئة، وأنَّ الأمومة والحب يستطيعان أنْ يتفقا الاتفاق كله.»

وهنا وضع الكاتب نظريته التي ستدور حولها القصة، وهي أنَّ الحب والأمومة يتفقان أو لا يتفقان، ويجب أنْ نتفق نحن أولًا، فالكاتب لا يريد الحب من حيث هو، لا يريد الحب المشروع بين الزوجين، وإنما يريد الحب الآثم بين الخدنين، يسألها: ألها ولد، فإذا لها صبية في الثانية عشرة من عمرها.

– وهل هي جميلة؟

فتتردد في الجواب تواضعًا واستحياء، ثم تجيب بأنها جميلة بارعة الجمال.

– وما اسمها؟

– «مدلين.»

ثم يذكران صباهما وشبابهما وحبهما، فإذا هو مستمسك بهذا الحب وفيٌّ له متأثر به أشد التأثر حتى في أوقات لهوه وعبثه، فهو كغيره من الشبان قد لها وعبث وأخذ بحظه من اللذة، ولكنه لم ينسَها لحظة، وأكثر من هذا أنه حين لها وعبث لم يَمِلْ من النساء إلا إلى من كانت تشبهها شبهًا قويًّا، وإذا هي ليست أقل منه استمساكًا بالحب وتأثرًا به، وإذا هي كانت تغار وتألم كلما سمعت بخليلاته وأخدانه، وإنما هي تصدقه فيما يزعم؛ فقد رأت في ملعب من ملاعب التمثيل إحدى خليلاته فإذا هي تشبهها حقًّا، وهنا يضع لنا

الكاتب النظرية الثانية التي تدور حولها القصة، وهي أنَّ صاحبنا ككثير غيره من الناس لا يحب شخصًا من الناس بعينه، وإنما يحب طائفة من الخلال والمشخصات تتميز بها المرأة التي يهواها، هو يحب شكلًا من أشكال النساء، أو يحب «عَيِّنَة» من النساء إنْ أعجبك هذا التعبير المبتذل، ثم يتصل الحديث بينهما فلا نشك في أنهما صادقان في هذا الحب، ولا نشك في أنَّ طبيعتهما تدفعهما دفعًا عنيفًا إلى استئناف هذا الحب وإلى الانتقام لأنفسهما من هذا الحرمان الذي احتملاه، وهما يقاومان، أما هو فيتكلف المقاومة تكلفًا، وأما هي فتقاوم مخلصة تريد أنْ تفي لزوجها وابنتها، ولكنها لا تحب زوجها ولا تسعد بقربه، فليس لها حصن من هذا الحب الجديد إلا ابنتها وإلا أنها ستسافر منذ غد، ولكن زوجها يتحدث إلى صاحب القصر في مكتبه حول تلك الفكرة التي إنْ قبلت فستضطرها إلى ترك الأقاليم والإقامة في باريس، وانظر إلى زوجها وقد أقبل مع صاحبه مبتسمًا يظهر القبول، أما هي فستمانع في ذلك ممانعة شديدة، ولكنها واثقة بالإخفاق؛ لأن زوجها لا يعتد لها برأي.

فإذا كان الفصل الثاني، فقد مضت أربعة أعوام على ما قدمت لك، ونحن في باريس في بيت «كلير»، فقد قبل زوجها ما عرض عليه صاحبه، واستقر في باريس منذ أربعة أعوام، وكان ما لم يكن منه بد، فانتهى الحب إلى نتائجه بين «كلير» وصديقها «فريديير»، ونحن في أوائل السنة، ولهذا نشهد أبوي «أتيين جادان» قد أقبلا يزوران ابنهما، ونشهد معهما أختًا لـ «كلير» شقيَّة تعسة، خانها زوجها وأضاع عليها ثروتها كلها، فلجأت إلى أختها وطلبت الطلاق، «وفريديير» هو الذي يتولى عنها ذلك، ثم نشهد إلى هؤلاء جميعًا فتاة في السادسة عشرة من عمرها، جميلة، بارعة الطلعة، رشيقة، فاتنة اللفظ، ليست بالطفلة، وإنما هي امرأة أو تكاد تكون امرأة، تفكر كما تفكر النساء وتتحدث كما يتحدثن، ولعلها بل لا شك في أنها تحس كما يحسسن، ولكن الناس جميعًا من حولها ينظرون إليها كما ينظرون إلى الطفلة، ويضحكون من جدها كما يضحكون من هزلها، وذلك يؤذيها ويغضبها، فهي تكره أنْ تكون طفلة؛ لأنها ليست طفلة، وهي تريد أنْ ينظر إليها أهلها وأصحابها كما هي لا كما يريدون أنْ تكون، وهذه الفتاة هي «مدلين» بنت «كلير»، وهي تتحدث إلى جدتها وخالتها في شئون مختلفة، حتى إذا عرضن للحب تحدثت فيه كعالمة به، ثم إذا عرضن للزواج ذكرت آمالها وأمانيها في لهجة جادة أثرت في جدتها وخالتها، فتسألانها أتحب أحدًا! فتغضب الفتاة وتنصرف، ونسمع الجدة والخالة تتحدثان

فنفهم أنَّ «فريديير» يتردد على هذا البيت ترددًا متصلًا حتى زالت بينه وبين أهله الكلفة، وأصبح كأنه واحد منهم، وأصبح صاحب البيت لا يستطيع أنْ يمضي يومًا دون أنْ يراه، ونفهم أنَّ الجدة تفرض أنَّ حفيدتها تحب هذا الشاب، وهي تفكر في هذا الحب وأنه قد ينتهي إلى زواج، ثم نفهم أنَّ «فريديير» غائب عن باريس منذ أسبوع قد ذهب يزور أمه، وأنَّ أهل هذا البيت جميعًا يجدون لغيابه وحشة، وما هي إلا أنْ نراه قد خلا إلى «كلير» لحظة، فأخذا يتحدثان في الحب وآثاره وفيما وجد كل منهما من وحشة لهذه الفرقة القصيرة، ويقبل الزوج فإذا هو كحاله لم يتغير، ساخط على الناس جميعًا، يندب حظه ويحسد شريكه «أرنستين» الذي يستغله، ويستغل أعماله فيربح المال ويظفر بالمكانة العالية، أليس يتحدث الناس بأنه سيظفر بالوسام! ويمضي الزوج في سخطه وحسده، حتى يتجاوز الناس إلى زوجه فينالها بضروب من اللوم والتأنيب تحتملها هادئة متألمة، ثم يتركهما وينصرف، فيعودان إلى ما كانا فيه من حديث، وإذا حبهما قد تغير وأصابه شيء من الفتور في نفس «فريديير»، فليس هو ذلك المفتون المُدَلَّه الذي رأيناه في الفصل الأول، وإنما هو هادئٌ مطمئنٌ يتكلف الافتتان والهيام، أما «كلير» فبعيد حبها كل البعد عن الهدوء والفتور، وإنما هو يتلظى ويضطرم، وهي تجتهد الاجتهاد كله في تخفيفه وتلطيفه، وقد طلب إليها صاحبها أنْ تزوره اليوم وأعلن إليها أنه ينتظرها فتعتذر؛ لأنها لا تستطيع، فهي مضطرة إلى زيارة لا يمكن إرجاؤها.

– فإذا فرغت من هذه الزيارة فمري بي.

– لا أستطيع لأن ابنتي سترافقني.

وهنا يغضب الرجل غضبًا شديدًا، ويظهر مللًا وتبرمًا بهذه الحياة المضطربة التي تختلس فيها اللذة اختلاسًا، والتي تقوم على النفاق والخديعة، والتي لا يستطيع الحب أنْ يظهر فيها واضحًا صريحًا، وهو لا يتبرم بهذا وحده، وإنما يتبرم بهؤلاء الناس الذين يضطرونه إلى هذا النفاق والخداع، يتبرم بالفتاة ويعلن أنه يكاد يكرهها، فلا تجيبه صاحبته إلا بالبكاء والاستعطاف والدفاع عن ابنتها، ثم ينتهي بهما الأمر إلى الرضا والصفو، وقد أقبلت الفتاة فأعلنت إلى أمها أن قد آن الوقت للزيارة، فتنصرف لتستعد، وتخلو الفتاة إلى «فريديير» فيتحدثان، وإذا الفتاة تحدث هذا الرجل على نحو ما كانت تحدثه أمها، لهجتها ورشاقتها وأسلوبها وطريقتها في التفكير، كل ذلك يصور أمها تصويرًا صادقًا، وهي جادة ولكن صاحبنا كغيره يضحك منها ويحدثها كما يحدث الأطفال، فيغضبها ذلك ويؤذيها، ويضطر هو إلى أنْ يترضاها، وقد كفانا هذا الحديث

لنفهم شيئين، الأول أنَّ الفتاة مفتونة بهذا الرجل فتنة لا حد لها، فهي تحبه وتحرص على أنْ تعجبه وترضيه، وعلى أنْ ينظر إليها كما ينظر إلى فتاة تحب وتفهم الحب، والثاني أنَّ صاحبنا يحس من نفسه شيئًا كهذا ولكنه يتجاهله وينكره ويقاومه ويعبث به، ويسلك فيه سبيل الهزل، وهو يسأل الفتاة عما أهدي إليها أول السنة، فتذكر له هدايا كثيرة لم يعجبها منها إلا اثنتان، هديته هو وهدية أبيها.

– وما هدية أبيك؟

– دفتر حسن التجليد مذهب مقفل، سأتخذه لأكتب فيه مذكراتي.

– وهل لك مذكرات؟

فيغضبها هذا السؤال، وكيف لا تكون لها مذكرات وليست بالطفلة ولا الصبية، ولكنها كغيرها من الناس تفهم وتشعر؟! وقد أقبلت أمها فينصرفون جميعًا.

فإذا كان الفصل الثالث فنحن في قصر «أرنستين» في ليلة راقصة قد كثر فيها المدعوون إلى الرقص وغيره من اللهو، ففي القصر ملعب للتمثيل تلعب فيه صاحبة القصر نفسها مع عشيق جديد لها؛ لأنها قد زهدت عشيقها الأول، وازدحم الناس في هذا الملعب إلا ثلاثة من الشبان انتحوا ناحية، وأخذوا يتحدثون ويعبثون بأهل القصر ومن دُعُوا إليه، ويذكرون جمال النساء والفتيات وآمالهن ومطامع الشبان في مساعيهم، وقد فهمنا من حديثهم أنَّ «مدلين» قد أقبلت إلى هذه الحفلة في زي الفتاة لا في زي الطفلة، وهي تتقدم اليوم لأول مرة إلى الحياة العامة؛ أي تظهر على أنها فتاة تشارك الناس في حياتهم، فلهم أنْ يخطبوها، ولها أنْ تتزوج، وليس من يفكر الآن في الخطبة ولا في الزواج، وإنما هؤلاء الشبان يذكرون جمالها وروعتها ويريدون أنْ يغنموا من ذلك بحظ، يريدون أنْ يراقصوها وذلك يسير إذا قدموا إليها، ولا تلبث صاحبة القصر أنْ تقبل وقد فرغت من لعبها وغنائها فيستبق إليها هؤلاء الشبان يهنئونها ويشكرونها، ولم يذكروها من قبل إلا بالسوء، ثم يطلب إليها أحدهم أنْ تقدمه إلى «مدلين» فتفعل، والناس يترددون في غرف القصر، ونلمح من بينهم صاحب القصر قد انتحى مع صديق له ناحية فهو يحدثه، واسم هذا الصديق «هيبنس» نفهم من حديثهما أنه كان في الهند الصينية منذ أعوام، وأنه عاد إلى باريس، فإذا هي قد تغيرت، وإذا هو لا يعرف أهلها ولا يعرفونه، ولذلك يريد أنْ ينصرف من هذه الحفلة، فيأبى عليه صاحب القصر ويقدمه إلى قريبة له جميلة رشيقة يطلب إليها أنْ تنبئه بكل شيء، وتظهره على كل شيء، حتى يألف الناس ويألفه الناس،

فتعده بأنها ستبذل في ذلك جهدها وترجو أنْ توفق، ولا تكاد تتحدث إلى صاحبها حتى تبدأ بصاحب القصر وصاحبته فتغتابهما وتقص أمرهما على الرجل، وتذكر حب صاحبة القصر وعبثها واستهزاءها بزوجها، وتحس أنها ستتناول المحتفلين جميعًا بهذه الغيبة، ولكن الناس يترددون في الغرف يذهبون ويجيئون في المقصف وإليه، فتخلو الغرفة منهم أو من أكثرهم من حين إلى حين، وقد رأينا الشبان يستبقون إلى «مدلين» يطلبون إليها أنْ تراقصهم، ورأينا «مدلين» تقبل ذلك مبتهجة مسرورة، ورأينا أنها بذلك سعيدة، وسمعنا الناس يذكرون أنها ملكة هذه الليلة، وأنَّ جمالها قد ظفر بفوز لا يعدله فوز، وها نحن أولاء نرى «كلير» قد خلت لحظة إلى صديقها «فريديير» فأخذت تحدثه: نحن وحدنا فضمني إليك!

– لسنا وحدنا.

– تستطيع أنْ تتلطف لي في اللفظ فتذكر جمال ثيابي وتنسيق شعري.

– فيظهر ترددًا.

– ما أشد حذرك!

– وما أقل حذرك!

ثم يتحدثان، فإذا حب الرجل لم يزدد إلا فتورًا، وإذا حبها لم يزدد إلا اشتعالًا واضطرامًا، وإذا هي تألم لفتوره، وإذا هو يألم لهذا الفتور أيضًا، ولكنه قد انقطع عن زيارتهما منذ أسبوعين، وكان متعودًا ألا ينقطع عنها يومًا، فهي تعاتبه، وهو يزعم أنَّ عمله كثير، ثم يأتي من يشغلهما، فإذا عاد إلى مكانهما وإلى الخلوة حينًا سمعناها تتحدث إليه في رفق وألم، بأنها سمعت الناس يثنون على ابنتها وعلى جمالها ويذكرون فوزها، وبأن صاحب القصر قد تحدث إليها في رجل يعرضه زوجًا «لمدلين»، ودلها على هذا الرجل، وهو «هيبنس» الذي ذكرناه آنفًا، وقد نظرت إليه فأعجبها منظره، وهي تريد أنْ تخبره، تتحدث إليه بهذا كله في رفق وألم واضطراب، وكيف لا تألم ولا تضطرب وقد كانت تنظر إلى ابنتها كأنها طفلة لا كأنها فتاة يمكن أنْ تخطب، وكانت تحسب نفسها شابة، وكانت تستمتع بحقوق الشباب في حرية وشجاعة، أما الآن فابنتها تخطب، وإذن فليست هي من الشباب بحيث كانت تظن، وإذن فليس لها أن تستمتع بحقوق الشباب في حرية، بل يجب عليها أن تحذر وتحتاط حتى لا تضيع مستقبل ابنتها، ولا تُعرِّض اسم الأسرة للخطر، أليس هذا كله يكفي لتألم وتضطرب! وأيهما منتصر: الحب الذي لا حد له، أم الأمومة تملؤها الرأفة والعطف والحرص على سعادة الأبناء! أتسترسل في

حبها الذي يحرقها تحريقًا، أم تقتصد فيه، بل تنصرف عنه؛ لتكون أمًّا حقًّا؛ ولتؤدي واجب الأمومة حقًّا! وأي حق لها في أن تضحي بابنتها ومستقبلها وكرامة الأسرة؛ لأنها تحب وتريد أن تستمتع بالحب؟ وهي تكره زوجها وتشقى بقربه، ولكن ما ذنب الفتاة؟! وهل هي التي خلقت هذا الشقاء؟! هي تحب صاحبها، وتسعد بقربه، وتشقى بفراقه، ولكن ما ذنب الفتاة؟! وهل هي التي خلقت هذا الحب؟! ثم إنَّ الأمومة لا تُعلل، وليس كل شيء فيها يمكن فهمه وتأويله، هي أمٌّ، فيجب أن تضحي بنفسها في سبيل ابنتها، وماذا تكون النتيجة لو سمعت الفتاة بحب أمها الآثم؟ يجب أن ينتهي هذا الحب، ويجب أن يحتمل هذا الألم، ويجب ألا تلقى صاحبها إلا في حذر واحتياط، وقد أقبلت الفتاة فحيت «فريديير» تحية المبتهجة بلقائه، وجلست إليه تحدثه، وانصرفت أمها، فأخذت تطلب إليه نفس ما كانت تطلبه أمها من تلطف وثناء، وأخذ هو يتضاحك أول الأمر فيغضبها ذلك ويحزنها، ثم يأخذ في التلطف والثناء مخلصًا، فيسرها ذلك ويرضيها، وإذا هو قد اندفع في الثناء اندفاع المحبين، وكاد يعلن حبه، ولكنه ملك نفسه قبل أن ينطق بالكلمة الخطيرة، وهل تظن أنَّ مقاومته تغني عنه شيئًا؟ اسمع إلى الفتاة وهي تقص عليه فوزها، وتذكر له أنَّ أحد الراقصين أسرف في التلطف لها وفي ضمها إليه، وإذا صاحبنا غيران لا يملك نفسه، وإذا هو يلوم ويؤنب ويشير إلى صدرها العاري وإلى ذراعيها الظاهرتين ساخرًا منكرًا، وهي بذلك سعيدة فرحة، أليس تعلن إليه راضية أنها لن ترقص الليلة، وقد أحس هو أنه أسرف وباح بسره، فأراد أن يتراجع وأخذ يعتذر ويلح على الفتاة في أن ترقص.

وأقبلت أمها أثناء هذا كله، فسمعت آخر الحديث ولم يرياها، حتى إذا رأياها وأخذ يشركانها في حديثهما أقبل أحد الشبان إلى الفتاة يسألها الرقص، فتنظر إلى «فريديير» كأنها تستأذنه، وينظر هو إليها كأنه يأذن فتنصرف مع الفتى، والناس يترددون في الغرف، وقد امتلأت الغرفة، ثم فرغت إلا من جماعات متفرقة، يعنينا منها هذان الشخصان اللذان انتحيا ناحية يتحدثان وهما «هيبنس» وصاحبته، وهما يمضيان في الغيبة والعبث بأسرار الناس، وقد أقبلت أثناء هذا «مدلين»، فوقفت منهما غير بعيد والفتى لا يعرفها، فهو يسأل صاحبته عن «كلير» ويذكر جمالها، و«مدلين» تسمع وصاحبته تغمزه أنْ يكف فلا يفعل بل يمضي في حديثه، فيذكر سعادة «فريديير» بخليلة كهذه فتسأله صاحبته: ومن أنبأك بهذا؟ يجيبها: أنت منذ حين، وهي تنكر، وماذا ينفع الإنكار وقد سمعت «مدلين» كل شيء فصعقها ما سمعت وهوت إلى الأرض، وقد فقدت الرشد وأقبل الناس إليها مسرعين وأولهم أمها.

فإذا كان الفصل الرابع، فقد مضى على ذلك أسبوعان ونحن عند «كلير» وهي تتحدث إلى أختها محزونة واجمة، فإن ابنتها مريضة مرضًا يجهله الطبيب ويعجز عن دوائه، وقد أرَّقتها العلة المجهولة تأريقًا متصلًا، فهم يحتالون كل الاحتيال في أنْ تنام فلا يزورها النوم إلا غرارًا، وأمها تريد أنْ تعرف هذه العلة ومصدرها، ولكن ابنتها لا تحدثها بشيء، بل هي تنكر أنها مريضة وتنكر أنها تألم، ولا تشك «كلير» وأختها في أنَّ مصدر هذه العلة إنما هو الحب أو شيء متصل بالحب، ولكنهما تريدان أنْ تعلما شيئًا واضحًا، فتقترح عليها أختها أنْ تنظر في مذكرات الفتاة فهي وحدها التي تستطيع أنْ تكشف هذا السر، تتحرج الأم حينًا من النظر في هذه المذكرات دون إذن ابنتها، ولكن عزيمتها تتم على ذلك فتمضي أختها فتسترق الدفتر في رفق وتنظران فيه فلا تكادان تقرأن منه قليلًا حتى تتبينا أنَّ الفتاة تحب «فريديير»، تكفان عن القراءة، وتطلب «كلير» إلى أختها أنْ تتركها، فتخلو إلى نفسها صعقة تنظر في الدفتر وتفكر وتتحدث إلى نفسها، وإذا الفتاة قد أقبلت تمشي مشيًا هينًا، وقد رأت فيما يرى النائم أنَّ دفترها يسرق فأفاقت من النوم وافتقدت الدفتر فلم تجده، فأقبلت إلى أمها فرأتها تنظر فيه، فهي تزجر أمها زجرًا عنيفًا تتهمها بالسرقة والخيانة، وتأخذ الدفتر من يدها فتقذفه في عنف، وأمها ترفق بها وتستعطفها، والفتاة ماضية في السخط، حتى إذا أخذت تهدأ بعض الشيء أحست إساءتها إلى أمها فرقت، وأدنتها أمها إليها وأخذت تلاطفها وتهزها في لين، وتسألها أنْ تظهرها من أمرها على كل شيء، والفتاة تقاوم، ولكنها سئمت المقاومة وعجزت عنها، فتذكر لأمها كل شيء، وتنبئها بما سمعت.

فانظر إلى هذه المرأة كانت تخشى أنْ يتسامع الناس بحبها، وكانت تخشى أنْ تعلم ابنتها بهذا الحب، وكانت معتزمة الانصراف عن هذا الحب، وكانت ترى هذه التضحية بنفسها حقًّا عليها لابنتها فماذا تسمع الآن؟ تسمع أنَّ ابنتها تحب عشيقها، وأنَّ ابنتها تعلم بهذا الحب، لو لم تكن أمًّا لصعقت بما تسمع، ولكنها أم تريد أنْ تنقذ ابنتها، فهي ليست صعقة ولا مضطربة، ولكنها مغضبة ثائرة، تنكر ما اتهمت به وتقسم أنه كذب، وقد رأت الفتاة الصدق فاطمأنت إليه، وأخذت تبتسم، ثم أخذت تحيا، ثم أخذ الأمل يستأثر بها، وإذا هي قد استردت نشاطها وابتهاجها، وهي تسأل أمها أيمكن أنْ أتزوج «فريديير»! فتجيبها: أنت تحبينه! فإذا كان يحبك فماذا يمنع من الزواج؟

– هو يحبني، لا أشك في ذلك، لقد ظهر لي ذلك منه ظهورًا جليًّا، وتقص عليها غيرته ليلة الرقص.

– إذن فستتزوجينه!

وتدخل الخادم فتنبئ بأن «فريديير» يستأذن، فتنصرف الفتاة تاركة لأمها أنْ تتحدث في هذا الحب إلى «فريديير» فإذا خلت «كلير» إلى صاحبها لم تضع الوقت في كلام لا يفيد، وإنما أنبأته بما تعلم من أسباب العلة التي أضنت ابنتها، وأعلنت إليه أنَّ الفتاة تحبه، ثم لم تلبث أنْ أعلنت إليه أنه يحبها أيضًا، ومهما ينكر، ومهما يتكلف فقد ثبت ذلك وهو لا يستطيع أنْ يخفيه، ولكنه لم يجنِ ما تظن، فهو لم يُغوِ الفتاة ولم يعبث بقلبها الطفل، وإذا كانت الفتاة قد أحبته فلم يسعَ هو إلى ذلك ولم يفكر فيه، كما أنه لم يتعمد حب الفتاة ولم يقصد إليه، فهو يحبها حقًّا، ذلك شيء لا يستطيع أنْ ينكره، ولكنه لا يدري كيف أحب، وإنما يعلم أنه أحس هذا الحب يقوى في قلبه، وأحس أنه يقوى في قلب الفتاة فقاومه ما استطاع حتى إذا استيأس من الفوز انقطع عن البيت، وهو الآن معتزم أنْ يسافر إلى حيث لا يعود، وعزيز عليه هذا، عزيز عليه ما أحدث من ألم في قلب هذه الأم التي يحبها، عزيز عليه ما أحدث من يأس في قلب هذه الفتاة البريئة، هو لا يعلم لِمَ أحب الفتاة، ولا كيف أحبها.

ولكن «كلير» تعلم ذلك؛ إنما أحب الفتاة لأنها تشبه أمها حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وحين كان يحبها ويهواها، وحين حيل بينه وبين الاقتران بها، وهي تطلب إليه الآن شيئًا عظيمًا، تطلب إليه ألا يسافر، تطلب إليه أنْ يتزوج الفتاة، يصعقه هذا الطلب فيجن جنونه ويتهم صاحبته بالجنون وفقدان الرشد، وكيف يستطيع أنْ يتزوج هذه الفتاة وهو عشيق أمها! أليس في ذلك منكر لا يعدله منكر! وليس من الحق أنَّ هذه الفتاة تستطيع أنْ تسعد بهذا الزواج؛ فستفكر أبدًا في أمها، وستعلم من غير شك أنَّ أمها قد كذبتها، وسيقوم ذلك الحب الآثم في سبيل هذا الحب المشروع، ولكن الأم مطمئنة تعلم حق العلم أنَّ الفتاة ستسعد، وأنه هو سيسعد أيضًا، وأنَّ الفتاة ستجهل هذا الحب الآثم، وأنه هو سينساه، تلح في الزواج، ويلح في الإباء، ويكون بينهما حوار لا أحاول تلخيصه فوق التلخيص، ولكنها عجزت في إقناعه فوكلت إليه هو أنْ يعلن رفضه إلى الفتاة، وتدعو الفتاة، فتقبل فرحة مبتهجة وتحييه تحية الواثقة المطمئنة إليه، فإذا أعلن إليها أنه مسافر إلى حيث لا يعود ظهر عليها من الاضطراب واليأس شيء لم يستطع هو أنْ يحتمله، وكأنها تصدق ما سمعت، وإذا هو يعلن إليها أنه سيعود ويعلن إليها ما يفهم

منه أنه قبل الزواج، وهي فرحة قد طارت فرحًا إلى خالتها تدعوها لتسمع هذا النبأ، وخلا العاشقان لحظة، فإذا هو يعترف بعجزه عن مواجهة الفتاة بالحق، وإذا هي تقر الزواج مضحِّية بحبها في سبيل ابنتها.

– إني لأقدسك!

– إنْ أنا إلا امرأة شقية.

مايو ١٩٢٤